

نقي الدين محمد بن علي ابن دتيق العيد

عصره - حياته - علومه
وأثره في الفقه

محمّد امين، عبد الفتاح مصطفى العيزري



دار البشير
للتوزيع



تقني الدين محمد بن علي
ابن دتيق العيد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

٩٢٢، ١٧

محمد رامز عبد الفتاح العزيري

محم

تقي الدين محمد بن علي بن دقيق العيد / محمد رامز

عبد الفتاح العزيري .

عمان : المؤلف ، ١٩٨٨ .

ص (٢٣٢)

ر.أ (٣٦٧ / ٧ / ١٩٨٨)

١ - رجال الدين - تراجم أ - العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

رقم الإجازة المتسلسل ٣٤١ / ٧ / ١٩٨٨

رقم الإيداع ٣٦٧ / ٧ / ١٩٨٨

Dar Al-bashir

For Publishing & Distribution

دار البشير

للشؤون والتوزيع

Jerusalem Jewel Center / Al-Abdali

Tel: (659891) / (659892)

Fax: (659893) / Tlx. (23708)

P.O. Box: (182077) / (183982)

Amman - Jordan

مركز جوهرة القدس التجاري - العبدلي
هاتف ٦٥٩٨٩١ - ٦٥٩٨٩٢ - فاكس ٦٥٩٨٩٣ - تليفون ٢٣٧.٨
ص.ب ١٨٢.٧٧ - ١٨٢٩٨٢ - عمان - الأردن

تقي الدين محمد بن علي ابن دقيق العيد

عصره - حياته - علومه
وأثره في الفقه

المؤلف

محمد رافع، عبد الفتاح مصطفى العيزري

قال تاج الدين السبكي :

لم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن
دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس
السبعمائة، المشار إليه في الحديث
المصطفوي النبوي، ﷺ، وأنه أستاذ زمانه؛
علماً وديناً.

دار التبشير
بسنن التورج



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل بشيراً
ونذيراً للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . وبعد :

فمن نعم الله تعالى على العالمين، العلماء العاملون، فهم مصابيح
الدجى، وأئمة الهدى، وحجة الله في أرضه، بهم تمحق الضلالة من الأفكار،
وتنقشع غيوم الشك من القلوب والنفوس، ويعرف الخطأ من الصواب، والهدى
من الغي والضلال، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في
الظلمات، فالرجل المؤمن الصالح أدل على الفضيلة من مائة كتاب، ولهذا يرسل
الله النبي مع كل كتاب منزل، ليؤتي الكلمة قوة وجودها، قال تعالى : ﴿لقد كان
لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(١)،
وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ فقالت: «كان خلقه
القرآن»^(٢).

وصلاح الناس يتوقف على صلاح العلماء والحكام ، وفسادهم بفساد
علمائهم وحكامهم . ذلك ما نطق به الصادق المصدوق سيدنا محمد ﷺ . قال
عليه السلام : «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس :
العلماء والأمراء»^(٣).

(١) الأحزاب: ٢١ .

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» .

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» .

وتاريخنا حافل بالعلماء العاملين، الذين تحلوا بصفة العلم والعمل، والتقى والزهد، والجرأة في الحق، والصلابة في التمسك بالعدل، والمحافظة على حدود الشرع. وحكام المسلمين اليوم بحاجة ماسة أكيدة إلى من يذكرهم ويصارعهم بحالتهم وحالة أمتهم، ويدلهم على مواطن الداء، ونافع الدواء، بعد هذا الذي صار إليه حال المسلمين اليوم. والعالم الإسلامي لم يخل على مر العصور من أمثال هؤلاء كالحسن البصري، وسفيان الثوري، وطاووس بن كيسان، والعز بن عبد السلام وغيرهم.

وكان قاضي القضاة تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد، أحد هؤلاء العلماء العاملين، ومن أساطين الفكر وأئمة الدين، وممن يتغون بعلمهم وجه الله والدار الآخرة، فيراقبون الله في أقوالهم وأعمالهم، من أجل ذلك وجدت نفسي مدفوعاً لتناوله في هذه الدراسة، ولم يكن عالماً من علماء السلاطين المتكالبين على المراتب والوظائف، يجاملون في سبيل ذلك الأمراء والسلاطين، فيفتون بغير ما أنزل الله، وإنما كان يتوخى في قضائه وآرائه وفتاواه - مهما كانت النتائج والعواقب - وجه الله والدار الآخرة، وكان أثناء توليه القضاء إذا سمع ما يكره عزل نفسه، قال الشيخ السبكي فيه^(١). لم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة، المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي^(٢)، وأنه أستاذ زمانه علماً ودينياً. فقد كان من العلماء العاملين الداعين لتطبيقه بلسان صدق وجنان ثابت لا تزغزغهم

(١) تاج الدين السبكي: «طبقات الشافعية الكبرى» ج٦ ص ٣.

(٢) يريد الحديث النبوي الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ وهو قوله عليه السلام: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» رواه أبو داود في أول كتاب الملاحم، كما أخرجه الحاكم.

شهوة نفس ولا نشوة سلطان، ولا يخافون في سبيل ذلك ملكاً ولا جباراً، فهو يشبه في ذلك أستاذه الشيخ العز بن عبد السلام فقد تأثر به كثيراً، ولكثرة إعجابه بجرأته بالحق، ومقارعتة للسلطين وتغلبه عليهم، وزهده بالمناصب الدنيوية، سماه سلطان العلماء؛ لأنه كان في نظره أعظم من السلطين وأفضل علماء عصره.

ولمعرفة حقيقة هذا العالم الجليل علينا أن نتعرف حالة العصر الذي عاش فيه من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لأن الإنسان يتأثر بما يكتنفه من أوضاع، وبما يحدث أو يقع حوله من أحداث، فبذلك نمهد تمهيداً حسناً لترجمة حياته، ودراسة آثاره العلمية والفقهية. ومما شجعني على اختيار ترجمة حياة هذا العالم الجليل ليكون موضوع بحثي هو ما يلي:

١ - رغبتني في بيان أثره على الفقه الإسلامي عامة، والفقه المالكي والفقه الشافعي خاصة، لينتفع بعلمه.

٢ - بعده عن التعصب المذهبي.

٣ - سعة علمه وغوصه على المعاني الدقيقة، ودقة استنباطه للأحكام.

٤ - ورعه وتقواه، وجرأته في الحق، وإخلاصه النصيح لله ولرسوله، ولعامة المسلمين، لتكون سيرته نموذجاً يقتدى به العلماء ويهتدى به الجيل الإسلامي من الشباب المسلم في هذا العصر، وخاصة أننا نعيش في فترة من الزمن تشبه إلى حد كبير الفترة التي عاشها محمد بن علي بن دقيق العيد رحمه الله تعالى.

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وباين وخاتمة، ففي التمهيد استعرضت العصر الذي عاش فيه ابن دقيق العيد من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لفهم روح العصر الذي عاش فيه.

وفي الباب الأول عرفت بابن دقيق العيد فتكلمت عن اسمه وكنيته ولقبه

ومولده، وعن طلبه للعلم وجلده فيه، وذكرت أساتذته ومن روى عنهم، وترجمت
لثلاثة من أشهر أساتذته وهم: والده علي بن دقيق العيد، والشيخ بهاء الدين
القفطي، والشيخ العز بن عبد السلام.

ثم تكلمت عن تصديه للتدريس، والمدارس التي درس فيها، وترجمت
لثلاثة من أشهر تلاميذه أيضاً، وهم: عماد الدين بن الأثير الحلبي، وعلاء الدين
القونوي، وفتح الدين بن سيد الناس.

وتكلمت عن تصديه للقضاء، وذكرت بعض آثاره الحسنة ومواقفه الحازمة
التي تدل على تمسكه بالحق ووقوفه في وجه الطغاة والظلمة، وختمت هذا الباب
بفصل تحدثت فيه عن أخلاقه وتصوفه وثناء العلماء عليه.

وأما الباب الثاني فقد خصصته لبيان علومه وأثره في الفقه، فبينت أن جميع
من أرخوا له، أجمعوا على غزارة علمه وسعة اطلاعه. وتمكنه في مختلف العلوم
الشرعية واللغوية والعقلية، إلا أنه اشتهر بالفقه والحديث والأدب.

فبالنسبة لأدبه ذكرت نماذج من نثره ونماذج من شعره.
وبالنسبة لعلمه في الحديث؛ فقد ذكرت أسماء الكتب التي ألفها في هذا
العلم رواية ودراية.

أما بالنسبة لأثره في الفقه فقد تكلمت عن أثره في الفقه المالكي ومؤلفاته
فيه، وبينت أنه وصل إلى درجة المجتهد المذهب فيه.

وبالنسبة لأثره في المذهب الشافعي بينت أنه بعد أن أتقن دراسته انتقل إليه
وقام بتدريسه مع مذهب مالك، وكان يفتي الناس فيه وفي مذهب الإمام مالك
طيلة حياته، وأوضحت أنه ارتفع عن التقليد المطلق فيه ونظر إلى الأدلة وناقشها
وبين صحيحها من سقيمها، وانتهت إليه رياسة المذهب في زمانه.

ثم تكلمت بعد ذلك عن أثره في الفقه عامة، فبينت أن أكثر ما امتاز به هو
فقه الحديث .

ثم تكلمت عن درجته في الاجتهاد فبينت أنه وصل إلى درجة المجتهد
المطلق .

وفي الخاتمة ذكرت أهم الحقائق التي برزت لي أثناء دراستي لحياة هذا
العالم الجليل وآثاره في الفقه، ثم أعقبته ببعض التوصيات .

وأرجو الله أن أكون قد وفقت في إبراز صورة واضحة لهذا العالم
العامل الذي كان من أساطين الفكر وأئمة الدين .

محمّد امّنا، عبّداً للفنّان، مصطفى العيّري

عمان - الأردن

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

في استعراض العصر الذي عاش فيه، وفيه أربعة مباحث:

- ١ - الناحية السياسية .
- ٢ - الناحية الاقتصادية .
- ٣ - الناحية الاجتماعية .
- ٤ - الناحية الثقافية .

لما كان ابن دقيق العيد عاش في القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن، حيث ولد سنة خمس وعشرين وستمائة هجرية (٦٢٥هـ) ومات سنة اثنتين وسبعمائة هجرية (٧٠٢هـ) كما سأوضح ذلك إن شاء الله، فيكون قد ولد ودولة الأيوبيين لاتزال مسيطرة على ربوع مصر والشام. ومات ودولة المماليك قائمة، بل كانت في أوج عظمتها، وعنفوان قوتها، فالفترة التي عاشها تتظم أخريات الدولة الأيوبية، وفجر عصر المماليك، وكانت الحروب الصليبية أهم الأحداث التي شغلت العهد الأيوبي، أما العهد المملوكي فكانت أهم أحداثه محاربه التتار، ومحاربة الصليبيين أيضاً، وفي هذا العهد تم استئصال الصليبيين من بلاد الشام على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وذلك سنة اثنتين وتسعين وستمائة للهجرة (٦٩٢هـ) في زمن ابن دقيق العيد.

وسأعرض إن شاء الله لهذين العصرين اللذين عاش فيهما ابن دقيق العيد، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ تمهيداً لترجمة حياته، وبيان أثره في الفقه، لتتفهم روح العصر في كل منهما واتجاهاته، وما حصل فيه من أحوال كان لها أكبر الأثر في حياته العامة والخاصة، ومن مواقفه من الحكام وخاصة في أثناء تولية القضاء.

المبحث الأول

الناحية السياسية

الكلام فيها محصور في عصرين: العصر الأيوبي، والعصر المملوكي .

العصر الأيوبي :

المعلوم من التاريخ ، أن صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي ، هو الذي أقام في مصر دولة الأيوبيين ، حيث حضر إليها مع عمه أسد الدين شيراكوه بن شادي ، من قبل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، حاكم دمشق وحلب ، بطلب من الخليفة الفاطمي العاضد ، حيث اتصل سراً بنور الدين ، وطلب عونه ضد الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بلبيس^(١) ، واعملوا فيها القتل والسلب وضد وزيره شاور الذي كان قد استبد بالسلطان دونه^(٢) فحضر صلاح الدين مع عمه شيراكوه إلى مصر ، وقبض صلاح الدين على شاور ، وصدرت أوامر الخليفة بالقضاء عليه فقتل ، واسندت الوزارة إلى شيراكوه ، ولكن هذا مات بعد شهرين ، فآلت الوزارة إلى صلاح الدين ، وتمكن صلاح الدين بحنكته ودهائه ، وبعد همته وشجاعته ، أن يجمع السلطة في يده ، فقطع الخطبة للفاطميين ، وخطب باسم الخليفة العباسي واسم نور الدين ، وعزل القضاة الشيعة ، وعين قاضياً شافعيّاً في القاهرة ، فاستتاب هذا عنه القضاة الشافعيين في جميع البلدان^(٣) .

(١) بلبيس : مدينة مشهورة في القطر المصري من محافظة الشرقية تقع على بعد خمسين كيلومتر تقريباً من القاهرة .

(٢) الدكتور أحمد شلبي : «موسوعة التاريخ الإسلامي» ، ج ٥ ص ١٥٩ / ٢ ط / القاهرة .

(٣) ابن الأثير : «الكامل في التاريخ» حوادث سنة (٥٦٧هـ) .

وأنشأ صلاح الدين رحمه الله المدارس لتدريس المذهب الشافعي في مصر، فعادت مصر إلى أحضان المذهب السني، واختفى مذهب الشيعة تدريجياً حتى انقرض من مصر في عصر المماليك.

وقد بدأت سلطة صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٤هـ ولكنه لم يسقط الخلافة الفاطمية إلا سنة ٥٦٧هـ وذلك بأمر من نور الدين زنكي، وكان الخليفة العاضد أثناء عزله مريضاً منزوياً في بيته، ومات ولم يعلم بعزله.

وكان صلاح الدين طيلة حياة نور الدين يحكم باسمه، ويثبت اسمه في الخطبة، وينقشه على السكة، ويرسل له الهدايا والتحف النفسية^(١). وبعد موت نور الدين أعلن صلاح الدين نفسه سلطاناً على مصر سنة ٥٦٩هـ، وأيد الخليفة العباسي هذه الدعوة، وزحف إلى الشام فاستسلمت إليه، وامتد نفوذه إلى الموصل، وبذلك امتد نفوذه من النيل إلى الفرات فيما عدا معقل الفرنجة، كما وسع صلاح الدين سلطانه إلى بقاع أخرى، فأرسل أخاه طورون شاه إلى شواطئ شمال أفريقيا، فاستولى على طرابلس وتونس حتى مدينة فاس، وأنقذها من الفرنجة النورمنديين، ثم أرسله إلى بلاد النوبة والسودان، فاستولى عليها، ثم بعثه إلى اليمن فاحتلها، وضمها إلى سلطانه سنة ٥٦٩هـ، ثم دانت له الحجاز التي كانت تابعة لمن يستولي على السلطنة بمصر منذ العهد الأخشيدي^(٢).

وبعد أن صارت له هذه الدولة الواسعة وجيوشها، ووحد كلمة المسلمين، خاض غمار الحروب الصليبية، فهزم الصليبيين في معركة حطين قرب بحيرة

(١) ابن واصل: «مفرج الكروب» ص ٥٠، السكة: النقود.

(٢) أحمد شلبي: الموسوعة الإسلامية ج ٥ ص ١٦٨.

طبرية سنة ٥٨٣هـ^(١)، واستولى بعد ذلك على عكا وحيفا والناصرية وقيسارية وبيروت، وتوج انتصاراته بفتح بيت المقدس التي استسلمت له سنة ٥٨٣هـ.

توفي صلاح الدين رحمه الله سنة ٥٨٩هـ ولم يخلف إلا ستة وثلاثين درهماً، وقطعة واحدة من الذهب، كما لم يخلف داراً ولا عقاراً^(٢)، وكان يقول: ﴿إن بقيت الدار لنا فلنا كل ما فيها، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو﴾.

لكن الذكرى العطرة التي خلفها خلدت ذكراه، ولم يصلها أي زعيم مسلم بعده. وكان صلاح الدين رحمه الله، قد عين أبناءه وإخوانه أمراء على البلاد التي استولى عليها، فكان ابنه العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان أميراً على مصر، وابنه الأفضل نور الدين على دمشق وجنوب سوريا، وابنه الظاهر غياث الدين غازي على حلب، وأخوه العادل على الموصل وديار بكر والكرك والشوبك.

وتولى أفراد من أسرته باقي المدن والإمارات.

وبعد وفاته استقل كل أمير بما تحت يده، ثم دب الشقاق والخلاف بينهم، وآل الأمر في معظم الممالك إلى أخيه العادل، الذي كان أميراً على الكرك والشوبك حيث ضم مصر إليه، ومعظم بلاد الشام.

(١) تعتبر معركة حطين أهم المعارك الحاسمة في الحروب الصليبية، وذلك أنها مهدت الطريق لاسترداد بيت المقدس وسقوط المملكة الصليبية بعد أن عاشت في بلاد الشام زهاء تسعين عاماً، وكان عدد الصليبيين في هذه المعركة يقرب من خمسين ألف مقاتل وعدد المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل نظامي، وعدد من المتطوعة، واستطاع المسلمون في هذه المعركة أن يهزموا الصليبيين شر هزيمة وأسر سائر الأمراء وفي مقدمتهم ملك بيت المقدس الصليبي والأمير أرناط ملك الكرك، وسميت هذه المعركة بمعركة حطين لأنها وقعت قرب قرية حطين التي تقع في شمال فلسطين قرب مدينة طبريا.

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج-١٣ ص ٤ مطبعة السعادة - القاهرة.

ثم مات العادل سنة ٦١٥هـ، وكان قد عين ابنه الكامل محمد على مصر وبيت المقدس والقسم الذي حرره صلاح الدين من الصليبيين من فلسطين، وعين ابنه المعظم عيسى على دمشق، وعين ابنه الأشرف موسى على الموصل، كما عين ابنه الصالح إسماعيل على بعلبك، وعندما توفي استقل كل واحد منهم بما تحت يده.

وقد كانوا في أول الأمر أكثر اتفاقاً فيما بينهم من أبناء صلاح الدين؛ فعندما هاجم الصليبيون مصر واستولوا على دمياط استنجد الملك الكامل بأخويه المعظم والأشرف فهبا لنجدته وأخرجوا الصليبيين من مصر، وكان ذلك سنة (٦١٨هـ)^(١)، إلا أن أبناء العادل فيما بعد اختلفوا فيما بينهم، ونتيجة لهذا الخلاف؛ سلم الملك الكامل محمد إلى الإمبراطور فردريك الثاني ملك الصليبيين بيت المقدس وبيت لحم والناصره وشريطاً يصل هذه البقاع بعكا التي كانت قد صارت عاصمة بيت المقدس وتم ذلك في اتفاقية يافا سنة (٦٢٨هـ)^(٢). وبدون أن يحصل بينهما قتال، فرد إليهم ما كان صلاح الدين قد استنفذه منهم، وذلك ليتفرغ لقتال ابن أخيه الملك الناصر داود ابن أخيه الملك بن المعظم عيسى وإخراجه من دمشق.

وقد هاجم المسلمون الملك الكامل بسبب هذه الإتفاقية، وبكوا على ضياع بيت المقدس، وأعدوا العدة لاسترجاعه، واسترجعوه بعد مدة وجيزة من تسليمه بقيادة الملك الناصر داود الذي كان ملكاً وقتها على الكرك والشوبك، ونبلس،

ولما كان الملك داود يلقب بالناصر. وصلاح الدين كان يلقب بالناصر، قال

الشاعر:

(١) أحمد شلبي: «الموسوعة الإسلامية» ج٥ ص ٤٨٤.

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج١٣ ص ١٥٥.

المسجد الأقصى له عادةً سادت فأصبحت مثلاً سائراً
إذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
فناصر حرره أولاً وناصر حرره آخراً
وعندما وقع الخلاف بين الملك الصالح إسماعيل - الذي صار ملكاً على
الشام فيما بعد - والملك الصالح نجم الدين أيوب - ابن أخيه - ملك مصر سلم
الملك الصالح إسماعيل بيت المقدس لهم ، فسلمت مرة أخرى للصليبيين سنة
(٦٣٩هـ) - وذلك بعد أن كانت قد عادت إلى حظيرة الإسلام - كما سلم إليهم
طبريا وعسقلان ، ووعدهم أن ملك مصر أعطاهم بعضها^(١) ، وتحالف مع
الصليبيين للهجوم على مصر، وأباح للصليبيين شراء السلاح من المسلمين ، فأنكر
عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد وعالمها ، والشيخ أبو عمر
عثمان بن الحاجب شيخ المالكية ذلك أشد الإنكار ، فاعتقلهما مدة ، ثم أطلقهما
وألزمهما منازلهما ، ثم خرج الشيخان من دمشق ، فذهب الشيخ عز الدين إلى الديار
المصرية ، فتلقاه السلطان أيوب بالاحترام والإكرام ، وولاه خطابه القاهرة وقضاء
مصر ، وتلمذ عليه أهلها ، فكان ممن تتلمذ عليه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد
رحمه الله تعالى .

أما الشيخ ابن الحاجب فقصد الناصر داود في الكرك ، ثم انتقل إلى مصر
وأقام في الإسكندرية .

وفي اللقاء الذي أعد للصدام بين الصليبيين والصالح إسماعيل من
جانب ، وبين الجيش المصري من جانب آخر ، استدار جند الشام المسلمون
وانضموا إلى القوات المصرية ، ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم عند غزة ،
وأسروا منهم خلقاً لا يحصون ، وذلك سنة (٦٣٩هـ) . وعلى أثر هذا النصر ؛ زحف

(١) أبو المحاسن : «النجوم الزاهرة» ج٦ ص٣٢٢ .

السلطان نجم الدين أيوب على بلاد الشام، فاستولى على دمشق، ثم استولى على حصن طبريا من الصليبيين، وعلى عسقلان، وعلى معظم فلسطين^(١)، ولكن المسلمين لم يعودوا للسيطرة على بيت المقدس إلا بعد ذلك بأربع سنوات، وكان الذين حرروا القدس من أيدي الصليبيين هذه المرة الخوارزمية حلفاء الملك الصالح نجم الدين أيوب آنذاك، وبذلك عادت بيت المقدس نهائياً إلى المسلمين، ولم يتح لأي جيش نصراني أن يقرب من هذه المدينة المقدسة بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى.

وقد هاجم الصليبيون مصر مرة أخرى، واستولوا على دمياط في زمن السلطان نجم الدين أيوب، وكان مريضاً فحمل على محفة، وأشرف على المعركة بنفسه، وفتك بوالي دمياط وطائفة من أمراء المماليك الذين فرّوا وتركوها غنيمة سهلة في يد الصليبيين، فأنف المماليك السلطان وحاولوا الفتك به، ولكنهم تريتوا حتى يوقعوا بالصليبيين^(٢).

ولكن المنية عاجلته قبل التمكن من إخراجهم، فعين ابنه توران شاه خلفاً له ولقب بالمعظم، وكانوا قد جاوزوا دمياط إلى المنصورة، فأدار المعركة بنفسه وغير خطة المعركة، فأدارها بحرية أولاً، وقطع التموين عن الجيش الصليبي، الذي كان قد جاوز دمياط إلى شمال المنصورة، بقيادة ملكهم لويس التاسع - وذلك بعد وفاة والده وقبل توليه السلطنة بسبب غيابه عن مصر - وحاول ملكهم أن يلجأ إلى المفاوضات، ولكن توران شاه لم يستمع إليه، وخاصره من جميع الجهات، ولم يقبل منه إلا التسليم بدون قيد ولا شرط، فرفض الملك التسليم.

وهجم الجيش المصري يسانده الفلاحون والمتطوعون هجمة صادقة على

(١) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج-١٣ ص ١٥٥.

(٢) محمود رزق سليم: «عصر سلاطين المماليك» ج١ مجلد ١ ص ١٩.

الصلبيين، فأبادوا جمعهم وشتتوا شملهم وأسروا منهم عدداً كبيراً، منهم الملك لويس التاسع قائد جيشهم، وكان مجموع الأسرى من الصليبيين في المعركة عشرة آلاف^(١) ومجموع القتلى ثلاثين ألفاً وقيل مائة ألف^(٢).

وبعد المعركة ولويس التاسع مازال أسيراً، وقع نزاع بين السلطان توران شاه وزوجة أبيه شجرة الدر، فاتخذ المماليك جانب شجرة الدر، التي كانت مملوكة مثلهم، وتنحدر من أصلهم، وتأمروا معها على سلطانهم فقتلوه شد قتلة، وهم مازالوا في أرض المعركة، وذلك بعد أن حقق لهم النصر على الصليبيين، ولم يكن قد مضى على توليه السلطنة سوى سبعين يوماً، وقيل ثلاثون، واتفقوا بعد ذلك مع لويس التاسع على أن يسلم للمسلمين دمياط ويدفع خمسمائة ألف دينار فدية عن نفسه، وعندما وصلوا دمياط وجدوا الفرنجة قد هربوا للمراكب وأخلوها، وبعد أن ركب الملك لويس مركبة، أرسل رسولاً إلى الأمراء المماليك يقول لهم:

«ما رأيت أقل عقلاً وديناً منكم، أما قلة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب، وأما قلة العقل فكذا مثلي ملك البحر، وقع في أيديكم، بعتموه بخمسمائة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص»^(٣).

وكان لويس يريد أن يعود مرة أخرى للهجوم على مصر فأرسل رسالة إلى المماليك يشتمهم فيها ويتوعدهم، فرد عليه الشاعر المصري جمال الدين يحيى بن مطروح بقصيدة أرسلها إليه يذكره بما حل به في مصر وجاء فيها^(٤).

(١) أحمد شلبي: «موسوعة التاريخ الإسلامي» ج٥ ص٤٨٨ - ٤٨٩.

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج١٣ ص١٧٨.

(٣) «النجوم الزاهرة» ج٦ ص٣٦٩.

(٤) «النجوم الزاهرة» ج٦ ص٣٦٩ - ٣٧٠. وقد كان لويس عاهد المماليك ألا يقصد شواطئ الإسلام مرة أخرى إلا أنه نكث عهده وذهب إلى بلاد الشام وأقام فيها أربع سنوات في قلاع الصليبيين ثم غادرها وهاجم تونس ومات فيها ودفن في مدينة قرطاجنة.

دارُ ابن لقمانَ على حالِها والقيدُ باقٍ والطواشي صبيح
وكان الملك لويس قد سجن أثناء أسره بدار ابن لقمان في المنصورة،
ووضع بالسلاسل والقيود، ووكل به الطواشي صبيح .
وبقتل السلطان المعظم توران شاه انتهت سلطة الأيوبيين بمصر وبدأت
سلطة المماليك وكان ذلك سنة (٦٤٨هـ) .

وكان عمر بن دقيق العيد في وقت زوال سلطان الأيوبيين من مصر وانتقال
السلطة إلى المماليك ثلاثة وعشرين عاماً، فقد أدرك من عمر الدولة الأيوبية فترة
كانت على قصرها حافلة بالأحداث والتطورات، ففيها كثرت الحروب بين
الأيوبيين والصليبيين في مصر والشام، كما كثرت الحروب بين الأيوبيين أنفسهم،
وكان لذلك أكبر الأثر على حياته .

وإجمالاً يعتبر العصر الأيوبي الذي دام حوالي ثمانين عاماً عصر جهاد
وكفاح، فقد نصب الأيوبيون أنفسهم وعلى رأسهم مؤسس دولتهم صلاح الدين
حماة عن الدين، وذوداً عن أهله، ضد الصليبيين الراغبين في السيطرة على بلاد
المسلمين، ووقفوا دونهم سداً منيعاً، ومنعوا توغلهم في بلاد المسلمين، فلم
يستطيعوا أن ينالوا ما نالوه في العصور الحديثة .

العصر المملوكي :

بعد قتل السلطان توران شاه بايع المماليك شجرة الدر للسلطنة، وعينت
شجرة الدر الأمير عز الدين أيبك أحد أمراء المماليك أتابكياً - قائداً للجند -
وبقيت شجرة الدر تسوس البلاد وتدير دفة الحكم في مصر زهاء ثمانين يوماً، كما
خطب لها على المنابر، وضربت السكة باسمها، ولكن الخلافة العباسية في
بغداد استنكرت أن يلي أمر المسلمين في مصر امرأة، فأرسل الخليفة إلى أمراء

المسلمين يلومهم على توليتها. وجاء في الكتاب: «إن كان الرجال قد عدموا عندكم فاعلمونا نرسل لكم رجلاً».

ونتيجة لذلك تنازلت عن السلطنة لعز الدين أيبك قائد الجند، وتزوجت به بعد توليه السلطنة، ولم يكن عز الدين ذا شخصية قوية، ولا من أعيان الأمراء^(١). وقد اختارته شجرة الدر ستاراً لتحكم من ورائه، فكان أول ملوك المماليك بعد شجرة الدر، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش مصر سلطاناً بعد سلطان من سنة (٦٨٤هـ) إلى سنة (٩٣٢هـ).

ويجدر بنا قبل أن نتكلم عن هذه الفترة التي عاشها ابن دقيق العيد من العصر المملوكي أن نأخذ فكره موجزة عن أصل المماليك الذين كانوا في عصره، وعن نسبهم، وعن ثقافتهم وكيفية توليهم السلطة.

أ - أصلهم ونسبهم:

المماليك جمع مملوك، وهو الذي اشتري بالمال وأصبح ملكاً لشاريه، فأصلهم أرقاء، وأصل الرق في الإسلام هو الكفر، فلا يجوز شرعاً بيع الحر المسلم ولو أخذ أسيراً، وقد اشتروا هؤلاء المالك صغاراً وربوا تربية خاصة من السلاطين الأيوبيين ليحرسوهم ويساعدوهم في حروبهم، وبعضهم أخذ أسيراً في الحروب التي كانت تقع بين الأيوبيين وغير المسلمين كالصليبيين والتتار.

فيرجع أصلهم إلى بلاد وأجناس مختلفة، فمنهم التركي، ومنهم الشركسي ومنهم التتري كالسلطان كتبغا؛ ففيهم عنصر الأتراك والشركس والروم والأكراد،

(١) لقد بدأ حياته مملوكاً للسلطان نجم الدين أيوب اشتراه في حياة والده الملك الكامل، وتنقلت به الأحوال عنده. ولازمه حتى جعله جاشنكير، أي الذي يتصدى لذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً أن يدس عليه فيه سمٌ أو نحوه. (انظر «النجوم الزاهرة» ج ٧ ص ٤).

وبعضهم من بلاد أوروبا^(١) إلا أن اسم الترك كان غالباً عليهم لكثرتهم فيهم، فلا يربطهم دم ولا عنصر، وإنما يربطهم شيء واحد هو أنهم ممالك اشتروا بالمال.

أما بالنسبة لنسبتهم وطوائفهم، فنظراً إلى أن هؤلاء الممالك وفيهم السلاطين والأمراء أرقاء، والأرقاء عادة لا ينسبون إلى آبائهم، نجد أغليبتهم العظمى قد نسبت إلى غير الآباء والأجداد جرياً على العادة، وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء، وقد ينسب المملوك إلى أكثر من واحد ممن تداولوا ملكه.

وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينتسبون إليه من نسب أو سلطان، فمنهم العزيزي نسبة إلى السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي، ومنهم الصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، كما ينسب الصالحية إلى البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح نجم الدين أيوب، كما ينسب الصالحية إلى البحرية نسبة إلى القلعة التي بناها الصالح أيوب بين شعبي النيل في الروضة.

فقد قوي بأس الممالك في زمن السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حيث اشترى عدداً كبيراً منهم، ونشأهم تنشئة عسكرية، غير أنهم كانوا كثيري العبث والشر، يجوسون خلال الأسواق، وينهبون البضائع من التجار، حتى علا الضجيج بسببهم، فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة في جزيرة الروضة ليقيموا بها ولا يرحون، وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بني أيوب إلى أمراء الممالك.

ب - ثقافتهم :

لقد كانوا يشترون صغاراً ويربون تربية خاصة، تمر بمراحل متعددة، فكان

(١) أحمد شلبي: «الموسوعة الإسلامية» ج ٥ ص ١٨٣.

السلاطين بعد أن يختاروهم من تجار الرقيق، ممن تبدو عليهم علامات الذكاء والنجابة، والصحة، واستقامة القامة، يضعونهم في أماكن خاصة، ويرتبون لهم من الفقهاء والعلماء من يلقنونهم الدين والعلوم، ويأخذونهم بملازمة الفرائض، فإذا ما تم ذلك، وتقدمت بالمماليك السن تجاه الشباب، أوكلوا إلى مدرّبين عسكريين بتثقيفهم الثقافة العسكرية. وفنون الحرب، فإذا ما تم للملوك ذلك انتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه الخاص أو بديوانه أو بجنده.

ج - كيفية توليهم السلطنة:

قد تدفع بالمملوك بعد أن يدخل في سلك الجندية السلطانية مقدرته أو حظه إلى التنقل في وظائف الدولة شيئاً فشيئاً، ويخلع عليه لقب الإمارة، فتسمو بذلك منزلته، فيتنقل في مدارجها صُعداً، آخذاً طريقه نحو المناصب الرئيسية، وقد يُعتَق في أثناء ذلك فينال حريته، وقد تدفع به الحوادث إلى أن يكون استداراً^(١) أو دواداراً^(٢) أو أتابيكياً للعساكر^(٣) أو نائب السلطنة^(٤).

والمنصبان الأخيران من أسمى مناصب ووظائف الدولة وليس وراءهما غير منصب السلطنة، فإذا بلغ المملوك هذا الحدّ أصبح دانياً إلى هذا المنصب، وكثيراً ما تتقلب به الأيام وتتبدل الحوادث فإذا هذا الأتابكي أو النائب يختار للسلطنة.

(١) الاستدار: هو الموكل إليه، النظر في بيوت السلطان والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه وينفق على بيوته ومن فيها، ويدير ما يحتاج إليه.

(٢) الدوادار: المبلغ رسائل السلطان، ويقدم إليه المظالم والأخبار ونحوها.

(٣) الأتابك: قائد الجند، وهذه الوظيفة تلي نيابة السلطنة، وقد تضارعها وتبرز عليها.

(٤) نائب السلطنة: هي أرفع مناصب الدولة، وهو يحكم في كل ما يحكم به السلطان، وهو الذي يلي السلطان في المرتبة.

وكانت الفوضى وعدم الولاء طابع المماليك في كثير من الأحيان، فالعزل والتولية يخضعان للقوة، والمؤامرات تحاك من الخصوم والأعوان على السواء، والغدر يقع بالقائد المبرز بعد أن يحقق انتصاراً ضخماً في معارك فاصلة، فبدل أن يكمله عمله بالفخر والتقدير والولاء، فإذا المماليك كثيراً ما يحكمون عليه بالموت، وهو في أزهى ساعات مجده، فقد حصل في زمن ابن دقيق العيد أن تآمروا على السلطان المعظم قطز بعد انتصاره الساحق على التتار في عين جالوت فقتلوه، كما قتلوا السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عقب استيلائه على عكا آخر حصون الصليبيين المنيعة، وبعد تطهيره بلاد الشام من رجس الصليبيين، بل إنهم لم يصلوا إلى السلطنة إلا بالغدر والخيانة، حيث إنهم تآمروا على السلطان توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين في مصر بعد أن أبلى بلاءً حسناً في معركة دمياط وهزم الصليبيين هزيمة نكراء.

والسبب في ذلك يرجع فيما أعتقد؛ أن المماليك لم يكونوا يقرون باستحقاق إنسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية، وإن ولاية المسلمين هي حق لكل من توفرت له القوة ووافته الفرصة، وهيات له الظروف الجلوس على أريكة الملك وتبوء السلطنة، ويرجع هذا إلى تربيتهم العسكرية وضحل ثقافتهم الدينية في كثير من الأحيان.

وأول من تولى السلطنة من المماليك كما ذكرت سابقاً هو عز الدين أيبك الذي كان أول المماليك بعد شجرة الدر.

وعندما علم أمراء الأيوبيين في الشام بمقتل توران شاه وتولي شجرة الدر، ثم عز الدين أيبك للسلطنة، خرجوا للاستيلاء على مصر، بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، فاستولوا على دمشق وزحفوا إلى مصر، فحصلت بين الفريقين وقائع انهزم في

نهايتها السلطان الناصر، ثم تم الصلح بين السلطان الناصر وعز الدين أيبك سنة (٦٥١هـ) على أن يكون للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله إلى حدود الأردن، وللناصر ما وراء ذلك^(١).

وبعد اغتيال عز الدين أيبك على يد زوجته شجرة الدر سنة (٦٥٥هـ) بعد أن حكم سبع سنوات تولى ابنه نور الدين علي، وكان صغير السن، فدبر له أمر السلطنة الأتابك قطز، وفي عهده زاد خطر التتار، الذين كانوا قد زحفوا كالجراد على شرق العالم الإسلامي سنة (٦١٦هـ)، ووصلوا إلى حدود العراق، وسقطت دول تلك المناطق في أيديهم، وأذاقوا أهل البلاد التي دخلوها الذلة والهوان. وأراقوا الدماء غير مبالين بصغير ولا كبير، ولا عالم ولا جاهل ولا امرأة ولا طفل، وقتلوا من المسلمين ما لا يعد ولا يحصى.

وكان العالم الإسلامي عند ظهورهم ينقسم على نفسه إلى دويلات، فالخلافة العباسية كانت منحصرة في بغداد وضواحيها، والدولة الخوارزمية في المناطق الشرقية من حدود الخلافة العباسية، ودولة الموحيدين في المغرب العربي، وإمارات الأيوبيين في بلاد الشام ومصر، وكان الصليبيون مازالوا يسيطرون على قسم كبير من المدن والقلاع التي كانت تقع في سواحل بلاد الشام، ثم ظهرت دولة المماليك في مصر، ولم يكن تحت سيطرتهم من بلاد الشام سوى الجزء اليسير، وهو الجزء الجنوبي من فلسطين.

وكانت الخلافة العباسية في غاية الضعف والاضمحلال، واقتصرت سلطة الخليفة في خارج بقعة بلاده على المظهر الديني، من مباركة الولاية الذين يستولون على السلطنة في منطقة ما من العالم الإسلامي، ممن يعلنون له الولاء

(١) محمود رزق سليم: «عصر المماليك» ج١ القسم الأول ص ٢٤.

والطاعة شكلاً، ويطلبون منه التفويض بإدارة البلاد التي تحت سيطرتهم، فيصدر إليهم أمر التفويض بعد أن يرسلوا له الهدايا والتحف النفيسة، ويتفرغ هو للهوى ولعبه وعمارة القصور، والتباهي بالمظاهر، والبروز في حلله في المناسبات العامة والخاصة، فكان لا همَّ للخليفة إلا جمع الأموال والاستغراق في الملذات والشهوات.

وكان من تهتك آخر خلفائهم المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله أن جيوش التتار عندما كانت تحاصره، تغني المغنيات في مجلسه، وتلعب الجوارى بين يديه وتضحكه، حتى أن بعض جواريه أصابها سهم من بعض الشايك فقتلها وهي ترقص^(١)، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾^(٢).

وفي عهد نور الدين علي زحف التتار على العراق بقيادة زعيمهم هولاكوفاستولوا على بغداد، وأزالوا الخلافة العباسية منها بعد قتل خليفتها وأمرائها وعلمائها، وأبيحت المدينة للجند فأخذوا يثخنون في أهلها قتلاً وتمثيلاً. وأرادوا الزحف على الشام ومصر، فاجتمع أمراء المماليك واتفقوا على خلع السلطان نور الدين لصغر سنه، وعدم معرفته بالأمر، وعينوا نائب السلطنة الأتابك قطز سلطاناً. ولقب بالمظفر، وكان هولاكوف قائد التتار قد زحف إلى مدينة حلب، فخرّبها وقتل أهلها، وهدم قلعتها، واتجه إلى دمشق وكان عليها الملك الناصر، ففر الناصر واستسلمت دمشق لهولاكوف.

وبعث هولاكوف خطاباً للسلطان قطز يطلب إليه الطاعة والتسليم ويفيض بالتهديد والوعيد، فما كان من السلطان قطز إلا أن قتل رسل هولاكوف، وأعد العدة

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» ج-١٣ ص ٢٠٠.

(٢) الإسراء: ١٦.

مع أمرائه للقتال، وخرج للقاء التتار.

والتقى الجيشان في عين جالوت وهي قرية تقع بين مدينتي بيسان ونابلس في فلسطين، وكان ذلك في الخامس والعشرين من رمضان سنة ستمائة وثمان وخمسين هجرية (٦٥٨هـ) في يوم الجمعة.

ولما رأى السلطان المظفر قطز عصائب التتار، قال لأمرأء الجيش (لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس^(١)) وتفيء الظلال، وتهب الرياح، وتدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، ووقع القتال بينهم في الوقت المذكور، وتقاتلا قتالاً شديداً حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفر قطز بنفسه في طائفة من عسكره وأردف الميسرة. وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً^(٢).

وقيل إنه رمى خودته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «وإسلاماه» وحمل على العدو حملة جريئة، وأخذ يشجع أصحابه ويحسن إليهم الموت. فنصر الله الإسلام وأعزه، وانكسر التتار وولوا الأدبار على أقبح وجه، بعد أن قتل قائدهم كتبغا ومعظم أعيانهم.

وكانت معركة عين جالوت أول موقعة هزم فيها التتار منذ خروجهم في المرة الثانية على زمن هولاكو، ثم تم بعد ذلك تطهير بلاد الشام من رجس التتار، واستولى السلطان المظفر قطز رحمه الله عليها وصار ملكه من الفرات إلى النيل.

فالسُلطان قطز أول من ملك البلاد الشامية واستناب له من ملوك

(١) أي تزول الشمس عن وسط السماء فتكون الشمس في وجوه الأعداء، ويدخل وقت صلاة الجمعة.

(٢) أبو المحاسن: «النجوم الزاهرة» ص ٧٩.

المماليك^(١)، فرجعت وحدة مصر مع الشام، كما كانت في زمن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله .

عاد السلطان قطز من القتال مظفراً، فدبر له الأمير بيبرس البندقداري مؤامرة لاغتياله قبل وصوله القاهرة، فتمت قتله على يده ويد المؤتمرين عند القصير^(٢) وذلك في أخريات عام ستمائة وثمان وخمسين (٦٥٨هـ).

كان رحمه الله بطلاً شجاعاً مقداماً، يحسن التقدير، يرجع إلى دين وإسلام وخير. ونقل أبو المحاسن عن الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه أنه قال وهو صبي: (ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه ابن أولاد الملوك) وروي أنه قال أيضاً: (أنا محمود بن ممدود أكسر التتار وأخذ بثأر خالي خوارزم شاه). ومعنى هذا أنه لم يكن كافراً ثم أسلم كغيره من المماليك، وإنما أصله مسلم وابن أخت الملك محمد خوارزم الذي كان يحكم البلاد الإسلامية التي تقع في شرق العراق، ومنها بلاد إيران وأفغانستان، والملك خوارزم أول من تصدى للتتار على زمن جنكيزخان وانتصر عليه في عدة مواقع، إلا أنه هزم بعد ذلك وقتل. وروي عن السلطان قطز أنه قال: (رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه)^(٣).

وكانت مدة حكمه سنة واحدة فقط، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) أبو المحاسن: «النجوم الزاهرة» ج٧ ص٨٣.

(٢) القصير: إحدى قرى فاقوس، بمحافظة الشرقية، وتسمى اليوم بالجعافرة.

(٣) أبو المحاسن: «النجوم الزاهرة» ج٧ ص٨٦ - ٨٧.

وبعد مقتله تولى السلطنة بيبرس البندقداري الذي حاك المؤامرة ضده وقتله، وكان القاضي برهان الدين السنجابي قد وصل إلى المعسكر وقت الجريمة مُتلقياً للملك قطز، فاستدعي لتحليف العسكر للملك الظاهر بيبرس!!!

وكان بيبرس من المماليك البحرية، اشترك قبل سلطنته في عدة مؤامرات منها: مؤامراته مع المماليك البحرية ضد السلطان توران شاه، ثم مؤامراته ضد الملك عز الدين أيبك بزعماء فارس الدين أقطاي، فلما قتل عز الدين أقطاي وشتت شمل زملائه فر بيبرس مع بعضهم إلى بلاد الشام، واتصل بملكها الناصر صلاح الدين - حفيد صلاح الدين الأيوبي - وأقطعه جنين وزرعين في فلسطين، إلا أنه حصل بينهما وحشة فانضم إلى المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك، وهاجم مع المغيث مصر مرتين، إلا أن الكسرة والهزيمة لحقت بهما في المرتين، ثم حصل بينهما وحشة وأراد المغيث أن يلقي القبض عليه لأمر صدرت منه، فأحس بيبرس بذلك وهرب وعاد إلى الملك الناصر، فأقطعه الملك الناصر نابلس بناء على طلبه، ثم أرسل بيبرس إلى الملك قطز بعد أن تولى السلطنة من يطلب منه العفو فعفا عنه فعاد إلى مصر.

وعندما عاد بيبرس إلى مصر استقبله قطز استقبالاً حسناً وأقطعه منطقة قيلوب، فكانت النتيجة أن تأمر عليه جزاء عفوه وإحسانه وقتله^(١)!!!

وعندما علم التتار بقتل الملك المظفر قطز هاجموا حلب واستولوا عليها، وزحفوا إلى حمص وحماة، وحصل قتال مرير بينهم وبين المماليك إلى أن تمكن المماليك من إخراجهم من بلاد الشام مرة أخرى.

وتحرك الفرنج وزاد نفوذهم في إماراتهم الشامية فجرد بيبرس جيشاً قوي

(١) انظر: «النجوم الزاهرة» ج٧.

الشكيمة على بلاد الشام، فأذل الفرنجة واسترد بعض البلاد التي كانت في أيديهم، ولاحق التتار اتجاه الشمال، فأوقع فيهم هزيمة بقيسارية في آسيا الصغرى.

كما أقام خلافة عباسية ثاية مركزها القاهرة، وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد، بقتل الخليفة المستعصم بالله العباسي آخر خلفائهم على يد التتار لإيجاد الصبغة الشرعية لسلطانه، وسبيلاً إلى جمع قلوب الخاصة والعامة من المسلمين في سائر الأقطار حوله، فيدعم بذلك عرشه، ويثبت سلطانه، وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ، ثم صار تعيين الخليفة العباسي سنة سار عليها سلاطين المماليك، وكان الخلفاء لا يملكون إزاء السلاطين حولاً ولا طولاً، ولا رأياً في سياسة الأمور، ولكن الخليفة كان يأمر فيصعد بالأمر، فهو ذو سلطة شكلية اسمية فحسب، أما صاحب السلطة الفعلية الحقيقية فهو السلطان.

وقد أوسع عليهم في النفقات، وقدمت إليهم الأطعمة والأشربة والألبسة، وما إلى ذلك من مطالب الحياة، ليضمنوا عيشاً رغداً هادئاً صامتاً. وليصبغوا على من حولهم ألوان الرضا ويبدلوه كلما طلب إليهم بذله، وإذا ما خطر لأحدهم ما يغضب السلطان، عرض نفسه للسجن أو النفي أو نحوهما، وهذا الوضع بالنسبة للخلافة لا يبدو فيه روح الإسلام ولا سياسته، وما هو إلا درب من خداع السلاطين ونفاق الخاصة، وتمويه أولى الأمر ليهروا أنظار العامة بأن الدولة تحكم من قبل أحفاد عم رسول الله ﷺ!!!

وبعد أن توفي السلطان بيبرس سنة (٦٧٦هـ) ولي الخلافة ابنه أبو المعالي محمد، وعمره ثماني عشرة سنة، فخلع نفسه بعد أن حكم سنتين، بسبب خلافه مع المماليك. ثم ولي بعده أخوه سيف الدين سلاميش وكان عمره سبع سنوات، إلا أنه لم يدم في السلطنة سوى مائة يوم حيث خلعه أتابك العساكر قلاوون وتولى

السلطنة مكانه . وفي عهد قلاوون شرع التتار بالهجوم على بلاد الشام مرة أخرى ، وخرّبوا مدينة حلب ، فخرج إليهم قلاوون بجند كثيف وشتت شملهم في مدينة حمص ، وارتدوا عن بلاد الشام خائبين ، كما استرجع قلاوون قسماً كبيراً من بلاد الشام من أيدي الصليبيين ، فاسترجع اللاذقية وطرابلس الشام .

وبعد وفاة قلاوون سنة (٦٨٩هـ) ولي الملك من بعده ابنه الأشرف خليل فأتم الفتوحات التي بدأها والده فاستولى على عكا وصور وبيروت ، وتم في زمانه القضاء على الصليبيين . وانتهى صراع الصليبيين الذي دام حوالي قرنين من الزمن من سنة (٤٩١هـ) إلى سنة (٦٩٢هـ)^(١) .

كما كان قد عزم على غزو العراق ، واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار ، إلا أن بعض أمراء المماليك تأمروا على اغتياله فقتلوه قتلة شنيعة مزقوا فيها جسده شر ممزق عام (٦٩٣هـ) ، وملك بعده الأمير بيدرة الذي كان رأس المتآمرين على قتله ، غير أن أنصار الأشرف من المماليك لم يتركوه فقتلوه في اليوم الثاني ، ولم ينعم بسلطنته إلا ليلة واحدة^(٢) . وبويع بالسلطنة بعد مقتله أخو السلطان أشرف خليل ، الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك عام (٦٩٣هـ) ، وكان في السنة التاسعة من عمره ، - هذا عند ولايته الأولى لأنه خلع من السلطنة وعاد إليها مرتين - وقام بتدبير الملك له نائب السلطنة الأمير كتبغا .

ثم خلع نائب السلطنة كتبغا الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أن حكم أحد عشر شهراً ، وتولى السلطنة مكانه ، وتم ذلك عام (٦٩٤هـ) ولقب بالعدل ، وأصله من سبايا التتار الذين أسرهم المنصور قلاوون في موقعة حمص الأولى التي كانت في عهد الملك الظاهر بيبرس^(٣) .

(١) أحمد شلبي ج٥ ص ٤٢٥ .

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج١٣ ص ٣٣٤ .

(٣) المصدر السابق ج١٣ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

وفي عهد السلطان كتبغا ولي الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قضاء الديار المصرية، بعد وفاة قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز، وذلك سنة (٦٩٥هـ)، وأسلم في السنة التي تولى فيها السلطنة ملك التتار قازان بن أرغون بن أبغا بن تولي بن جنكيزخان، وأظهر إسلامه على يد الأمير توزون وتسمى بمحمود^(١).

قال ابن كثير عن السلطان كتبغا إنه من خيار الأمراء وأجودهم سيرة وقصداً في نصره الإسلام^(٢).

وبعد سنتين من ولايته تآمر عليه نائب سلطنته الأمير حسام الدين لاجين وهو راجع من الشام إلى مصر، وأراد قتله، إلا أنه هرب راجعاً إلى الشام وتولى نائب سلطنته مكانه سنة (٦٩٦هـ)، ونفي كتبغا إلى صرخد، ثم عينه السلطان لاجين نائباً له فيها. إلا أن لاجين هذا ولي مملوكه منكو تومر نيابة السلطنة، وكان هذا النائب غاشماً سيء الظن بالناس، فأساء إلى كثير من الأمراء، فقتله الأمراء مع السلطان.

ثم اتفق الأمراء على إعادة الناصر محمد بن قلاوون فعاد إلى عرشه بعد أن ظل أربع سنوات مقصياً في قلعة الكرك في الأردن، وذلك عام (٦٩٨هـ) وكان عمره آنذاك أربعة عشر عاماً، وقد عاونه في تدبير شؤون الدولة الأميران سالار نائب السلطنة، وبيبرس الجاشنكير أتابك العساكر، وفي عهده زحف التتار مرة أخرى بقيادة ملكهم قازان الذي أعلن إسلامه بجند كثير، عددهم مائتا ألف، فخرج الملك الناصر محمد إلى لقائه سنة (٦٩٩هـ) وتلاقى الفريقان في سلمية قرب بعلبك، فدارت الدائرة على الملك الناصر، وفرّ مع جيشه إلى مصر، ثم

(١) أبو المحاسن: «النجوم الزاهرة» ج ٨ ص ٧١.

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج ١٣ ص ٣٣٨.

دخل قازان مدينة دمشق بعد أن بعث لأهلها الأمان واستسلمت له ، ثم رحل قازان إلى بلاده ، وعادت دمشق إلى حكم المماليك بعد مائة يوم من سقوطها . وقد استمرت حروب المماليك مع التتار إلى سنة (٨٠٧هـ) وذلك آخر أيام تيمورلنك . وبعد هذا الاستعراض المجلل للتاريخ السياسي لسلاطين المماليك في عصر شيخنا ابن دقيق العيد نتوصل إلى النتائج التالية :

١ - أن سياسة البلاد وسلطنتها كانت منحصرة في يد المماليك فمنهم الجند وأمراء الجيش والسلطان ونائبه .

٢ - أن الفوضى وعدم الولاء كان طابع المماليك في كثير من الأحيان ، فالعزل والتولية للسلطنة كانا يخضعان للقوة ، والمؤامرات كانت تحاك من الخصوم والأعوان على السواء .

٣ - أن المماليك - مع ما كان بينهم من منازعات على السلطنة - قد أمضوا أيامهم في محاربة الصليبيين والتتار ، وقد أبلوا بلاء حسناً ، فهم الذين أكملوا الانتصارات الضخمة التي بدأها صلاح الدين الأيوبي ، فاستولوا على إمارات الصليبيين ، وتم تطهير البلاد من رجسهم في زمن ابن دقيق العيد ، وهم الذين أوقفوا زحف التتار وهزمهم في عدة مواقع ، فلولا نصر الله لهم لتم للتتار التغلب على جميع البقاع الإسلامية في مصر والشام وشبه الجزيرة العربية .

٤ - إن هذا العصر كان مليئاً بالتقلبات والتطورات والمنازعات ، وهذه الأمور كلها كان لها أكبر الأثر في حياة ابن دقيق العيد وفي أحكامه وأقواله ومواقفه من الأمراء والسلاطين كما سيظهر لنا إن شاء الله تعالى .

المبحث الثاني الناحية الاقتصادية

كانت أمور الحياة ووسائل المعيشة في هذه الفترة التي عاشها ابن دقيق العيد عصيبة في أكثر الأحيان، لكثرة الحروب التي كانت تقع بين المسلمين والصليبيين من جهة، وبين المسلمين والتتار من جهة أخرى، وبين سلاطين المسلمين فيما بينهم من جهة ثالثة، كما أن جذب الأرض بسبب شح النيل في بعض السنوات كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى الفقر وارتفاع الأسعار، كما كان يؤدي في بعض الأوقات إلى ظهور الأوبئة والأمراض الفتاكة، وذلك كما حصل في أواخر سنة (٦٩٤هـ) في عهد السلطان كتبغا، حيث شح النيل وأجذبت الأرض، وارتفع ثمن الحاجيات، وحصل غلاء شديد هلك بسببه خلق كثير، كما انتشرت الأوبئة، وقد هلك في شهر ذي الحجة من السنة نفسها نحو عشرين ألفاً^(١).

قال أبو المحاسن في حوادث سنة (٦٩٥هـ) كان الغلاء بسائر البلاد، لا سيما مصر والشام، وحصل بمصر من الغلاء وباء عظيم قاسى الناس شدائد في هذه السنة والماضية^(٢).

وذكر ابن إياس^(٣)، أنه في عهد كتبغا أجذبت البلاد، وشح النيل، فارتفع ثمن الحاجيات وبلغ سعر اردب القمح مائة وسبعين درهماً، وكذلك الفول،

(١) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج١٣ ص ٣٤٠.

(٢) «النجوم الزاهرة»: ج٨ ص ٧٩.

(٣) ابن إياس: «بدائع الزهور» ج١ ص ١٣٣.

ورطل اللحم بسبعة دراهم، وبيعت البيضة بأربعة دراهم، وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهماً، وبيعت الدجاجة بخمسة عشر درهماً، واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال، والخيل والجمال، حتى لم يبق عند أحدهم شيء من الدواب، وقيل كان الكلب السمين يباع بخمسة دراهم، والقط بثلاثة دراهم، ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة فأقبلوا على تناوله، وبيع منه كل أربعة أرتال بدرهمين، وقد عمّ البلاء سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية؛ وكل ممتلكات مصر، وقد أعقب ذلك فناء عظيم، ومات الناس جماعات، وفي الطرقات، وإن الملك العادل كتبنا كفن على نفقته في مدة يسيرة مائتين وسبعين ألف إنسان، ثم كشف الله عن الناس هذه الغمة، وأزال الكرب بعد انقضاء هذا العام، فأنحطت الأسعار وصلاح الحال.

كما أنه حصل في مصر حالات جذب أخرى بسبب انخفاض مستوى النيل، فقد نقل المقريري أن النيل قد شح في سنة (٦٢٧هـ) وحصل بسبب ذلك غلاء في الأسعار وفقراً^(١).

كما نقل ابن كثير في حوادث سنة (٦٤٣هـ) إن الأسعار قد غلت في هذه السنة غلاء فاحشاً، وهلك الصعاليك في الطرقات، وكانوا يسألون لقمة، ثم صاروا يسألون لبابه، ثم تنازلوا إلى فلس يشترون به نخالة يبلونها ثم يأكلونها^(٢). كمل نقل ابن أبياس أنه في عام (٦٦١هـ) في عهد الظاهر بيبرس شح النيل وفشى الغلاء، وتعاون السلطان والأمراء على معونة الفقراء^(٣).

إلا أن القحط والجذب الذي حصل في هذه المرات الثلاث الأخيرة كان

(١) المقريري: «السلوك» ج١ ص ٢٤.

(٢) «البداية والنهاية»: ج١٣ ص ١٦٧.

(٣) ابن أبياس: «بدائع الزهور» ج١ ص ١٠٣.

ضرره أخف بكثير مما حصل في زمن كتبنا.

والحق يقال أن السلاطين والأمراء عنوا بهذه الحوادث بعد نزولها، فأقاموا المغاسل للأموال، وتبرعوا بالأموال والملابس والأطعمة للمنكوبين، ومدوا يد المعونة للأسر المفجوعة، كما بنوا المستشفيات للمرضى والمصابين^(١)، فقد بنى السلطان قلاوون مستشفى عاماً (البيمارستان) وكان الفقراء يعالجون فيه بالمجان. كما أقام الأمراء والسلاطين الأوقاف ورصدوا الأموال الوفيرة على دروب الإحسان، وأنشأوا الأربطة والسبل والمدارس والمساجد، وأوقفوا عليها الدور والأراضي والأموال، وكثيراً ما كانوا ينتهزون فرصة عيد، أو موسم، أو جمعة، أو ظرف آخر مناسب، فيفيضون بالخير الكثير على الفقراء والمحتاجين من مال وطعام وكسوة في البلاد المصرية، أو الأماكن المقدسة، أو غيرها، بل كان لبعض السلاطين عادات مرعية متبعة في مناسبات خاصة، يمدون فيها يد المعونة إلى المعوزين والمنكوبين.

فكان هذا العمل من جانبهم حسنة خففت كثيراً من الويلات، كما اعتنى المماليك بفيضان النيل وإقامة الجسور عليه والقناطر، ومد الخلجان منه، وعندما كانت تغل الأراضي الزراعية يعم الرخاء في سائر البلاد.

وكانت الزراعة في مصر تشكل عصب الاقتصاد آنذاك، وكانت الأراضي الزراعية مقسمة على نظام الإقطاع، حيث كان السلطان يقسمها أقساماً، (أي إقطاعات) ويخص نفسه بنسبة خاصة من هذه الإقطاعات، ويمنح البقية لأمرائه وجنده فحسب، أما عامة الشعب الفلاحين وغيرهم فقد حرّموا من ذلك. وصاحب الإقطاع يستغله لنفسه مادام ممنوحاً له، سواء في ذلك السلطان أم الأمير أم الجندي، وجميع السكان الذين يعيشون في الإقطاع يفلحون ويقطعون مقابل

(١) محمود رزق: «عصر سلاطين المماليك» المجلد الثامن ج ١ ص ٣١٦.

أجر على العمل، وهذه الأقطاعات لا تورث بل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها ليعود السلطان بدوره فيهبها لمن يشاء، ولمن يستحقها في رأيه من جديد.

فالإقطاع بهذه الحالة هو إقطاع استغلال لا إقطاع تملك. وبجانب هذا التوزيع للأراضي الزراعية كان يوجد شطر من الأراضي الزراعية موقوفاً على المساجد ومعاهد العلم والتكايا، وكان المشايخ والعلماء يديرون هذه الأوقاف.

المبحث الثالث الناحية الاجتماعية

وتشتمل هذه الناحية على طبقات المجتمع والحياة الدينية .

طبقات المجتمع :

كان المجتمع المصري في عصر ابن دقيق العيد يتألف من عناصر مختلفة متعددة، وأشهر هذه العناصر: العرب والترك والقبط، وجماعات من السودانين والبرانيين، وبقايا الإغريق والرومان، إلا أنهم بحسب الحياة الاجتماعية ينقسمون إلى طبقات :

١ - طبقة الحكام: وهم الأيوبيون ثم المماليك الذي كان منهم أمراء الجيش، والجنود، ثم أصبح منهم أيضاً السلاطين ونوابهم .

وبالنسبة للأيوبيين، فهم ينحدرون من أصل كردي .

أما بالنسبة للمماليك فهم من أجناس مختلفة ولا يربطهم دم ولا عنصر، إنما يربطهم شيء واحد هو أنهم مماليك اشتروا بالمال، ولكن الجنس التركي كان غالباً عليهم .

والسلطان وأمراؤه ومماليكهم هم أهل الرأي ورجال الحكم وأرباب المناصب دون سواهم، فهم الطبقة الحاكمة بما لهم من القوة والأيدي المسلحة، والكثرة المجندة، فالجنود كلهم من المماليك، فحق لهم القيام وحدهم بالفتح والغزو، ولم يخرج السلطان على أن يكون واحداً منهم .

٢ - طبقة المتعممين : وقد أطلق لفظ المتعممين على المثقفين من أبناء الشعب، المتخرجين من المساجد، النابغين في العلوم الدينية واللغة العربية^(١)، وهؤلاء يختار منهم قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم، وكتاب الدواوين، وكتاب السّر، ومعاونوهم، وشيوخ المدارس والخوانق^(٢). وقد يكون لبعض هؤلاء نفوذ ما وجاه، لما يتحلون به من فضل وعلم، ولما يعرفون به من ورع وتقوى.

وكان بعض كبار الكتاب من أصحاب ديوان الإنشاء، وكتاب السّر يبلغ نفوذ أحدهم إلى مثل ما يبلغه وزير الخارجية في زمننا، فترد إليه المكالمات الخارجية ويرد عليها بعد أخذ رأي السلطان.

وهؤلاء وهؤلاء إن جاز أن نعتبرهم ممثلي الشعب في هذه الدولة، وأعواناً للسلطين في إدارة دفة الحكم، إلا أن تعيينهم في وظائفهم كان رهناً بمشيئة السلطان وحده، فلهذا غلب عليهم الخضوع له، وأن حوادث نفوذهم فردية، وأن آراءهم استشارية فحسب.

٣ - طبقة التجار وأهل البيع والشراء : هؤلاء كانوا في حالة أعلى وأفضل من حالة الفلاحين من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، حيث كانت مصر تقع عند التقاء المواصلات الدولية، فكانت تمر فيها القوافل القادمة من أواسط آسيا، ومن شرق إفريقيا، وشمالها، كما أنها كانت تقع في طريق الحج، فيمر بها الحجاج من مسلمي الدنيا شرقاً وغرباً في كل عام، وخاصة بعد قطع الصليبيين والتتار الطريق البري.

(١) محمود رزق سليم : «عصر سلاطين المماليك» المجلد الأول ج١ ص ٨٤.

(٢) الخوانق : أمكنة مثل الأربطة، تقام للغرباء، وتكون عادة منقطعاً فيها اللاجئون للعبادة والتأمل من رجال الصوفية.

٤ - طبقة الصناع وأرباب الحرف، وقد كانوا في منزله أعلى من الفلاحين أيضاً، إذ كانوا يعيشون غالباً هم والتجار في المدن بعيدين عن الإقطاع وما فيه من إذلال.

٥ - طبقة الفلاحين: وهم أصحاب الفلاحة والحرث، وكانوا يزرعون الأرض مقابل أجر، وقد حرموا من ملكية الأرض أو استئجارها، وهم الغالبية العظمى من الشعب.

٦ - طبقة أهل الذمة: وتتكون هذه الطبقة من طائفة اليهود والنصارى وكان أكثر النصارى عدداً وأعظمتهم خطراً الأقباط، الذين كانوا يلقون في أكثر الأوقات من الأيوبيين والمماليك معاملة حسنة، حتى إن بعضهم تقدم كثيراً على المسلمين في مناصب الدولة الهامة، وكانت حالتهم الاقتصادية والاجتماعية أحسن أيضاً من حالة أكثر المسلمين^(١).

الحياة الدينية:

كان المجتمع المصري بالنسبة للحياة الدينية منقسماً إلى طوائف وفرق متعددة، فمنهم من كان يعتنق النصرانية، وأكثرهم من أقباط مصر، وبقايا الإغريق والرومان، ومنهم من كان يعتنق اليهودية وهم من العبرانيين.

والسواد الأعظم كان يعتنق الإسلام وهم أكثر أهل البلاد. وكان المسلمون منهم السنيون وهم إما شافعيون أو مالكيون أو حنابلة أو أحناف.

ومنهم الشيعة وهم الإمامية الإسماعيلية، وهؤلاء كانوا يكثر في بلاد الصعيد، على أن القاهرة لم تخل في هذا العصر منهم، فقد حدث أن قامت ثورة في القاهرة سنة (٦٥٨هـ) قام بها جماعة من السودانيين والركدارية والغلمان وكانوا

(١) انظر ما كتبه القريري في «السلوك» ج ٢ ص ٩٩.

ينادون فيها وهم يشقون طرق القاهرة (يا آل علي) (١) وذكر الأدفوي أن والد شيخنا ابن دقيق العيد لما انتقل إلى قوص كان مذهب الشيعة فاشياً في ذلك الإقليم، فكان له الفضل في جريان وشيوع مذهب أهل السنة وزوال مذهب الرفض (٢).

وكان المجتمع المصري يتسم طابعه في هذا العصر بطابع الجدل والنقاش وبخاصة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد، ثم بين المسلمين والأقباط من جهة أخرى، وخير ما يصور لنا بعض ما كان عليه الحال في تلك الفترة بين المسلمين والأقباط تلك القصيدة اللامية التي نظمها الشيخ البوصيري التي جاء فيها (٣):-

فأبى أقل العالمين عقولا
من جهلهم لله فيه حُلولا
يتناول المشروبَ والمأكولا
ويرودُ من حرِّ الهجير مقيلا
صرفاً له عنه ولا تحويلا
من كان بالتدبير عنه كفيلا
من بعده أم أثر التعطيلا
عن أن يرى بيد اليهود قتيلا
سبحان قاتل نفسه فأقولا
شوك القتاد لرأسه إكليلا

جاء المسيح من الإله رسولا
قومٌ رأوا بشراً فادعوا
أسمعتُم أن الإله لحاجةٍ
وينام من تعبٍ ويدعو ربّه
ويمسُّه الألم الذي لم يستطع
يا ليت شعري حين مات بزعمهم
هل كان هذا الكون دبّر نفسه
وأجل روحاً قامت الموتى به
أيجوزُ قولُ مُنزهٍ لإلهه
أوجَلُّ من جعل اليهود بزعمكم

(١) المقرئبي: «السلوك» ج ١ ص ٤٤٠.

(٢) «الطالع السعيد» ص ٤٢٤.

(٣) «لامية البوصيري»: مكتبة الكونغرس - مجموعة منصورى وقد نقلتها عن صورة عنها

في مركز الوثائق والمخطوطات - الجامعة الأردنية شريط رقم ٤٦٤.

ومضى لحبل صليبه مُتمسكاً للموت مكتوف اليدين ذليلاً
ضلَّ النصارى في المسيح وأقسموا لا يهتدون إلى الرشاد سبيلاً
جعلوا الثلاثة واحداً ولو اهدوا لم يجعلوا العذدَ الكثير قليلاً

ومن المذاهب الدينية التي سادت هذا العصر مذهب التصوف الذي استهوى قلوب العامة والخاصة، فانتشرت الخانقاهات الصوفية، وهي الأمكنة التي كان ينقطع فيها الصوفية عن الناس، وكانت هذه نتيجة للمغالاة في الزهد، وكردة فعل بسبب الفساد بين عامة الناس، فقد كان المجتمع المصري قد انتشر فيه الفساد وكثر المجون والفجور، واستهان أكثر الناس بالقيم والأخلاق وأتوا المنكرات. وقد صور لنا ابن إياس في كتابه «بدائع الزهور» ما وصلت إليه حالة المجتمع، فمما جاء فيه (ثم دخلت سنة ٦٦٥هـ) فيها أبطل السلطان الظاهر بيبرس ضمان الحشيشة وأمر بإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر وأراقها ومنع الحانات مع الخواطي، واستتاب العلوق واللواطي... الخ^(١).

ويتفكه الشاعر المصري ناصر الدين بن النقيب، ويسخر بإبليس بهذه فيقول:

منع الظاهر الحشيش مع الخمر فولسى إبليس من مصر يسعى
فقال ما لي وللمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى

ولم تكن تلك الأخلاق التي ذكرها ابن إياس قاصرة على الرعاع والدهماء أو أراذل الأمة، لا بل بين كثير من علية القوم وأشرافهم، وذوي المكانة منهم. فقد كانوا يشربون الخمر ويتعاطون الحشيش، ومما يدل على صحة ذلك،

(١) ارجع إلى ابن إياس في «بدائع الزهور» ج١ ص ١٠٤-١٠٧.

أنه روي أن معين الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ دار السلطان الصالح نجم الدين أيوب بنى بيتاً للهو والفساد، فوق أسطح أحد مساجد مصر منتهكاً حرمة بيوت الله، فحكّم الشيخ العز بن عبد السلام بهدم هذا البناء، ومضى بنفسه ومعه أولاده. وهدمه وعزل نفسه من القضاء بعد أن أفتى بإسقاط شهادة معين الدين^(١) (أي أصبح غير عدل). كما أن الوازع الديني ضعف عند كثير من العلماء فقد روى تاج الدين السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم ما نصه^(٢):

«من المفتين من يسهل أمر الشرع إلى أن يفتي بعض ما لا يعتقد من المذاهب، ويرخص لبعض الأمراء ما لم يرخص فيه لعموم الخلق، فبعض العلماء يقول مثلاً لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمس الذكر لا ينتقض عند أبي حنيفة، وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل حلال عند الشافعي، وعن مجاوزة الحد في التعزيزات جائز عند مالك، وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته ولم يكن ما يعمر به حلال عند أحمد بن حنبل . . . الخ».

وكل هذا وذاك، من التحلل في الأخلاق، وضعف الوازع الديني، بسبب ضعف الإيمان لدى العامة والخاصة، قد أدى إلى تسليط الصليبيين عليهم ثم التتار، فعاقبهم الله في ذلك العصر أشد عقاب وجزاهم بما اقترفوا من الذنوب بتسليط أعدائهم عليهم.

وصدق الله العظيم ﴿وما أصابكم من مُصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن

كثير﴾^(٣).

(١) «السلوك» جـ ١ ص ٣١٢ وذكرت بعض المصادر أن اسمه فخر الدين.

(٢) السبكي: «معيد النعم ومبيد النقم» ص ١٠٢ وما بعدها.

(٣) الشورى: ٣٠.

والحكمة في تسليط أعدائهم عليهم هي لكي يصحوا من رقادهم، ويرتدعوا عن غيهم وضلالهم ويعودوا إلى دينهم كما أن في ذلك عقاباً لهم. فظهر في هذا العصر من العلماء من يذكر هذه الأمة بذلك ويدراً عن الدين الحنيف الترهات والأباطيل، فنصبوا أنفسهم لإحقاق الحق ودحض الباطل، وتذكير المسلمين بكتاب الله وسنة نبيه وإعلاء كلمة الله كأمثال العز بن عبد السلام وابن تيمية وشيخنا ابن دقيق العيد.

المبحث الرابع الناحية الثقافية

إن البلاد المصرية عريقة منذ انتشر فيها الإسلام في ميادين الثقافة العربية والعلوم الإسلامية، فمنذ أن بنى فيها مسجد عمر بن العاص بالفسطاط بعد الفتح الإسلامي وهي تشهد ألواناً من حلقات العلم والأدب، تتسع وتضيق وفقاً لمقتضيات الظروف.

وغزا الفاطميون البلاد المصرية عام (٣٥٨هـ) وأسسوا مدينة القاهرة وفي وسطها أقاموا جامع الأزهر المجيد، واتخذوا منه دار عبادة، ودار دراسة، ودار دعاية لمذهبهم الشيعي، وبنوا أثره جامع الحاكم بأمر الله، وغيره من المساجد ودور العلم.

واتسع نظام التعليم في عهد الأيوبيين، الذين استولوا على حكم البلاد بعد الفاطميين منذ عام (٥٦٧هـ) وأسسوا عدداً كبيراً من مدارس العلم في القاهرة وغيرها من المدن المصرية، والشامية، وقد عنوا بنشر فقه المذاهب السنية الأربعة وخاصة مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، كما عنوا بنشر علم الحديث، ومذهب الأشاعرة وعفوا على معظم آثار المذهب الفاطمي، وقضوا على كثير من مؤلفات علمائه ودعاته، وبدأت دولة سلاطين المماليك عام (٦٤٨هـ) فشهدت المصرع الأخير لدولة الخلافة العباسية، وشهدت سقوط بغداد على يد التتار بقيادة هولاكو وذلك سنة (٦٥٦هـ).

وبسقوط بغداد وزوال دولة الخلافة العباسية، ضاق ميدان العلم والأدب

في الشرق الإسلامي ، فقد أباد التتار عدداً لا يحصى من علماء بغداد وأدبائها ، وأتلفوا آلافاً مؤلفة من ذخائر العلم والأدب ونتاج الفكر الإسلامي ، مما جهد فيه أبناء هذه الدولة العظيمة زهاء خمسة قرون ، فخفي كما شوه قسم كبير منه ، فهو حلقة مجيدة في سلة العلوم العربية والإسلامية ، وفي سلة المعرفة الإنسانية . وقد فرّ من تبقى من علماء بغداد إلى مصر وبلاد الشام ، وذلك مما ساعد على تقوية النشاط الثقافي والعلمي في الديار المصرية في هذا العصر الذي عاشه الشيخ ابن دقيق العيد .

ويعتبر عصر المماليك من أزهى وأرقى العصور العلمية والأدبية التي عاشتها مصر وذلك لعدة عوامل خارجية وداخلية .

* العوامل الخارجية :

وأقصد بالعوامل الخارجية ما وقع منها في خارج مصر ، ولم يكن لمصر ولا لأهلها يد في تدبيرها ، وهي ما يلي :

١ - وقوع كثير من البلاد الإسلامية في الشرق في يد التتار ، وبطشهم بعلماء بلاد تركستان وأفغانستان وبلاد فارس ، وتدمير ما كان في تلك البلاد من حضارة ومدنية ، الأمر الذي حمل بعض أهل تلك البلاد إلى أن يهربوا إلى مصر والشام ، وذلك أول ظهور التتار في العصر الأيوبي .

٢ - سقوط بغداد في يد التتار ، وزوال الخلافة العباسية فيها ، وذلك سنة (٦٥٦هـ) ، وقتلهم لعلمائها وإتلافهم الكتب العلمية وقضائهم على ما كان فيها من حضارة ومدنية ، مما أدى إلى لجوء بعض أهلها ، وبعض سكان المناطق المجاورة لها مع ما معهم من علم إلى مصر والشام للسلامة والأمان .

٣ - وفود كثير من العلماء والأدباء إلى مصر والشام من البلاد الإسلامية سواء

كانوا من المشرق الإسلامي ، أو من الأندلس والمغرب العربي ، وذلك بسبب الاحتلال التتاري ، والغزو الصليبي في المشرق ، وبسبب حملات الفرنجة على الأندلس ، أو بسبب طغيان وظلم وقع عليهم في بلادهم ، وقد تولى هؤلاء العلماء التأليف والتدريس في دولة المماليك ومن هؤلاء : ابن خلكان الأربلي ، وابن مالك الأندلسي ، وابن أبي حجلة المغربي ، وابن منظور الأفريقي ، وابن خلدون المغربي والحافظ رشيد الدين النابلسي ، والبكري أبو الحسن بن محمد النيسابوري، وسعد الدين العراقي ، وكمال الدين بن النديم ، وغيرهم .

* العوامل الداخلية :

١ - الغيرة الدينية عند السلاطين والأمراء ورغبتهم في رعاية الدين ورعاية أهله ، وتعظيمهم لأهل العلم ، فقد كانوا يكرمون أهل العلم ويهيئون لهم أسباب الدرس والتحصيل ، ويشجعونهم على التأليف والتصنيف .

٢ - شعور العلماء بخطر النصرانية التي كان يعتنقها الفرنجة الصليبيون ويحاربون من أجلها ، كما كان يعتنقها بعض سكان مصر والشام ، وشعورهم أيضاً بخطر الوثنية التي كان يعتنقها التتار ، فأحس العلماء بخطر ذلك على الدين الإسلامي كما شعروا بواجبهم ، فهبوا يصنفون المذاهب الأربعة ، وأولوها كثيراً من العناية والاهتمام ، فجعلوا لها الأوقاف ، وأجروا عليها الأرزاق ، وبذلوا جهودهم في تيسير التعلم والتعليم فيها ، إذ كانوا ينفقون الأموال في كرم وسخاء على الطلاب والمدرسين .

٣ - استكثار الأيوبيين والمماليك من إنشاء المدارس والمساجد لتدريس المذاهب الأربعة ، وأولوها كثيراً من العناية والاهتمام ، فجعلوا لها الأوقاف وأجروا عليها الأرزاق ، وبذلوا جهودهم في تيسير التعلم والتعليم فيها ، إذ كانوا ينفقون الأموال في كرم وسخاء على الطلاب والمدرسين .

وكان من نتاج هذه الحركة أن أصبحت مصر أهم كعبة علمية إسلامية يحج إليها محبو العلم وطلابه من كل بلد، وظهر كثير من العلماء في مصر والشام في العلوم الشرعية واللغوية كأمثال:

- ١ - موفق الدين بن قدامة المتوفى سنة (٦٢٠هـ).
- ٢ - عبد الكريم الرافعي المتوفى سنة (٦٢٣هـ).
- ٣ - ابن مالك النحوي المتوفى سنة (٦٣٠هـ).
- ٤ - تقي الدين بن الصلاح المتوفى سنة (٦٤٣هـ).
- ٥ - ابن الحاجب المتوفى سنة (٦٤٦هـ).
- ٦ - العز بن عبد السلام المتوفى سنة (٦٦٠هـ).
- ٧ - الفيلسوف محمد بن عبد الله الطوسي المتوفى سنة (٦٧٢هـ).
- ٨ - محي الدين النووي المتوفى سنة (٦٧٦هـ).
- ٩ - ابن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨هـ).
- ١٠ - الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ).
- ١١ - ابن القيم الجوزي المتوفى سنة (٧٥١هـ).
- ١٢ - جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي المتوفى سنة (٧٧٠هـ).
- ١٣ - شيخنا محمد بن علي بن دقيق العيد المتوفى سنة (٧٠٢هـ).

الفصل الأول

نسبه ومولده

المبحث الأول

اسمه وكنيته ولقبه

هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الصعيدي القوصي المشهور بابن دقيد العيد .

وكنيته أبو الفتح ، ولقبه تقي الدين .

ولا خلاف بين من ترجموا له ، كالذهبي^(١) في تذكرة الحفاظ ، وابن حجر^(٢) في الدرر الكامنة ، والسبكي في طبقات الشافعية^(٣) ، والأدفوي في الطالع السعيد^(٤) ، وابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب^(٥) ، وأبو المحاسن في النجوم

(١) شمس الدين محمد الذهبي : «تذكرة الحفاظ» ج٤ ص ٤٨١ - ٤٨٣ دار إحياء التراث العربي .

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني : «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» ج٤ ص ٢١٠ - ٢١٤ مطبعة المدني - القاهرة .

(٣) تاج الدين عبد الوهاب السبكي : «طبقات الشافعية الكبرى» ج٦ ص ٢ - ٢٣ الطبعة الحسنية .

(٤) كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي : «الطالع السعيد الجامع لنجباء أسماء الصعيدي» ص ٥٦٧ - ٦٠٢ تحقيق سعد محمد حسن .

(٥) عبد الحي بن عماد الحنبلي : «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ج٦ ص ٥ - ٦ .

الزهرة^(١)، والقاسم بن يوسف النجيبى السبتي^(٢) في استفاد الرحلة والاغتراب، وابن رشيد^(٣) في رحلته، وغيرهم من الثقات في اسمه وكنيته ولقبه، وفي اسم ابنه واسم جده الأول، واسم جده الثاني، ولا في اسم جده الثالث، إلا أن بعضهم اقتصر على ذكر اسمه واسم أبيه واسم جده الأول وعلى لقبه، وبعضهم فصل وذكر كنيته واسم جده الثاني واسم جده الثالث، كالأدفوي وابن عماد الحنبلي، والقاسم بن يوسف النجيبى.

وسبب تسميته بابن دقيق العيد هو أن جده الثاني مطيعاً كان عليه يوم عيد طيلسان شديد البياض، فقال بعضهم كأنه دقيق العيد فلقب به رحمه الله تعالى^(٤).

وكنية جده وهب أبو العطايا، وهو أول من عرف بابن دقيق العيد. ولقب أبيه مجد الدين، وكنيته أبو الحسن وذلك باتفاق جميع من ترجموا له.

أما تسميته بالقشيري فلأنه من أحفاد المحدث بهرز بن حكيم القشيري كما ذكر ذلك ابن حجر في الدرر الكامنة^(٥)، وبهرز بن حكيم هذا من قبيلة قشير^(٦).

-
- (١) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن ثغري بردي: «النجوم الزهرة» ج ٨ ص ٢٠٦.
- (٢) القاسم بن يوسف النجيبى السبتي: «استفاد الرحلة والإغتراب» ص ١٦ - ٣٧.
- (٣) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد الفهري المشهور بابن رشيد: «رحلة ابن رشيد»، مخطوط ٥٨/ب - ١/٦٥.
- (٤) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٤٣٥.
- (٥) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢١١.
- (٦) جاء في «اللباب» (القشيري بضم القاف وفتح الشين وسكون الياء وتحتها نقطتان وفي آخره راء) هذه التسمية إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، قبيلة كبيرة، ينتسب إليها كثير من العلماء منهم بهرز بن حكيم بن حيدرة القشيري، يروي عن أبيه

أما نسبه إلى منفلوط فلأن أباه علي بن وهب ولد فيها ونشأ وترعرع بين ربوعها، حتى ولي الحكم فيها.

أما نسبه إلى قوص فلأن أباه رحل إلى قوص في صعيد مصر، فنشأ الشيخ تقي الدين فيها وأخذ باكورة علمه عن علمائها، كما ولي التدريس والقضاء فيها^(١).

أما نسبه من جهة أمه فقد اختلف فيه، جاء في طبقات الشافعية للسبكي وفي الدرر الكامنة لابن حجر^(٢) بأنها بنت الشيخ المفرج، وذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ عن الشيخ الحافظ قطب الدين الحلبي تلميذ الشيخ تقي الدين أنها بنت الشيخ تقي الدين بن المقترح. وذكر الأدفوي في الطالع السعيد والإسنوي في طبقاته أنها بنت الشيخ المقترح، قال الأدفوي^(٣): ووالدته بنت الشيخ المقترح فأصله كريمان وأبواه عظيمان، وقال الإسنوي^(٤): وأمه بنت الشيخ المقترح.

والصحيح هو ما ذكره الأدفوي والإسنوي وهو أنها بنت الشيخ المقترح، لأن الأدفوي تلميذ أبي حيان الغرناطي الذي روى الحديث عن ابن دقيق العيد، والإسنوي يعد تقريباً من معاصريه حيث ولد سنة (٧٠٤هـ) قبل مولد السبكي

وعن جده، وعن زرار بن أوفى، وروى عنه الثوري والحمادين - حماد بن سليمان وحماد بن زيد - وغيرهم، وكان كثير الخطأ، واحتج به أحمد بن حنبل وابن رهوة، ومنهم الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري صاحب الصحيح، ومنهم الإمام الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري أحد مشاهير الدنيا بالفضل والعلم والزهد والأدب، كلهم فضلاء مشهورون.

(١) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢٢٩.

(٢) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج٤ ص ٢١٠، السبكي: «طبقات الشافعية» ج٦ ص ٣.

(٣) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧١.

(٤) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢١٨.

بأربع وعشرين سنة، كما يؤيد ذلك ما ذكره النجيبى في ترجمته لابن دقيق العيد عند ذكر من سمع منهم الحديث حيث قال: (وسمع خالته أم إبراهيم مريم بنت الشيخ الإمام أبي العز المعروف بالمقترح).

وما جاء في طبقات الشافعية للسبكي وما جاء في الدرر الكامنة تحريف، كما أن لفظ الابن الذي جاء في تذكرة الحفاظ للذهبي تحتمل أنها وقعت زيادة أو أنه كان يقال له أيضاً ابن المقترح^(١).

(١) الشيخ المقترح - بالبناء للمجهول - هو الشيخ الإمام تقي الدين المظفر، ابن عبد الله بن علي بن الحسين، له التصانيف في الفنون المتنوعة من الأصول والفقہ والخلاف، واشتهر بالشيخ المقترح لكونه كان يحفظ المقترح في علم الجدل، كما ذكر الإسنوي في «طبقاته» ج٢ ص ٤٤٤، وقيل لحفظه واشتغاله وشرحه لكتاب «المقترح في المصطلح» للشيخ أبي منصور محمد بن محمد البروي الشافعي المتوفى سنة (٥٦٧هـ) كما ذكر ذلك صاحب «كشف الظنون» ص ٧٩٣، توفي سنة (٦١٢هـ).

المبحث الثاني مولده

ولد الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة (٦٢٥هـ) في سفينة شراعية كانت تمخر مياه البحر الأحمر، على مقربة من ثغر ينبع، وأبواه في طريقهما إلى الحجاز متوجهان لأداء فريضة الحج. وطاف به والده حول الكعبة، ودعا إليه أن يجعله الله من علماء هذه الأمة العاملين.

وقد اتفق جميع من ترجموا له أنه ولد سنة (٦٢٥هـ)، وأن ذلك كان في الطريق إلى الحج، كما اتفق المقرئزي والإسنوي وعبد الحي بن عماد الحنبلي والذهبي وابن فضل الله العمري، وصلاح الدين الصفدي وغيرهم من الثقات على أن ذلك كان أيضاً في شهر شعبان من نفس السنة، وعين الإسنون والنجيبي وتاج الدين السبكي وغيرهم نفس اليوم فذكروا أن ذلك كان يوم السبت^(١).

ولم ينقل خلاف بالنسبة للسنة التي ولد فيها، وأنه ولد على ظهر سفينة شراعية قريباً من ساحل ينبع، وأبواه متوجهان للحج، وإنما حصل خلاف في أمرين:

الأول: بالنسبة للشهر الذي ولد فيها.

الثاني: بالنسبة لتاريخ ذلك اليوم من ذلك الشهر.

(١) السبكي: «طبقات الشافعية» ج٦ ص٣، الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص٢٢٧.

فبالنسبة للشهر فجميع الروايات التي حددت الشهر أجمعت أن ذلك كان في شهر شعبان، وقد شذ عن هذا الإجماع كتاب (رفع الأصر عن قضاة مصر) لابن حجر العسقلاني، إذ ذكر أن مولده كان في شهر محرم فقد جاء فيه، (ولد في طريق مكة في المحرم سنة (٦٢٥هـ) (١)).

والصحيح هو ما ذكره جمهور المؤرخين ممن ترجموا لابن دقيق العيد وهو أنه كان في شهر شعبان خلافاً لما ذكر في كتاب رفع الأصر لابن حجر وذلك لثلاثة أمور:

الأول: هو أن جميع الروايات متفقة على أنه ولد وأبواه متوجهان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وذلك لا يكون في محرم، لأن شهر محرم يأتي بعد أشهر الحج لا قبلها، بخلاف شهر شعبان فهو يأتي قبل أشهر الحج.

الثاني: إن من بين من أرخوا له واتفقوا على مولده كان في شهر شعبان ممن عاصروه كالأدقوي المتوفى سنة (٧٤٨هـ) بل منهم من سمع منه الحديث وهو الحافظ شمس الدين الذهبي، فقد ذكر في ترجمته لابن دقيق العيد أنه سمع من لفظه، يعني أنه سمع الحديث من لفظ ابن دقيق العيد.

الثالث: إن كلاً من القاسم بن يوسف النجيبى وابن رشيد تلميذ لابن دقيق العيد، وقد أجازهما في الرواية عنه.

وذكر كل منهما أن ابن دقيق العيد قد كتب له بخط يده تاريخ ميلاده. قال النجيبى (٢) كان مولد شيخنا تقي الدين أبي الفتح القشيري المنفلوطي ثم الينبعي ثم الدقيقي فيما كتب لنا بخط يده بينبع في يوم السبت عند ارتفاع الضحى

(١) ابن حجر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» ورقة ٢٤٧.

(٢) القاسم بن يوسف النجيبى السبكي: «مستفاد الرحلة والاغتراب» ص ٣٦.

الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة، وقال ابن رشيد^(١): كتب لي ابن دقيق العيد في آخر بعض إجازاته له عن نفسه (. . .) والمولد سنة خمس وعشرين وستمائة في يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس المذكورة بساحل ينبع من أرض الحجاز). وهذا غاية الصحة والوضوح.

الرابع: أن ابن حجر العسقلاني نفسه ذكر في كتابه الدرر الكامنة أنه ولد في شعبان. ولعل رواية رفع الأصغر قد وقع فيها الخطأ من جانب أحمد بن علي السبكي الذي كتب النسخة لنفسه لا من جانب ابن حجر العسقلاني، فرواية رفع الأصغر في ذلك لا يعول عليها.

أما بالنسبة للمسألة الثانية وهي مسألة تاريخ ذلك اليوم من الشهر الذي ولد فيه، فبعض المؤرخين كابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب والزركلي في الأعلام وابن حجر في الدرر الكامنة، والذهبي في تذكرة الحفاظ لم يعينوا تاريخ ذلك اليوم من الشهر.

وبعضهم عين إلا أنهم اختلفوا فيه، فذكر النجيبى وابن رشد وابن كثير

(١) ابن رشد: «رحلة ابن رشد» ج٣ ص٦٢/أ.

وابن رشيد: هو عبد الله بن عمر الفهري السبتي يعرف بابن رشيد، خطيب ومحدث، مستبحر في علوم الإسناد والرواية، مع تمكن من الدراية، رحل لأداء فريضة الحج سنة (٦٨٣هـ) ودخل أفريقيا ومصر والحجاز والشام، وأخذ عن كثير من الأئمة الأعلام، وقد ذكرهم في كتاب سماه «بملء الغيبة فيما جمعه بطول الغيبة في الوجه الوجيه إلى مكة وطيبة»، وهو المعروف «برحلة ابن رشيد» جمع فيه من الفوائد والفرائد كل غريبه وعجيبه في أربع مجلدات. ومن مؤلفاته «ترجمان التراجم في إبداء وجهة مناسبات تراجم صحيح البخاري» و«إفادة النصيح في شرح الصحيح» و«المحاكمة بين الإمامين البخاري ومسلم» ولد سنة (٦٥٧هـ) وتوفي بفاس سنة (٧٢١هـ). انظر كتاب: «شجرة النور الزكية» ص٢١٦-٢١٧.

والإسنوي والسبكي^(١) في طبقاته بأنه ولد في خمس وعشرين من شعبان وذهب أبو المحاسن^(٢) أنه ولد في عشرين منه، وذهب الأدفوني بأنه ولد في الخامس عشر منه حيث قال: ولد الشيخ تقي الدين ووالده متوجه إلى الحجاز الشريف في البحر المالح في يوم السبت الخامس عشر من شعبان سنة خمس وعشرين وستمئة بساحل ينبع رأيت بخطه الثبجي . (والثبجي تعميخ الخط وترك بيانه)^(٣).

والصحيح هو ما ذكره جمهور المؤرخين من أنه ولد في الخامس والعشرين من شعبان وذلك لما ذكرت سابقاً من أن كلاً من القاسم بن يوسف النجيبى وابن رشيد تلميذ لابن دقيق العيد، وقد أجازهما في رواية الحديث عنه وقد ذكر كل منهما أن ابن دقيق العيد قد كتب له بخط يده تاريخ ميلاده، وهذا غاية الصحة والوضوح والبيان، وهو أصح ممن قال: رأيت ذلك بخط يده ولم ير ابن دقيق العيد، وهو الأدفوني، كما هو أصح ممن أرخ لمن لم يره ولم يسمع منه وهو أبو المحاسن^(٤).

ولعل خطأ الأدفوني رحمه الله كان بسبب تعميخ الخط . وبهذا يتضح صحة ما ذكرته من أنه ولد في يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة ستمئة وخمس وعشرين هجرية (٦٢٥هـ) والله أعلم .

-
- (١) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج٤ ص ١٤، الإسنوي: «الطبقات» ج٢ ص ٢٢٧، السبكي «الطبقات» ج٦ ص ٤ .
 - (٢) أبو المحاسن: «النجوم الزاهرة» ج٨ ص ٢٠٦ .
 - (٣) انظر «اللسان» ج٢ ص ٢٢، و«القاموس» ١ / ٨٨٠ .
 - (٤) انظر: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢٣٠، الإسنوي ج٢ ص ٢٣ .

الفصل الثاني

طلبه للعلم

المبحث الأول

أساتذته ومن روى عنهم

نشأ ابن دقيق العيد رحمه الله في قوص بصعيد مصر، مكباً على طلب العلم، متحلياً بمكارم الأخلاق، في رعاية أبيه العالم الفاضل مجد الدين علي بن وهب، وكانت قوص آنذاك لا تقل كثيراً عن مصر القديمة أو القاهرة من حيث وفرة رجال العلوم الدينية واللغوية، وقد كثر فيها المدارس، فكان فيها ستة عشر مكاناً للتدريس، ومن بينها دار الحديث التي كانت في بيت ابن دقيق العيد. فقد كانت قوص في عصر ابن دقيق العيد من أعظم مدائن الصعيد، بل نقل السيد سعيد محمد حسن في حاشيته على الطالع السعيد^(١) عن جملة من المؤرخين أنها

(١) الأدوي: «الطالع السعيد» تحقيق سعيد محمد حسن ص ١٣ - ١٤ الحاشية.

(٢) ويرجع سبب ازدهار مدينة قوص في ذلك العصر وارتقائها في مضمار العلم إلى أربعة أسباب وهي:

أ - بعد سيطرة الصليبيين على الكرك والعقبة في الأردن أصبحت قوص طريقاً للحجاج المسلمين الآتين من المغرب الإسلامي وبلاد الشام، وقد دامت سيطرة الصليبيين عليهما ما ينوف على سبعين عاماً.

ب - أنها كانت بعيدة عن غارات الصليبيين ومعارك الحروب، فقد كانت كلها تدور إما في دمياط، أو الإسكندرية، أو المنصورة، أو بلبليس، أما الوجه القبلي فقد كان بعيداً

كانت قصة صعيد مصر، وأنها منبع العلم والعلماء .

وأول ما بدأ علمه بقراءة كتاب الله الحكيم على والده، ومنه تلقى مبادئ العلوم الشرعية والعربية .

ودرس عليه فقه المالكية، كما سمع منه الحديث، وقرأ عليه الأصول، ودرس فقه الشافعية على تلميذ أبيه القاضي بهاء الدين هبة الله بن عبد الله العذري القفطي، وحضر عند القاضي شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني لما كان حاكماً بقوص . ودرس عليه علم الأصول . وقرأ العربية على الشيخ شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي وغيره .

ثم رحل إلى القاهرة، فقرأ على شيخ الإسلام أبي محمد العز بن عبد السلام فقه الشافعية . ورحل إلى الاسكندرية والشام والحجاز وغيرها طلباً لفقهِ والحديث .

وقد سمع الحديث من والده كما سمع الحديث من علي بن الحسين البغدادي المعروف بابن المقير، وعلي بن هبة الله بن سلامة الشافعي المعروف بابن الجميزي، وعبد الوهاب بن ظافر بن رواج الاسكندري المعروف بابن رواج، وأحمد بن محمد بن عبد العزيز المعروف بابن الحباب، وعبد الرحمن بن أبي الحرم مكّي بن عبد الرحمن الطرابلسي المعروف بابن المحاسب، وعبد

عن ذلك كله، فكان يظله على وجه العموم الهدوء والاستقرار .

ج - أن قوص كانت في ذلك الحين قاعدة لنشر مذهب أهل السنة، ومقاومة مذهب التشيع الذي كان منتشرًا في أكثر مدن الصعيد، فقد ذكر الأدفوي أن والد شيخنا مجد الدين علي بن دقيق العيد عندما أتى إلى قوص كان مذهب التشيع فاشياً في إقليم الصعيد، فكان له الفضل في جريان مذهب أهل السنة وإزالة مذهب الرفض .

د - أنها كانت بالنسبة لمصر كما قال الأدفوي باب مكة واليمن والسودان .

العظيم بن عبد القوي المنذري ، ومحمد بن محمد التيمي البكري ، ومحمد بن الأنجب الصوفي البغدادي ، ويوسف بن خليل بن عبد الله الدمشقي ، وحامد بن علي المحمودي وغيرهم ، وممن سمع منه في دمشق أحمد بن عبد الدائم المقدسي مسند الشام وفقهها ومحدثها ، وخالد بن يوسف النابلسي^(١) .

قال صلاح الدين الصفدي لم يحدث عن ابن المقير وابن رواج لأنه دخله الشك في كيفية التحمل عنهما .

وأكثر من تأثر به من الفقهاء الذي كان الأب الروحي له العز بن عبد السلام ، حيث ورث عنه علمه واجتهاده وتقواه وجرأته في الحق ، وكان أنه تلاميذه ومن المعجبين به ، وهو الذي لقبه (بسلطان العلماء) .

وقد اخترت ترجمة لثلاثة من أساتذته الذين كان لهم أكبر الأثر في حياته وهم : والده علي بن وهب بن دقيق العيد ، والشيخ بهاء الدين القفطي ، والشيخ العز بن عبد السلام .

(١) انظر: «مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ١٦ ، «رحلة ابن رشيد» ج ٣ ص ١/٦٢ «الطالع

السعيد» ص ٥٧١ - ٥٧٥ ، «الدرر الكامنة» ج ٢ ص ٢١٠ .

المبحث الثاني ترجمة لأشهر أساتذته

١ - علي بن وهب بن دقيق العيد: (١).

هو الشيخ علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري، والد شيخنا محمد تقي الدين، ولقبه مجد الدين، وكنيته أبو الحسن.

جمع بين العلم والعمل، والعبادة والورع والتقوى، والزهد والإحسان إلى الناس على اختلافهم.

ولد بمنفلوط في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسائة، وتولى الحكم فيها وبأسيوط، ثم انتقل إل قوص، وسبب انتقاله إليها كما ذكر الأدفوي هو أن النجيب بن هبة الله القوصي لما بنى مدرسته التي بقوص في سنة سبع وستمائة أشار عليه الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن الصباغ أن يحضر إليها الشيخ. كما أشار بإحضاره أيضاً الشيخ المقترح الذي أصبح فيما بعد صهره وجد شيخنا لأبيه، فأرسل إليه فحضر، وكان مذهب الشيعة فاشياً في ذلك الإقليم، فتم على يديه زواله.

سمع الحديث على شيخه الحافظ أبي الحسن بن المفضل المقدسي وأخذ عنه الفقه على مذهب الإمام مالك، كما أخذ عنه الأصول، وسمع على

(١) انظر ترجمته في «الطالع السعيد» ص ٤٢٤ وما بعدها، و«شجرة النفس الزكية» ١/١٨٩ و«النجوم الزاهرة» ج ٧ ص ٢٢٨، «حسن المحاضر» ج ١ ص ٢١٠، و«مرآة الجنان» ج ٤ ص ١٦٦.

الشيخ بهاء الدين بن بنت الجميزي، وعنه أخذ الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وكان يقرأ المذهبين مذهب مالك والشافعي، والأصوليين، واختصر المحصول اختصاراً جيداً، وارتحل إليه الطلاب من سائر الأقطار، وتخرج عليه جماعة أصبحوا من أعيان الفقهاء.

وممن تخرج على يديه أولاده: شيخنا تقي الدين، والشيخ سراج الدين موسى، والشيخ تاج الدين أحمد.

ومنهم الشيخ بهاء الدين القفطي، والشيخ جلال الدين الدشناوي، والشيخ محب الدين الطبري، والفقير سراج الدين الأرمطي، كما رووا عنه الحديث، وممن روى الحديث عنه قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، والحافظ عبد المؤمن الدمياطي، وخلق كثير.

وكان يعتبر شيخ المالكية في عصره.

وكان تقياً ورعاً، قال الأدفوي: حكى عنه تلميذه الإمام العلامة بهاء الدين القفطي أنه كان في سنة قد حصل فيها غلاء كبير، حتى إن أكثر الناس لا يجدون إلا بعض البقول يقتات به، قال: فسأل شيخنا مجد الدين عن حال الناس فذكروا له أنهم يقتاتون ببعض البقول، فالتزم أنه لا يأكل إلا مما يأكل الناس، وما زال يأكل منه حتى ظهر الخبز في الأسواق.

قال: وقال لي: يا بهاء الدين رفعت عني شهوة المأكّل فلا أبالي ما أكلت وشهوة الملبس فلا أبالي ما لبست، وشهوة الجاه.

توفي بقوص سنة (٦٦٧هـ)، وأرادوا دفنه بقنا فأجمع الناس بقوص على أن لا يخرج من عندهم، وصارت ضجة فدفن بظاھرھا.

٢ - بهاء الدين القفطي :

هو الشيخ الفقيه الإمام الفاضل هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل العذري ، ولقبه بهاء الدين ، وكنيته أبو القاسم وشهرته بالقفطي .

ولد بقفط إحدى قرى الصعيد سنة ستمائة هجرية ، وطلب العلم بقوص على الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد ، فأخذ عنه الأصول والعربية ، وسمع الحديث منه وتخرج على يديه ، وقرأ الأصول أيضاً على الشيخ شمس الدين محمد الأصفهاني ، وقرأ شيئاً من النحو على أبي الفضل المرسي ، وسمع الحديث على العلامة بهاء الدين أبي الحسن علي بن هبة الله بن سلامة المعروف بالجميزي ، وعلى الإمام أبي عبد الله محمد بن القاسم بن قرياص وغيرهم .

كان قيماً بالمدرسة النجيبية التي كان شيخها شيخه الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد ، وكان يعلق القناديل والطلبة تقرأ عليه ، فتميز على أقرانه ، وانتهت إليه رئاسة العلم في زمانه ، ودارت عليه الفتوى وأفاد الطلبة في تلك البلاد .

كان شافعي المذهب ، وتولى أمانة الحكم بقوص مدة ، ثم تحايل حتى خرج من الوظيفة ، ثم توجه إلى إسنا حاكماً ومعيداً بالمدرسة العزية ، وكان المدرس فيها النجيب بن مفلح من تلامذة الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد أيضاً ، ثم توفي النجيب وأضافوا إلى الشيخ بهاء الدين التدريس فصار حاكماً ومدرساً .

كان التشيع فيها فاشياً فأقام الأدلة على بطلانه . وصنف في ذلك كتاباً سماه (النصائح المفترضة في فضائح الرافضة) فهموا بقتله فحماه الله منهم ، وقد رجع على يديه إلى مذهب السنة كثير منهم ، ومن تلامذته غير شيخنا ابن دقيق العيد الشيخ ضياء الدين جعفر بن محمد بن عبد الرحيم القنائي ، والجلال الدشنوي ،

وعز الدين إسماعيل، ونور الدين إبراهيم الإسناثيان، وجمال الدين بن يحيى الأرميني، والقاسم بن يوسف النجيبى وغيرهم، وقد ترك القضاء في آخر حياته واشتغل في العلم والتأليف والعبادة.

صنف في التفسير. بدأ فيه من سورة مريم إلى خاتمة القرآن، وشرح الهادي في الفقه لقطب الدين أبي المعالي مسعود النيسابوري في خمس مجلدات، وشرح مختصر أبي شجاع أحمد بن الحسين بن أحمد الأصفهاني. وصنف كتاباً سماه (الأنباء المستطابة في مناقب الصحابة والقراة). وكتبه كثيرة في الفقه والأصول والسيرة.

وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول: لولا البهاء بالصعيد ما تخرج أهله بسبب الفتوى، وكان يجله ويزوره ويقول البهاء معلمي. توفي بأسنا في سنة سبع وتسعين وستمائة (٦٩٧هـ).

٣ - العز بن عبد السلام^(١):

هو الإمام المجتهد القدوة عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن أسيد السلمى، نسبة إلى بني سليم إحدى القبائل العربية المشهورة من قبائل مَضر.

كنيته أبو محمد، ولقبه العز واشتهر بهذا اللقب. ولقبه تلميذه ابن دقيق

(١) انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» للسبكي ج ٨ ص ٢٠٩ طبعة الباب الحلبي، و«النجوم الزاهرة» ج ٧ ص ٢٠٨، و«شذرات الذهب» ج ٥ ص ٣٠١، و«مرآة الجنان» لليافعي ج ٤ ص ١٥٣، و«فوات الوفيات» لابن شاکر الكتبي ج ١ ص ٥٩٤، و«العز بن عبد السلام»: رسالة دكتوراة للدكتور علي الفقير، و«العز بن عبد السلام» لرضوان الندوي.

العيد بسُلطان العلماء، لعلمه الغزير، واطلاعه الواسع، وإيمانه القوي، وحبته البالغة، وزهده، ووجهه للحق، أو بسبب كونه أحد العلماء الذين قارعوا السلاطين فغلبوهم، فكان أعظم من السلاطين.

درس اللغة العربية بمختلف فنونها من نحو وبلاغة، ودرس العلوم الشرعية بمختلف فروعها من فقه وأصول وحديث وتفسير على كبار أساتذة عصره، وأئمة العلم.

ولد سنة (٥٧٧هـ) وقيل سنة (٥٧٨هـ) في بلاد الشام، وأقام فيها إلى أن تجاوز الستين من عمره حيث رحل عنها سنة (٦٣٩هـ) إلى مصر وأقام فيها بقية عمره، وتوفي في القاهرة في ٩ جمادى الأولى سنة (٦٦٠هـ).

درس فقه الشافعي على الشيخ الإمام فخر الدين بن العسال، وأخذ علم الأصول عن سيف الدين الأمدي، وسمع الحديث من الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير علي بن عساكر، وحضر على شيوخ آخرين، كشيخ الشيوخ عبد اللطيف البغدادي، وبركات بن إبراهيم الخشوعي، والقاضي جمال الدين الحرستاني، سافر لسماع الحديث إلى بغداد، فسمع بها من أبي حفص عمر بن طبرزد، وحنبل بن عبد الله الرصافي.

ولقد برع بالفقه والأصول والحديث والتفسير والتوحيد، واشتغل في التدريس وتصدي للافتاء أداء لرسالة العلم، وكان يدعى بمفتي الشام، وقصد بالفتوى من الآفاق، كما تولى منصب الخطابة والإمامة في الجامع الأموي، وأبطل بمجرد تعيينه في هذا المنصب كثيراً من البدع التي كانت تعمل في الجامع، كدق السيف على المنبر، ولبس السواد عند الخطبة، وأبطل صلاة

الرغائب^(١) وصلاة النصف من شعبان^(٢)، ومنع منهما لعدم صحة ذلك عنده .

اتصل الشيخ بعدة من سلاطين عصره في الشام ومصر وعظمت مهابته في نفوسهم، ولم يرتفعوا في نظره إلا بمقدار حرصهم على مصالح المسلمين، ومحافظتهم على الدين مع شدة منه في معاملتهم، وقسوة في إساءة النصيحة لهم، وكانت له مواقف حاسمة معهم، وقف فيها موقف الرجل المؤمن الصادق الغيور على سلامة الإسلام والمسلمين، من ذلك :

١ - موقفه من الملك الصالح إسماعيل الذي استعان بالفرنجة الصليبيين على مُنازعه في الملك الصالح أيوب، وتسليمه لهم صيداً، وأباح لهم دخول

(١) صلاة الرغائب: نوع من الصلاة يقيمها البعض في شهر رجب، ورد فيها حديث اتفق الحفاظ على أنه موضوع، وانتصر لها ابن الصلاح المتوفى سنة (٦٤٣هـ)، وأول من رد عليه من المعاصرين له العز بن عبد السلام، والحديث الموضوع الذي جاء فيها حديث طويل جاء فيه: لا تغفلوا عن أول ليلة في رجب فإنها ليلة تسميها الملائكة الرغائب ثم قال: وما من أحد يصوم يوم الخميس أول خميس من رجب، ثم يصلي ما بين العشاء والعتمة - يعني ليلة الجمعة بعد صلاة المغرب - اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاثاً وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة، يفصل بين كل ركعتين بتسليمة، فإذا فرغ من صلاته صلى علي سبعين مرة ثم يقول: اللهم صلي على محمد النبي الأمي وعلى آله، ثم يسجد فيقول في سجوده: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، سبعين مرة ثم يرفع رأسه فيقول: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأعظم سبعين مرة، ثم يسجد الثانية فيقول مثلما قال في السجدة الأولى، ثم يسأل الله حاجته فإنها تقضى: الخ... قال الشوكاني: في الفوائد المجموعة إنه موضوع ورجاله مجهولون ص ٤٨.

(٢) صلاة النصف من شعبان: روي فيها كثير من الأحاديث. قال الشوكاني: كلها باطلة وموضوعة وعدد ركعاتها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد عشر مرات [الشوكاني: «الفوائد» ص ٥٠ - ٥١].

دمشق وابتياع السلاح من المسلمين، فأنكر الشيخ المعز على السلطان ذلك وأهمل الدعاء له في خطبة الجمعة، فاعتقله السلطان، ثم أطلق سراحه خوفاً من الفتنة، فخرج من دمشق متوجهاً إلى القاهرة، وقد تجاوز الستين من عمره، معلناً سخطه على السلطان، وخرجت معه دمشق تودعه، فأرسل السلطان رسولاً خلفه يراوده على العودة، فأدركه وهو في بيت المقدس، فقال له الرسول: بينك وبين أن تعود إلى منصبك، وما كنت عليه وزيادة أن تقبل يد السلطان. فقال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم.

فاعتقله الرسول ثم أطلق سراحه، فسار إلى مصر، وهناك تلقاه الملك الصالح نجم الدين أيوب وولاه التدريس والقضاء.

٢- رأى الشيخ وهو في مصر السلطان الصالح أيوب في القلعة في يوم عيد في منتهى مظاهر الزينة وأبهة الملك، فالتفت إليه الشيخ وناداه: يا أيوب. ما حاجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيح الخمر وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، وكان الشيخ يناديه بهذا بأعلى صوته والعساكر واقفون فقال السلطان «يا سيدي هذا ما أنا عملته، هذا من زمان أبي، فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة^(١)؟. فأمر السلطان بإبطال تلك الحالة. ولما سأله بعض تلاميذه عن سر خطابه الغليظ هذا للسلطان أجاب: يا بني رأيت في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه، فقال: يا سيدي أما خفته فقال: «والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى

(١) يشير بذلك إلى ما ذكره القرآن من تعليل الكافرين لكذبهم وضلالهم وعدم اتباعهم للحق حيث قال سبحانه: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مهتدون﴾ [الزخرف: ٢٢].

فصار السلطان قدامي كالقط» .

٣ - طغى بعض الأمراء المماليك في مصر فتصدى لهم الشيخ ليكبح من جماهم، فأفتى بأن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود ونكاح ونحو ذلك لا تنعقد، لأنه ثبت له أن هؤلاء الأمراء لم يعتقدوا، وإن حكم الرق لا يزال مصاحباً لهم، وكان من بينهم نائب السلطنة، وأصر على بيعهم، وفعلاً عرضوا في سوق الرقيق، وبيعوا ودفع الثمن في بيت مال المسلمين.

٤ - علم الشيخ عندما كان قاضياً بمصر والوجه البحري أن وزير الملك نجم الدين أيوب معين الدين بن شيخ الشيوخ، قد بنى مكاناً للموسيقى فوق سطح أحد المساجد، فحكم الشيخ بهدم هذا البناء، ومضى بنفسه ومعه أولاده، وهدمه وعزل نفسه من القضاء بعد أن أفتى بإسقاط شهادة الوزير معين الدين، (أي أنه أصبح غير عدل).

٥ - ومن مواقفه الجريئة الرائعة موقفه مع بيبرس عندما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة وجمع الأمراء والقضاة والعلية لذلك، امتنع الشيخ عن مبايعته وقال له: يا ركن الدين أنا أعرفك مملوك البندقاري - أي أنه لم يثبت لدي عتقك وحريتك - فاستحضر بيبرس شهوداً فشهدوا بخروجه من ملك البندقاري، وأنه صار حراً فبايعه الشيخ^(١).

وكان السلطان بيبرس طيلة حياة العز بن عبد السلام يخاف منه على ملكه، وحين مات العز بن عبد السلام رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ورأى جنازته وقد خرج في تشييعها الجموع الغفيرة من أهل مصر والقاهرة، قال لبعض خواصه:

(١) أين هذا الموقف من موقف القاضي برهان الدين السنجابي الذي جاء إلى المعسكر مستقبلاً للسلطان قطز فعلم بأن بيبرس قتله فأخذ البيعة له!!! .

«اليوم استقر أمرى في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك منى»^(١).

٦ - قصته مع السلطان قطز عندما كان نائباً للسلطنة وأراد أن يجمع المال من الناس لمحاربة التتار، وجمع العلماء وأراد منهم الفتوى بذلك، فلم يجز ذلك ابن عبد السلام إلا بشرط أن يدفع الأمراء كل ما لديهم من الأموال ثم ينظر فإن لم يكف ذلك لتجهيز الجيش جاز للسلطان أن يأخذ من الرعية.

وأثناء توليه للقضاء في مصر عزل نفسه مرتين، انتصاراً للحق والعدالة. ففي المرة الأولى تلتطف السلطان في رده إليه فباشره مدّة، ثم عزل نفسه مرة ثانية وتلتطف مع السلطان في إمضاء عزله لنفسه فأمضاه. والمرة الأولى لم ينص على سببها أحد من المؤرخين، وأغلب الظن أنها كانت عند حكمه على أمراء الدولة بعدم جواز بيعهم وشرائهم، فيقال أن السلطان أنكر عليه حكمه، فغضب الشيخ واستقال من جميع مناصبه وخرج من مصر عائداً إلى بلاد الشام، فأسرع السلطان باسترضائه فعاد. أما المرة الثانية التي لم يعد بعدها إلى القضاء فكانت إثر حكمه على الوزير معين الدين بإسقاط شهادته، وكان ذلك في ذي القعدة سنة (٦٤٠هـ).

ولزم بعد ذلك التدريس، يدرس ويفيد، ويفتي ويؤلف، وقد ألف في التفسير، والحديث، والأصول، والفتاوى، والسيرة، والتصوف، وفضائل الأعمال، ومؤلفاته في تلك العلوم كثيرة تربو على الثلاثين ومن أشهرها:

١ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام.

٢ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز.

(١) علي صافي حسين: «ابن دقيق العيد حياته ديوانه» ص ٤٩.

٣ - شجرة المعارف وأدلة الأحكام .

٤ - كشف الإشكالات عن بعض الآيات .

قال فيه ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد بالفتوى من سائر الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده .

ومن تقواه أنه كان إذا أفتى برأي ثم تبين له فساد نادى على نفسه في الفسطاط^(١) والقاهرة بالألا يعمل أحد بفتواه تلك .

وقال عنه طاش زادة: إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها، لم ير مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله، علماً وورعاً وقياماً بالحق، وشجاعة، وقوة جنان، وسلطة لسان .

وقد درّس في المدرسة الصالحية وتلمذ عليه جماعة كانوا أئمة في عصرهم فمنهم: القاضي تاج الدين بن بنت الأعز، والإمام علاء الدين أبو الحسن الباجي، والحافظ أبو محمد الدميّطي، والشيخ شهاب الدين أبو شامة المقدسي المؤرخ الفقيه، وشيخنا ابن دقيق العيد الذي كان أقرب تلاميذه إليه، وأوفرهم حظاً بالإفادة منه، حيث ورث عنه علمه وتقواه، وسنلاحظ في سيرة ابن دقيق العيد بعض الجوانب والمواقف التي تشبه إلى حد كبير ما ذكرته من الأمثلة في سيرة العز بن عبد السلام من الزهد في المناصب وجرأته في قول الحق .

(١) الفسطاط: مصر القديمة اليوم .

المبحث الثالث

جَلَدُهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ

كان الشيخ تقي الدين رحمه الله منقطعاً للعلم والعبادة، فكان لا ينام الليل إلا قليلاً، فكانت أوقاته معمورة بالدرس والمطالعة والتحصيل، أو الإيماء والتأليف، ورواية الحديث، فإن أراح نفسه من بعض ذلك العناء فلا يرى إلا قائماً يصلي في المحراب. أو جالساً يتلو كلام الله، أو ماشياً يتفكر في خلق الله، متدبراً صنعه، مستدلاً بذلك على قدرة الله ووحدانيته، فهو منصرف بجسمه وفكره، سواد ليله وبياض نهاره إلى البحث والتدقيق، والاستنباط والتحقيق، أو الصلاة والقيام، وتقديس الله الملك العلام وأصدق مرآه لحياته قوله^(١):

الجسمُ يذيبُه حقوقُ الخدمةِ والقلبُ عذابُه علوُ الهمةِ
والعمرُ بذاك ينقضي في تعبٍ والراحةُ ماتت فعلِها الرحمةِ

فهو قد أضنى فؤاده علو همته في درك العلا، ونيل المرام، فشغل فكره باستنباط الأحكام الشرعية، وخدمة الدين والأمة، والتزود بالتقوى.

قال السبكي^(٢): أما دأبه في الليل علماً وعبادة فأمر عجاب، ربما استوعب الليل فطالع فيها المجلد أو المجلدين، وربما تلا آية واحدة فكررها إلى مطلع الفجر.

(١) علي صافي حسين: «ديوان ابن دقيق العيد».

(٢) السبكي: «طبقات الشافعية» ج ٦ ص ٤.

وقال الأدفوي^(١): حكى لي الشيخ زين الدين عمر الدمشقي المعروف بابن الكناني رحمه الله تعالى: قال: دخلت عليه بكرة يوم فناولني مجلده وقال: هذه طالعها في هذه الليلة التي مضت، وقال الأدفوي أيضاً له قدرة على المطالعة، رأيت خزانة المدرسة النجبية بقوص فيها كتب من جملتها (عيون الأدلة) لابن القصار في نحو ثلاثين مجلداً، وعليها علامات له، وكذلك رأيت كتب المدرسة السابقة رأيت على السنن الكبرى للبيهقي له فيها في كل مجلده علامة، وفيها تاريخ الخطيب كذلك، ومعجم الطبراني الكبير والأوسط. وقال: وأخبرني شيخنا الفقيه سراج الدين الدنوري أنه لما ظهر الشرح الكبير للرافعي^(٢) اشتراه بألف درهم، وصار يصلي الفرائض. فقط، واشتغل بالمطالعة إلى أن أنهاه، وذكر عنده هو والغزالي في الفقه فقال: الرافعي في السماء، ويقال أنه طالع كتب الفاضلية عن آخرها، وقال: ما خرجت من باب من أبواب الفقه واحتجت أن أعود إليه. ثم قال الأدفوي: حكى لي شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن جماعة أنه كان عنده أمين الحكم بالقاهرة، وكان فيه اجتهاد في تحصيل مال اليتيم، قال شيخنا فأحضر عندي مرة الشيخ تقي الدين وادعى بدين عليه للأيتام، فتوسطت بينهما وقررت معه أن تكون جامكية المدرسة الكاملة - أي ما يأخذه من أجر مقابل تدريسه فيها - للدين وتترك للشيخ جامكية الفاضلية لنفقته، ثم قال له قاضي القضاة: أنا أشح عليك بسبب الاستدانة، فقال ابن دقيق العيد ما يوقعني في ذلك إلا محبة الكتب.

وقال أحمد أحمد بدوي بعد أن ذكر درجته العلمية ما نصه^(٣): وقد ساعده

(١) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٨٠.

(٢) هو «فتح العزيز على كتاب الوجيز» للشيخ عبد الكريم بن محمد القزويني الشافعي

المشهور بالرافعي شرح به كتاب «الوجيز» في فروع الشافعية للغزالي.

(٣) أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١٦٨.

على بلوغ هذه المنزلة من العلم ذكاء ممتاز، ودأب على التحصيل، وسهر بالليل للدرس، وشهره في القراءة، وغرام بالاطلاع، وحافظة قوية.

وقال ابن حجر^(١) قرأت بيد الشيخ الحافظ أبي الحسين بن أبيك المصري وسمعت صاحب شرف الدين محمد بن صاحب زين الدين أحمد بن صاحب بهاء الدين رحمه الله تعالى قال: كان ابن دقيق العيد يقيم في منزلنا بمصر في غالب الأوقات، فكنا نراه في الليل إما مصلياً وإما ماشياً في جوانب البيت وهو مفكر إلى طلوع الفجر، فإذا صلى الفجر اضطجع إلى صحوه، قال صاحب شرف الدين وسمعت الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس العراقي المالكي يقول: أقام الشيخ تقي الدين أربعين سنة لا ينام الليل، إلا أنه كان إذا صلى الصبح اضطجع على جنبه إلى حيث يتضحى النهار.

وقال الحافظ قطب الدين الحلبي^(٢) عن الشيخ تقي الدين (. . .) وكان لا ينام من الليل إلا قليلاً ويقطعه فيما بين مطالعة وتلاوة وذكر وتهجد حتى صار السهر له عادة، وأوقاته كلها معمورة لم يُر في عصره مثله).

(١) أحمد بن حجر العسقلاني: «الدرر الكامنة» ج٤ ص ٢١٢.

(٢) الذهبي: «تذكرة الحفاظ» ج٤ ص ١٤٨٢.

الفصل الثالث تصديه للتدريس والقضاء

المبحث الأول تصديه للتدريس

المطلب الأول

المدارس التي درس فيها وتلاميذه

بعد أن قام بجولته العلمية في الفسطاط والقاهرة والإسكندرية ودمشق والحجاز، وأخذ العلم عن كبار أساتذة عصره، تعمق في المذهبين، مذهب مالك والشافعي، كما تعمق في علوم الحديث والتفسير، وعلم الكلام والنحو والأدب، وأتقن وهو شاب المذهبين اتقاناً عظيماً، وبلغ به إلى درجة الإفتاء بهما.

قال الإسنوي^(١): حقق المذهبين معاً ولذلك مدحه الشيخ ركن الدين بن القويع المالكي بقصيدة يقول من جملتها:

صبا للعلم صبا في صباه فأعلي بهمة الصب الصبي
وأتقن والشباب له لباس أدلة مالك والشافعي

وبدأ التدريس في مدينة قوص في المدرسة النجيبية^(٢)، كما درس في دار

(١) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢٢٨، وقوله فأعلي للتعجب أي ما أعلاها.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص ١٢٢٩، المدرسة بناها النجيب بن هبة الله القوصي.

الحديث التي بنيت له وصارت تعرف بالمدرسة السابقة^(١) وقصده طلاب العلم من أقاصي الصعيد ومن كل مكان، وظفر بشهرة واسعة وتقدير عميق، قال عنه أستاذه الشيخ بن عبد السلام وهو مازال في قوص^(٢): الديار الصرية تفتخر برجلين في طرفيها ابن دقيق العيد في قوص وابن المنير في الإسكندرية^(٣). وبعد أن عم النفع به في قوص خاصة، والصعيد عامة، رحل إلى القاهرة مركز السلطنة وذلك لنشر علمه وتنمية مواهبه، حيث كانت القاهرة تغص بدور العلم والمدارس وطلبة العلم والكتب العلمية.

وتتمثل دور التعليم في ذلك العصر فيما أنشئ من مدارس ومساجد للمذاهب الأربعة، وما شيد من خوانق وأربطة وزوايا صوفية وكان إلى جوار هذه المعاهد التعليمية مكاتب صغيرة متواضعة ملحقة بها، تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة، وطرفاً من العلوم الأولية وتحفيظ القرآن، وتمهد للالتحاق بالمدارس العالية، وكانت كل دار للتعليم تزود بمكتبة تحتوي على مختلف أنواع الكتب النافعة التي تعين المدرسين والطلاب، فما كنت تجد مدرسة أو مسجداً أو داراً تعليمية أنشئت في ذلك العصر دون أن تزود بخزانة كتب^(٤)، وذلك لإيجاد البيئة الطبيعية التي ينمو فيها العلم ويزدهر، ولم يكن طالب العلم يجد في طريقه

(١) أحمد أحمد بدوي: «الحياة العقلية» في عصر الحروب الصليبية ص ١٦٨، و«الخطط

الجديدة لمصر والقاهرة» لعلي باشا مبارك ج ١٣ ص ١٣٦.

(٢) جلال الدين السيوطي: «حسن المحاضرة» ج ١ ص ١٢٧.

(٣) ابن المنير هو العلامة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الجذامي الإسكندراني اشتهر بالتفسير والفقه والأصول من تصانيفه «تفسير القرآن» و«الانتصاف من الكشاف» و«مختصر التهذيب في الفقه» (٦٢٠ - ٦٨٣ هـ). جلال الدين السيوطي: «حسن المحاضرة» ج ١ ص ١٢٨.

(٤) الدكتور محمد رزق: «عصر سلاطين المماليك» ج ٢ المجلد الثالث ص ٦٧.

لتحصيل العلم في هذه المدارس العقبات والصعوبات التي تقف حجر عثرة في سبيل انتظامه في سلكها كما في العصر الحاضر، وذلك كنفقات مالية، أو رسوم معينة، أو شراء كتب ومؤلفات مرتفعة الثمن، وغير ذلك من العقبات، بل كانت الأبواب مفتوحة لكل طالب علم، فليس هناك من رسوم ولا نفقة، ولا إرهاق، بل كل المشايخ والطلاب معاً يجدون من صنوف البذل ألواناً شتى تعينهم على طلب العلم، وحبه والاستقرار فيه، مما أوقف عليهم، أو منح لهم، أو أهدي إليهم. وقد تزود المدارس بمساكن يأوي إليها شيوخها وطلابها^(١) وأكبر دليل وشاهد على ذلك؛ ما كنا نشاهده إلى وقت قريب بالنسبة للدراسة في الجامعة الأزهرية.

ومن مزايا هذا التعليم وأساليبه أنه كان يترك للطالب أن يختار شيخه وكتابه تبعاً لميله الخاص، وقدرته الشخصية، وكفاءته العلمية، فإذا سلك السبيل وبلغ الغاية سما قدره وبرز نجمه، وإلاً نكص على عقبيه، فعاد وطلب العلم، أو انحرف إلى حرفة.

وكان ثمَّ ما يشبه الشهادات الدراسية الحديثة وهي (الإجازات العلمية) وهي شهادة شخصية يمنحها أحد أعلام العلماء إلى أحد طلابه، ويشهد فيها أن الطالب المذكور قرأ عليه كتاب (كذا) قراءة فهم وتدبر ومعرفة، أو أنه مهر بالفقه مثلاً وأصبح أهلاً للإفتاء، أو أنه أجاز به، أي صرح له بمزاولته، أو أنه بزغ بالأدب وأصبح كفاء لراوية كتاب فيه، أو ديوان، أو أنه سمع عنه جملة من أحاديث الرسول ﷺ ورواها عنه بسندها، وحفظها بهذا السند، أو أنه أجاز له روايتها عنه، باعتباره حافظاً جديداً من حفاظها^(٢).

(١) انظر «خطط المقرئزي»: ج٤ ص ٢٠٥، ما كتبه عن المدرسة البهائية.

(٢) محمود رزق سليم: جزء ٢ مجلد ٣ ص ٢٩.

أما بالنسبة لنظام التدريس في المدارس العالية فيها التي كانت بمثابة الجامعات اليوم، فإذا تأملنا ما كتبه ابن دقماق عن المدرسة الطبرسية وهو ما نصه^(١): ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية يجلسون الشافعية في الإيوان الغربي، والمالكية في الإيوان الشرقي، ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً، وقرن الإمامة لمعيد الشافعية، والمنزلين علوها للمدرسين، وأعمر مكتباً للسبيل، وشرط لكل مدرس ستين درهماً، ولمعيد الشافعية الإمام في كل شهر أربعين درهماً، ولمعيد المالكية في الشهر أربعين درهماً.

وما كتبه السبكي في معرض حديثه عن واجبات المعلم وهو ما نصه^(٢):
وحق عليه «يعني المدرس» أن يحسن إلقاء الدرس وتفهمه للحاضرين ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من مشكلات، بل يدرّبهم، ويأخذ بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق. وفي حديثه عن المعيد قال: «المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة، وإلا فهو والفقير سواء. ثم قال: والمفيد عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك، وإلا ضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها، ثم ذكر المنتهي من الفقهاء فقال: عليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه . . . الخ.

وما ذكره السيوطي^(٣) عن المدرسة الصلاحية وهو ما نصه: ثم خلت يعني المدرسة الصلاحية عن مدرس ثلاثين سنة.

أقول: فإذا تأملنا هذه النصوص نستطيع القول: أن نظام التدريس فيها كما

يلبي:

(١) ابن دقماق: «الانتصار» ج٤ ص ٩٦ - ٩٨.

(٢) السبكي: «معيد النعم ومبيد النقم» ص ١٠٥ - ١٠٨.

(٣) السيوطي: «حسن المحاضرة» ج٢ ص ١٨٦.

١ - إنه كان يعين لكل مادة مدرس وهو بمثابة الأستاذ صاحب الكرسي في العصر الحاضر، فيتعدد الأساتذة في المسجد الواحد أو المدرسة الواحدة بتعدد ما قرر من مواد.

٢ - إنه عرف نظام الإعادة في ذلك العصر، فكان لبعض الأساتذة معيدون يعاونونهم في عملهم، وعملهم يشبه عمل المعيد في العصر الحاضر، بل في بعض الأحيان كان يشبه عمله عمل المدرس.

٣ - إن المفيد يساوي طالب الماجستير.

٤ - إن المنتهي في تعبيرهم يساوي طالب الدكتوراة.

٥ - كما أنه من المعلوم كان يعين لكل مدرسة شيخ، وشيخ المدرسة يساوي ما نطلق عليه اليوم عميد الكلية.

أما بالنسبة لأساليب التعليم في مصر والشام فإنه كان يترك للطالب أن يختار شيخه وكتابه تبعاً لميله الخاص، وقدرته الشخصية، وكفائته العلمية.

كما استفاد بأن عدد طلاب الصف الواحد الذي يلقي عليه الدرس في بعض المدارس محصوراً لا يزيد في بعضها عن خمسة عشر طالباً.

ويستفاد مما كتبه ابن خلدون في مقدمته تحت باب «فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع» أن أساليب التعليم في مصر كان أسلوب الاستنباط والمناقشة، وأن أسلوب التعليم في المغرب العربي كان أسلوب المحاضرة. قال ابن خلدون^(١): . . . إن الحدق في العلم، والتفنن فيه، والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكه في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسأله، واستنباط فروعه

(١) ابن خلدون «المقدمة» ص: ٤٨٠ - ٤٨٤.

من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحدق في ذلك للفن المتناول
حاصلاً، وهذه الملكة في غير الفهم والوعي. وبعد أن استدل على صحة ذلك
قال: فكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع
كلها ثم قال: وأيسر طرق هذه الملكة، بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية،
فهو الذي يقرر شأنها ويحصل مرامها.

ونذب على أهل المغرب في استعمالهم أسلوب المحاضرة، وأن الطلبة لا
ينطقون ولا يفاوضون، وإن عنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على
طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم. ثم قال: وقد بلغنا في تعليم الصنائع
عند أهل مصر غايات لا تدرك، مثل أنهم يعلمون الحمر الأنسية والحيوانات
العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها، ويعجز
أهل المغرب عن فهمها، وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال
العادية يزيد الإنسان ذكاء في عقله، وأضاء في فكره، بكثرة الملكات الحاصلة
للنفس... الخ.

أما أشهر المدارس التي كانت موجودة في عصره في الفسطاط والقاهرة
فهي:

الجامع الأزهر، والمدرسة الصالحية، والمدرسة الفاضلية، والمدرسة
الصلاحية، وجامع عمرو بن العاص، والمدرسة الكاملية، والمدرسة الناصرية
بالقرافة، والمدرسة الظاهرية، والمدرسة المنصورية، وقد درس ابن دقيق العيد
في ستة منها وهي:

١ - المدرسة الفاضلية:

أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، الكاتب المشهور
بالقاهرة، بدرب ملوخية، بجوار داره عام (٥٨٠هـ)، ورتب فيها دروساً في فقه

الشافعية والمالكية، وفي القراءات، وأوقف عليها من الكتب نحو ألف مجلد في مختلف العلوم.

وكان ابن دقيق العيد رحمه الله يدرس في هذه المدرسة المذهبية، قال ابن رشيد^(١): قرأت بخط صاحبنا المحدث الأديب النحوي أثير الدين أبي حيان الأثري، أن ابن دقيق العيد كان يدرس المذهبين بالفاضلية ودرس الحديث بالكاملية كما ذكر تدرسه فيها غيره من المؤرخين.

٢ - المدرسة الكاملية :

أنشأها الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل الأيوبي في سنة (٦٢٢هـ) هجرية بين القصرين في القاهرة، وكانت تعرف بدار الحديث أيضاً، وهي ثانية الدور التي بنيت خاصة لعلم الحديث، والأولى بناها السلطان العادل نور الدين زنكي رحمه الله في دمشق، وقد أوقف السلطان الكامل على المدرسة الكاملية أوقافاً عدة، وممن تولى التدريس فيها غير ابن دقيق العيد أبو عمر بن سيد الناس تلميذه، والبدر بن جماعة، وزين الدين العراقي، وكان ابن دقيق العيد يسكن فيها وقد تولى مشيختها^(٢). قال النجيب^(٣): (كان من إنعام الله تبارك وتعالى لقاء هذا الإمام الفاضل نفع الله تعالى برؤيته وبروايته، وأول ساعة لقيته كانت في ليلة السبت السادس لجمادى الأولى من سنة ٦٩٦هـ وهذه الليلة كانت أول ليلة بت فيها في مدينة القاهرة، وهذا الإمام الفاضل هو أول شيخ لقيته بها، استأذنت عليه في داره التي كان يسكن بها وهي قاعة دار الحديث الكاملية ليلاً... الخ.

ويؤخذ من كلامه أيضاً أنه لازم التدريس فيها بعد توليه القضاء لأنه تولى

(١) انظر «رحلة ابن رشيد» ج٣ ص ١٢/١.

(٢) ابن كثير ج٤ ص ٢١.

(٣) النجيب «مستفاد الرحلة والاغتراب» ص ٢٠.

القضاء سنة (٦٩٥هـ).

وقد ظلت المدرسة الكاملية عامرة بكبار العلماء المشتغلين في علم الحديث حتى عام (٨٠٦هـ) ثم ولى أمرها من لم يحسن القيام بها فأخذت في الزوال.

٣ - المدرسة الناصرية بالقرافة :

أنشأها صلاح الدين الأيوبي وأوقف عليها عدة أوقاف، وأقام عليها دروساً للشافعية، وأجرى الأرزاق على علمائها وطلابها، وقد ظلت هذه المدرسة مزدهرة زمناً طويلاً في عهد المماليك، وولي التدريس فيها تقي الدين بن رزين ثم شيخنا ابن دقيق العيد^(١) وهي غير المدرسة الناصرية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي بجوار الجامع العتيق التي تعرف بالمدرسة الشرفية^(٢) أيضاً، وهي غير المدرسة الناصرية التي بدأ بناءها الملك كتبغا، وأتمها الناصر محمد قلاوون عام (٧٠٣هـ).

٤ - المدرسة الصلاحية :

أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي عام (٥٧٢هـ) بجوار قبة الشافعي وجعل فيها مدرسين ومعيدين، وبلغ عدد المعيين فيها في بعض الأحيان عشرة. وقد عاشت هذه المدرسة في العصر المملوكي مدة طويلة، وكان ممن تولى التدريس فيها شيخنا ابن دقيق العيد^(٣)، كما تولى التدريس فيها فيما بعد ابن حجر العسقلاني وغيره من كبار العلماء.

(١) علي صافي حسين: «ديوان ابن دقيق العيد» ص ٧٥.

(٢) محمود رزق سليم: «عصر سلاطين المماليك» ج ٢ مجلد ٣ ص ٧١.

(٣) أحمد أحمد بدوي: «مجلة الرسالة» ١٧ / ٩٠٩.

وقد تكون هي المدرسة المقصودة بقول الإسنوي ودرس بالشافعي^(١).

٥ - المدرسة الصالحية :

أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام (٦٣٩هـ) وكانت تتكون من أربع مدارس معاً، واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة^(٢)، وهي أول مدرسة أنشئت على هذا النمط، وأوقف عليها منشئها أوقافاً كثيرة، وقد تولى ابن دقيق العيد التدريس فيها^(٣).

٦ - المدرسة المنصورية :

أنشأها الملك المنصور قلاوون اتجاه المارستان داخل بابه، ورتب فيها دروساً في المذاهب الأربعة، ودرساً في الطب، كما رتب بقبته المجاورة لهذه المدرسة درساً في الحديث، ودرساً في التفسير، وميعاداً للوعظ، وعني باختيار مدرسيها عناية تامة، وكان ابن دقيق العيد يدرس بالقبة^(٤) وقد زودها الملك المنصور بخزانة كتب، قال السيوطي وقد مدحه الشريف البوصيري لذلك بقصيدة أولها^(٥) :

أَنْشَأَتْ مَدْرَسَةً وَمَارِسْتَانًا لِتُصَحِّحَ الْأَدْيَانَ وَالْأَبْدَانَ

وأما أشهر تلاميذه، فقد تتلمذ على الشيخ خلق كثير في قوص والقاهرة، وكان من أشهر تلاميذه، القاضي عماد الدين بن الأثير الحلبي الشافعي الذي

(١) الإسنوي : «طبقات الشافعية» ج٢ ص ١٢٩ .

(٢) محمود رزق سليم، «عصر سلاطين المماليك» المجلد ٣ ص ٣٩ .

(٣) علي صافي حسين : «ديوان ابن دقيق العيد» ص ٧٥ .

(٤) أحمد أحمد بدوي : «مجلة الرسالة» سنة ١٧ ص ٩٠٩ .

(٥) السيوطي : حسن «المحاضرة» ج٢ ص ١٣ - ١٤ .

استملى منه كتاب إحكام الأحكام، والشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس،
وقطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي، وقاضي القضاة علاء الدين
القوني، وقاضي القضاة علاء الدين الأحنائي.

قال الأدفوي: حدث بقوص ومصر وغيرهما، سمع منه الخلق الكثير مع
قلة تحديده، فممن سمع منه قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي القاسم
بن عبد السلام التونسي، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن حيدرة
الشهير بابن القماح، وقاضي القضاة محمد بن أحمد بن عدلان، وشيخنا قاضي
القضاة شيخ الشيوخ علاء الدين علي بن إسماعيل القونوي، وشيخنا أثير الدين
أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي، والشيخ فخر الدين عثمان المعروف بابن
بنت أبي سعدة، وشيخنا تاج الدين محمد بن الدشناوي، والشيخ فتح الدين
محمد بن محمد اليعمري، وشرف الدين محمد بن القاسم الأحميني، والشيخ
قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي، وجمع يطول تعدادهم.

وقال الذهبي: سمعت من لفظه عشرين حديثاً، وذكر من تلاميذه القونوي،
والإحنائي، وقطب الدين الحلبي، ثم قال وتخرج به أئمة.

وممن تتلمذ عليه وروى عنه من المغرب العربي وترجموا له القاسم بن
يوسف النجيب السبتي المتوفى سنة (٧٣٠هـ)، الذي ترجم له في كتابه (مستفاد
الرحلة والاعتراب) بما ينوف على إحدى وعشرين صفحة، وأبو عبد الله محمد بن
عمر الفهري السبتي المعروف بابن رشيد المتوفى بفاس سنة (٧٢١هـ)، وقد
ترجم له في كتابه: (ملء الغيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى
مكة وطيبة) وقد عرف هذا الكتاب (برحلة ابن رشيد) وهو مخطوط وقد ترجم له
فيه بما ينوف على ثلاثة عشرة صفحة.

المطلب الثاني

ترجمة لأشهر تلاميذه

١ - عماد الدين بن الأثير الحلبي^(١):

وهو إسماعيل بن تاج الدين أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي الشافعي، ولقبه عماد الدين، من بيت كتابية ونظمٍ وشعرٍ وعلمٍ، كان محدثاً ومؤرخاً وأديباً وفقهياً، حفظ متن (العمدة في أحاديث الأحكام) للحافظ عبد الغني المقدسي النابلسي، فشرع كما قال في مقدمة كتاب «إحكام الأحكام» أن كل لفظة من كتاب العمدة تحتاج إلى بحث وتدقيق، وتفتقر إلى كشف وتحقيق، وأنه لم يجد من علماء ذلك الوقت إلا شيخنا ابن دقيق العيد، فتوجه إليه في فهم معاني كتاب العمدة فأملى عليه شرح كتاب العمدة، وسمى ما جمعه من شرح كتاب العمدة «إحكام الأحكام في شرح أحاديث الأنام» ولي كتابة مصر، ثم تركها تورعاً، ومن مؤلفاته التاريخ الذي سماه «عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار» اقتصر على الملوك والخلفاء.

ومن مؤلفاته «كنز البلاغة» في مجلد، وله شرح على قصيدة ابن عبدون الفهري الرائية التي يرثي بها ملوك بني الأقطش، ومطلعها:

الدهرُ يفجعُ بعدَ العينِ بالأثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ
أنهاكُ أنهاكُ لا ألوكَ معذرةً عن نومةٍ بين نابِ اللَّيْثِ والظُّفْرِ

(١) انظر ترجمته في كتاب «كشف الظنون» ج٢ ص ١١٦٤، وكتاب «العدة على أحكام الإحكام» في المقدمة التي كتبها السيد محيي الدين الخطيب.

قال صاحب كشف الظنون: وقد أحسن شرحها وأجاد، ثم زيّلها.
وله أيضاً مجموعة خطب ورسائل. أعدم في وقعة التتار سنة (٦٩٩هـ).

٢ - علاء الدين القنوي:

هو علي بن إسماعيل بن يوسف القنوي التبريزي، ويكنى بأبي الحسن ويلقب بعلاء الدين ولد بقونيا من بلاد تركيا سنة ثمانٍ وستين وستمائة (٦٦٨هـ)^(١)، قدم دمشق في أول سنة ثلاث وتسعين وستمائة (٦٩٣هـ) وعمره نحو خمس وعشرين سنة، فسمع بها ودرس بالإقبالية، ثم رحل إلى القاهرة سنة سبعمائة (٧٠٠هـ) فسمع من الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ولازمه، وقرأ عليه في شرحه للإمام، وأثنى عليه الشيخ ثناء بالغاً، كما سمع من الشيخ شرف الدين الدميّاطي، وتولى بالقاهرة تدريس المدرسة الشريفة، ومشيخة الشيوخ، وازدحم عليه الطلاب، وتخرج به أكثر علماء الديار المصرية.

صنف الشرح المشهور (على الحاوي)، ولخص كتاب المنهاج للحليمي، وانتهت إليه رئاسة العلم في عصره، ثم عين قاضياً للقضاة في بلاد الشام سنة عشرين وسبعمائة وأسندت إليه مشيخة الشيوخ.

قال عنه الإسنوي^(٢): كان إماماً عالمياً ضابطاً متثبتاً صالحاً حافظاً لأوقاته. . . إلى أن قال: وكان أجمع من رأيناه للعلوم، مع الاتساع فيها، خصوصاً العلوم العقلية، واللغوية، لا يشار بها إلا إليه، ولا يحال فيها إلا عليه.

(١) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج٤ ص ١٤٧.

(٢) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

٣ - فتح الدين بن سيد الناس^(١).

هو الحافظ محمد بن الفقيه محمد أبي عمر بن الحافظ محمد أبي بكر بن أحمد بن سيد الناس اليعمري، الربيعي الأندلسي، الإشبيلي، ثم المصري، المشهور بفتح الدين ابن سيد الناس، وكنيته أبو الفتح، من بيت رئاسة وعلم، ولد بالقاهرة سنة إحدى وسبعين وستمائة، سمع الحديث عن كثير من العلماء منهم شيخنا ابن دقيق العيد، والنجيب عبد اللطيف، وهو الذي سماه بأبي الفتح، وسمع من القاضي شمس الدين محمد بن العماد، والشيخ قطب الدين بن القسطلاني، وارتحل إلى دمشق سنة تسع وتسعين وستمائة، فسمع من الكندي وغيره.

قال السبكي قال الذهبي: كان صدوقاً في الحديث، حجة فيما ينقل، له بصر نافذ بالفن، وخبرة بالرجال وطبقاتهم، ومعرفة الاختلاف.

وقال الصفدي: وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يحبه، ويؤثره، ويركن إلى نقله، أخبرني من لفظه القاضي عماد الدين إسماعيل بن القيصراني قال: كان الشيخ تقي الدين إذا حضرنا درسه وتكلم فإذا ذكر أحد من الصحابة، أو أحد من رجال الحديث قال: (أيش ترجمة هذا يا أبا الفتح) فيأخذ فتح الدين في الكلام ويسرد، والناس كلهم سكوت، والشيخ مصغ إلى ما يقوله.

تفقه على مذهب الشافعي، وحفظ التنبيه، وقرأ النحو على البهاء بن النحاس، واشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى، في الحديث والفقه والنحو والعربية، وعلم السِّيَر والتواريخ.

(١) انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» للإسنوي ج٢ ص ٢٠٨، «طبقات السبكي» ج٦

ص ٢٩ - ٣١، «الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢٠٨ - ٢١٣، العراقي «الوفيات» ج١ ص ٢٨٩

ولي مشيخة دار الحديث بالظاهرية بمصر، وكان معه أيضاً مدرسة أبي حليفة على بركة الفيل، ومسجد الرصد، وخطابة جامع الخندق، صنف كتباً نفيسة منها «السيرة الكبرى» و«السيرة الصغرى» و«عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» و«تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة» و«النفح الشذي في شرح جامع الترمذي»، وكتاب «بشرى اللبيب بذكر الحبيب» و«منح المدح» و«المقامات العلية في كرامات الصحابة الجليلة».

وله شعر جيد رقيق، ونثر لطيف العبارة فصيح الألفاظ. طبع من آثاره (كتاب عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير) نشرته مكتبة المقدسي في جزئين في القاهرة. توفي فجأة في منزله بالظاهرية يوم السبت حادي عشر شعبان سنة (٧٣٤هـ) ودفن بالقرافة رحمه الله.

المبحث الثاني تصديه للقضاء

وبعد أن قضى معظم حياته في التدريس والإفتاء بعيداً عن السياسة وأصحابها. تولى القضاء في أخريات حياته، وهو في السبعين من عمره، وكان ذلك في يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ستمائة وخمس وستين هجرية، حيث عين قاضياً للقضاة الشافعية في عهد السلطان كتبغا.

وقد ولي القضاء قبل ذلك في قوص، وباشره فيها عن المالكية^(١) مدة، أثناء إقامته وتدريسه فيها، وذلك بعد تعدد منصب قاضي القضاة، وفق تعدد مذاهب أهل السنة، وهي المذاهب الأربعة.

فقد تعدد منصب قاضي القضاة في زمن السلطان بيبرس سنة ستمائة وثلاث وستين هجرية، وكان قبل ذلك محصوراً بالمذهب الشافعي من زمن صلاح الدين الأيوبي، إلا أنه بعد التعدد ظل قاضي قضاة الشافعية ممتازاً على سائر زملائه، وكان يقدم عليهم بالمناسبات. وبقي له النظر في مال اليتيم، والمحاكمات المختصة في بيت المال.

وكانت السلطة القضائية في مصر تتكون من ثلاثة أقسام هي:

١ - القضاء العادي .

٢ - محكمة المظالم .

٣ - قضاء الحسبة .

(١) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢٢٩ .

١ - القضاء العادي: وهو المفوض بالنظر في الخصومات العادية، وكان سلاطين الأيوبيين، وسلاطين المماليك، يجعلون أمر القضاء بين الناس، والفصل فيما ينشأ بينهم من خصومات ومنازعات عادية، إلى القضاة من فقهاء المسلمين.

وكان القاضي في دائرته هو المتصرف الوحيد في شئون القضاء، ويعرض عليه جميع القضايا على اختلاف أنواعها، سواء كانت مدنية، أم جنائية، أم أحوالاً شخصية، فيدخل في اختصاصه النظر في البيع والإجارة والعقوبات وعقود الزواج، ونظر الأوقاف، والعناية بشئون الصلاة والزكاة، وما إلى ذلك من شئون العبادات والمعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية.

وكان القاضي في القاهرة يلقب بقاضي القضاة نظراً لنوابه في الأقاليم، وكان قضاء الشافعية ينقسم في بعض الأحيان إلى دائرتين:

الأولى: قضاء القاهرة والوجه البحري.

الثانية: قضاء مصر (الفسطاط) والوجه القبلي.

ويسمى كل منهما قاضياً للقضاة، ولكل واحد منهما نوابه في الأقاليم، وفي هذه الحالة يكون قاضي قضاة القاهرة والوجه البحري مقدماً في مجلس السلطان في الجلوس بمحكمة المظالم على زميله، وقد تجمع الدائرتان لقاض واحد كما حصل بالنسبة لابن دقيق العيد، فقد عين ابن دقيق العيد قاضياً لقضاة الشافعية في القطر المصري كله حيث اجتمع له الوجه البحري مع الوجه القبلي، يدل على ذلك كتابه الذي أرسله إلى قاضي اخميم في الوجه القبلي^(١)، وتوليته

(١) سأذكر قسماً منها في البحث الخاص في أدبه وشعره.

للشيخ السفطي بيبليس^(١).

٢ - محكمة المظالم : وهي المحكمة التي تتكون عادة من السلطان، وكبار القضاة والعلماء، والوزير والأمراء، ممن يتصفون بجلال القدر، ونفوذ الأمر، وهيبة الشأن، وتقوى الله .

ويفوض إليها النظر في فصل القضايا التي تحصل بين الدولة والأمة، وبين الموظفين والدولة، وبين الموظفين والرعية، أو بين الموظفين وأحد الأمراء، وتنفيذ أحكام القضاة الذين تعذر عليهم تنفيذها لعلو قدر المحكوم عليه، أو استئناف حكم قضى به بعض القضاة .

٣ - قضاء الحسبة : وهو القضاء الذي يختص متولى النظر في فض المنازعات بالنظام العام، والجنايات أحياناً، مما يستدعي الفصل فيه بسرعة؛ وهو يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن المحتسب يقوم بوظيفته بحكم الوظيفة والتفرغ لها .

ومن خصائصها منع المنكرات في الطرقات والمساجد والأسواق، والحمامات والمدارس والمقاهي، والغش في البضائع، وتطفيف الكيل والميزان، ومخالفة الآداب العامة .

وقضاء الحسبة يعتبر واسطة بين القضاء العادي وقضاء المظالم .

وكان منصب قاضي القضاة في ذلك الوقت بمثابة وزير العدل، بل أشرف منزلة وأعظم خطراً، إذا كان السلطان إذا أراد أن يستنفر الناس للجهاد، أو شاء أن يأخذ منهم بعض أموالهم لتجهيز الجيش والتقوي على العدو، لا يستطيع أن

(١) انظر «الطالع السعيد» ص ٥٨٧، و«الشيخ القفطي» هو إسماعيل بن موسى بن عبد

الخالق وترجمته في «الطالع السعيد» ص ١٦٧ .

يفعل شيئاً من ذلك، حتى يقره على ذلك قاضي القضاة، كما كان يجلس مع السلطان لقضاء المظالم، ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين القضاة والسلاطين والأمراء.

وذكر ابن حجر في كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر، أن الضياء المعتدي هو الذي أشار على المنصور لاجين بتولية الشيخ ابن دقيق العيد ذلك المنصب، قال ابن حجر ما نصه^(١): (وكان الذي أشار به على المنصور لاجين الضياء المعتدي). فقال: (أدلك على محمد بن إدريس الشافعي وسفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم)، وولي القضاء بعد موت تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة (٦٩٥هـ). وذكر المقرئ^(٢) أن الذي عينه هو السلطان زين الدين كتبغا المنصوري، قاضي القضاة بالديار المصرية، بعد وفاة قاضي القضاة ذي الرياستين تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز، في يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى سنة (٦٩٥هـ).

ويظهر في أول نظرة أن هناك تعارضاً بين الروایتين، فرواية رفع الإصر تذكر أن الذي عين ابن دقيق العيد في منصب قاضي القضاة السلطان لاجين، في حين أن رواية المقرئ تذكر أن الذي عينه هو السلطان زين الدين كتبغا المنصوري. وعند التحقيق يظهر أولاً تعارض بين الروایتين، وأن كليهما صحيحة، لأن السلطان لاجين كان يشغل منصب نائب السلطنة أيام السلطان كتبغا، الذي كان يتولى السلطنة في ذلك الوقت، حيث إن السلطان كتبغا تولى السلطنة سنة (٦٩٤هـ)، وخلع منها سنة (٦٩٦هـ) بتدبير من الأمير لاجين نائب سلطنته،

(١) ابن حجر: «رفع الإصر» ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٢) المقرئ: «المقفى» ج ٢ ص ١٦٥.

ووثب لاجين مكانه إلى السلطنة - كما ذكرت ذلك سابقاً عند التحدث عن العصر المملوكي - فيكون السلطان المنصور لاجين هو الذي قلده ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة، وهو نائب السلطان كتبغا.

وقد اعتبر بعض تلاميذ ابن دقيق العيد، وبعض من أرخوا له، أن قبوله لهذا المنصب زلة من زلاته. فقد نقل ابن حجر^(١) عن تلميذه ابن سيد الناس فتح الدين محمد اليعمري قوله: لو لم يدخل في القضاء لكان ثوري زمانه، وأوزعي أوانه.

وقال الأذفوي^(٢): . . . لكنه تولى القضاء آخر عمره، وذاق حلوه مره، وحط ذلك عند أهل المعارف والأقدار من علو قدره، وحسّن الظن ببعض الناس، فدخل عليه البأس، وحصل له من الملامة نصيب، والمجتهد يخطيء ويصيب، ولو حيل بينه وبين القضاء لكان عند الناس أحمد عصره، ومالك دهره، وثوري زمانه، والمتقدم على كثير ممن تقدم فكيف على أقرانه؟.

ونقدتهم هذا في توليه القضاء فيه نظر كما سيظهر، فقد تولى القضاء رحمه الله بعد إباء شديد كما ذكر ذلك السبكي في طبقاته، والصالح الصفدي في أعيان العصر، والإسنوي، وغيرهم من الثقات^(٣). قال الإسنوي في توليه القضاء: فلما مات القاضي تقي الدين بن بنت الأعز سأله في القضاء فامتنع، فتحيلوا عليه فقالوا له عن شخصين لا يصلحان عنده للقضاء أن فلاناً وفلاناً قد انحصر الأمر فيهما إن لم تفعل، والظاهر أنه كان كذلك، فرأى أنه قد وجب عليه القبول، فقبل حينئذ.

ومن هنا نعلم أن ابن دقيق العيد ما قبل منصب قاضي القضاة إلا بعد أن

(١) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) الأذفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٩٦.

(٣) انظر «الطبقات» للسبكي ج ٦ ص ٤، و«طبقات الشافعية» للإسنوي ج ٢ ص ٢٢٩.

علم بأنه سيؤول إلى من لا يستحقه، ولا تتوفر فيه شروط منصب القاضي العادل، فوجد الأمر لازماً عليه أن يقبله، لتعيينه عليه بحيث لو رفض لوقع في الإثم، فأصبح قبوله واجباً دينياً لا مناص من القيام به.

وكان رحمه الله متبرماً بمنصب قاضي القضاة، فقد نقل الأدفوي^(١) نفسه عن الشيخ شمس الدين بن عدلان أنه قال له مرة: والله ما أثار الله لمن بلي بالقضاء. ثم قال له يا فقيه! لو لم يكن إلا طول الوقوف للسؤال والحساب لكفى.

وقد عزل نفسه مرة بعد مرة، وتنصل منه كرة بعد كرة، إلا أنه كان يُسأل فيعاد إليه^(٢). قال ابن حجر في كتابه «رفع الإصر عن قضاة مصر» ما نصه: (إذا سمع ما يكره عزل نفسه، فعل ذلك مراراً وذكر ذلك الصفدي، والأدفوي، وغيرهم من الثقات. فكان بذلك مثال الزاهد، قال الثوري^(٣) رحمه الله: (ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نوزع في الرياسة حام عليها وعاد).

وكم خدعت الرياسة كثيراً من العلماء مفساروا وراء المظاهر والأبهة والخيلاء، فباعوا دينهم بدنياهم، فنقص قدرهم، وأسقطت قيمتهم في نظر العامة والخاصة، أما ابن دقيق العيد فكان مثال الصرامة والحزم، فلم يدار ولم يجار في سبيل المحافظة على المنصب، كما لم تأخذه في دين الله والحق لومة لائم، ثم كان إذا سمع ما يكره عزل نفسه، فرفع منصب القضاء قدره، كما رفع هو منصب القضاء.

(١) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٩٦.

(٢) انظر «تذكرة الحفاظ» للذهبي ج ٤ ص ١٤٨٢، «طبقات الشافعية» للسبكي ج ٦ ص ٤، و«الوافي بالوفيات» ج ٤ ص ١٩٤.

(٣) الشيخ عبد الحليم محمود: سفیان الثوري - «أعلام العرب» ص ٣٧.

* بعض آثاره الحسنة ومواقفه الحازمة التي تدلى على تمسكه بالحق :

١ - قال ابن حجر^(١): إنه هو أول من عمل المودع الحكمي ، وقرر أنّ من مات وله وارث، إن كان كبيراً قبض حصته، وإن كان صغيراً عمل المال في المودع، وإن كان للميت وصي خاص ومعه عدول ينوبهم القاضي لينضبط أصل المال على كل تقدير، واستمر الحال على ذلك .

٢ - إن القضاة كان يُخلع عليهم الحرير فأبى ذلك وامتنع، وأمرهم بتغييرها إلى الصوف، فخلع عليهم الصوف، فغير لباس القضاة من الحرير إلى الصوف، واستمرت هذه الحالة الحميدة بعده^(٢).

٣ - انتزاع أوقاف كانت أخذت واقتطعت من قبل بعض الأمراء وعزل نفسه بسببها، ولم يعد إلى القضاء حتى أعيدت^(٣).

٤ - إن الأمير منكوتومر نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين أراد أن يقضي لشخص بإرث رجل متوفى باعتباره أنه أخوه، فرفض على الرغم من إلحاح منكوتومر عليه وتحيله، فقد أرسل إليه حاجبه يتلطف إليه في قبول شهادته، فلما دخل عليه سلّم ووقف، فرد عليه ابن دقيق العيد السلام، وقام إليه نصف قومة، فجلس وأخذ يتلطف في إثبات أخوه التاجر بشهادة منكوتومر، فقال ابن دقيق العيد: وماذا يبني على شهادته، فقال: يا سيدي ما هو عندكم عدل فقال: سبحان الله ثم أنشد:

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

(١) ابن حجر: «الدرر الكامنة» جـ ٤ ص ٢١٤ .

(٢) الإسنوي: «طبقات الشافعية» جـ ٢ ص ٢٣٠ .

(٣) ابن حجر: «رفع الإصر عن قضاة مصر» .

وكرر هذا البيت ثلاث مرات ثم قال: «والله هي لم تقم بينة شرعية تثبت عندي، وإلا فلا حكمت كل شيء باسم الله، قم»، فقام كرت الحاجب وهو يقول: «والله هو الإسلام»، واستقال من القضاء على أثر ذلك، إلا أن السلطان استرضاه بعد ذلك، واعتذر إليه نائب السلطنة فعاد^(١).

٥ - موقفه من الأمير بيبرس الجاشنكير قائد الجيش، وسالار نائب السلطان^(٢) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثانية، وكان لهذين الأميرين آنذاك أمور الدولة والتصرف في شئونها، وذلك سنة ستمائة وتسع وتسعين هجرية (٦٩٩هـ)؛ لما كان العسكر قد عادوا من الشام مهزومين في حربهم مع التتار. فعندما أراد هذان الأميران أن يجمعوا المال من الشعب لمواجهة عسكر التتار، وكان القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب قد أراد أن يتقرب إلى بيبرس وسالار، فأفتى بأنه يجوز للسلطان أن يأخذ من كل فرد ديناراً يتقوى به على حرب العدو، وقد اعتمد في ذلك على فتوى ابن عبد السلام بجواز ذلك أيام سيف الدين قطز، مع عظم الفارق في الحالتين، فأرسل نائب السلطنة إليه فاحضره في جمع من الأمراء وقال له: إن الخزينة خالية من النقود، والأمر لازم لضرب ضريبة على الأهالي لذلك، وألح عليه فلم يتحول عن الامتناع، ولما احتج عليه القاضي بن الخشاب بفتوى شيخه عز الدين بن عبد السلام زمن الملك المظفر قطز حيث أجاز بأخذ دينار من كل شخص لحرب التتار، أجابه الشيخ بأن ابن عبد السلام لم يفت إلا بعد أن أحضر جميع الأمراء ما لديهم من النقود والفضيات حتى حلي النساء والأولاد، بعد ذلك حلفوا أنهم صاروا لا يملكون شيئاً، فأفتى بتحصيل دينار من كل شخص، ونحن في وقتنا هذا نعلم أن

(١) انظر القصة بكمالها في «المقفي» ج٢ ورقة ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ج٢.

الأمراء يملكون أموالاً كثيرة، ويجهزون بناتهم بالجهازات الغالية من الجواهر واللؤلؤ، بل أوعية ماء مراحيضهم من الفضة، ومداسات النساء محلاة بالأحجار النفيسة، ثم قال: (وكيف يحل مع ذلك أخذ شيء من أموال الرعية، لا والله لا جاز لأحد أن يتعرض لدرهم من أولاد الناس إلا بوجه شرعي) ثم قام وخرج ممتنعاً فلم يكن من العلماء الذين يجاملون الأمراء ويتقربون إلى السلاطين على حساب الدين كما فعل ابن الخشاب، وكما نرى كثيراً منهم في هذا العصر يجاملون وينافقون، ويفتون بغير ما أنزل الله ويحرفون كلام الله تبعاً لهوى الحكام، ويكيلون لهم المديح على المنابر، لينالوا رضاهم، فيصلوا إلى مآربهم أو يحافظوا على مناصبهم، باعوا دينهم بدنياهم فهؤلاء كما قال عنهم الرسول ﷺ ليسوا عبداً لله وإنما هم عبيد للدرهم والدينار والوظيفة وقد دعى عليهم بالتعاسة فقال عليه السلام: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيعة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

٦ - ومن آثاره الحسنة في القضاء أنه كان يكتب إلى نواب القضاء يذكرهم ويحذرهم وينصحهم ويرشدهم، ويوصيهم بالعمل الصالح، ومراعاة العدل، ويكتب لهم في ذلك رسائل طريفة جامعة، يرسم لهم فيها طريق العدل، من ذلك ما كتب به إلى الشيخ البهنسي قاضي اخميم وهي رسالة طويلة^(١)، فقد أعلن له فيها ما استحکم على القلوب من الغفلة، وما شاع بين الناس من فساد ونسيان، وعدم مراقبة الله في الأقوال والأفعال، وبيعهم الدين بالدنيا، ولم يستثن من ذلك قضاة الشرع الذين حملوا الأمانة ولم يؤدوها، وبيّن له ما ينجم من ذلك من عذاب في الدنيا والآخرة، وأخذ يحذره وينذره من سؤال الله وعذابه، وأمره أن يتدبر قول

(١) نص الرسالة في «الطالع السعيد» ص ٥٩٧ - ٥٩٩ وسأذكرها في البحث الخاص في أدبه وشعره.

الرسول ﷺ: «القضاة ثلاثة»^(١) وقوله لبعض أصحابه: «لا تأمرن على اثنين ولا تليّن مال يتيم». وطفق يضرب له الأمثال بأحوال السلف الصالح وأقوالهم، من ذلك قول الفاروق: ليت أم عمر لم تلده. واستسلام عثمان رضي الله عنه، وقوله من أغمد سفه فهو حر، وقول علي والخزائن مملوءة بين يديه من يشتري مني سيفي هذا؟ ولو وجدت ما اشتري به رداءً ما بعته!!.

٧ - عدم موافقته على هدم كنائس النصارى إلا بيينة تثبت أنها أحدثت في الإسلام، وقد أفتى الفقيه نجم الدين أحمد بن الرفعة بوجوب هدم كنائسهم، بحجة أنها أحدثت في الإسلام، وجمع القضاة والفقهاء لذلك، فلم يوافق ابن دقيق العيد على هدمها وقال: (أحتاج إلى بيينة تثبت أنها حدثت في الإسلام، فإذا قامت البيينة بهذا أفتيت وحكمت بهدمها، ومتى لم تقم البيينة بذلك فلا يجوز هدمها)، فوافق الجماعة على ذلك، وكان ذلك سنة (٧٠٠هـ).

وهذه الآثار الحسنة والمواقف الحازمة التي ذكرتها وأمثالها كثير، تجلت فيها شخصية ابن دقيق العيد في القضاء، ووضحت وضوحاً تاماً، فهي دليل قاطع، وبرهان ساطع، على فرط نزاهته وزهده، وورعه وتقواه، وعلى أنّ توليه القضاء لم يحط من منزلته العلمية أو الدينية، أو تقدمه على غيره في التقى والصلاح.

وكان رحمه الله يخاطب السلطان بما دونه بقوله (يا إنسان) وإن كان المخاطب فقيهاً كبيراً قال يا فقيه، وتلك كلمة لا يسمح بها إلا لابن الرفعة ونحوه.

(١) نص الحديث: «القضاة ثلاثة؛ اثنان في النار، وواحد في الجنة، رجل عرف الحق ف قضى به فهو في الجنة، ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار، ورجل لم يعرف الحق ف قضى للناس على جهل فهو في النار». (رواه أصحاب السنن وصححه الحاكم).

وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي يا إمام، ويخصه بها^(١).

قال ابن حجر نقلاً عن الزمكاني : وكان السلطان لاجين يقبل يديه وينزل

له عن سريره .

ولم يصل رحمه الله إلى هذه المنزلة عنه الأمراء والسلاطين ، إلا أنهم لمسوا عدالته وتقواه . ورأوا تقدير الناس له ، وتعظيمهم إياه ، وأنه مقدم لدى عامة الشعب وخاصتهم في العلم والدين والتقوى على جميع أقرانه .

وفي هذه الأثار الحسنة التي ذكرتها ، والمواقف الحازمة ، والتعصب للحق والتمسك به يشبه إلى حد كبير شيخه العز بن عبد السلام :

١ - فهو أبطل بدعة خلع ملابس الحرير على القضاة وغيرها إلى الصوف ، وأستاذه أبطل بدعة حمل السيف على المنبر ، ولبس السواد أثناء الخطبة ، وأبطل صلاتي الرغائب ونصف شعبان ، ومنع منهما لعدم صحة ذلك عنده .

٢ - واسقاطه لشهادة نائب السلطنة منكوتمر وإنشاده للرسول ذلك البيت الذي يدل على عدم اعتبار شهادة المماليك ، يشبه إفتاء الشيخ بإسقاط شهادة المماليك لعدم ثبات حریتهم عنده .

٣ - وموقفه من الأمير بيبرس الجاشنكير ونائب السلطنة سالار عندما أراد أن يجمع المال من الشعب ، يشبه موقف ابن عبد السلام مع نائب السلطنة حينئذٍ قطز، بحيث لم يجز كل واحد منهما ذلك إلا بنفس الشروط .

ومخاطبته للسلطان بقوله (يا إنسان) كما كان يخاطب به عامة الناس ولا ينحله الألقاب التي فيها معنى الجبروت والعظمة ، يشبه خطاب العز بن عبد

(١) السبكي «طبقات الشافعية» ج٦ ص ٤٠٤ .

السلام للملك الصالح أيوب في يوم أبيهته وزينته في احتفال العيد بـ (يا أيوب)،
وعدم تبجيله للملوك بصورة عاملة .

٥ - وفي عزله لنفسه عن القضاء مراراً تعصباً للحق وتمسكاً به وزهداً بذلك
المنصب، ثم استرضائه وإعادته، يشبه موقف أستاذه في عزله لنفسه عن القضاء
ثم استرضائه ثم عزله لنفسه وإصراره على ذلك .

وبهذا يظهر لنا جلياً أثر شخصية العز بن عبد السلام على شيخنا ابن دقيق
العيد، من إخلاص للعلم، ونزاهة في القضاء، وشجاعة في الجنان، وجرأة في
الحق، وعدم تعلق القلب بالدنيا وزينتها .

(١) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج٤ ص ٢١٢ .

الفصل الرابع أخلاقه وتصوفه وثناء العلماء عليه

المبحث الأول

أخلاقه

كان رحمه الله عالماً تقياً ورعاً، عزيز النفس، كريماً جواداً سخياً، حلماً متسامحاً، عديم البطش، قليل المقابلة على الإساءة، كثير المكارم النفسانية والمحاسن الإنسانية، وكان فيه إنصاف ويحاسب نفسه على الكلام، ويأخذ عليها بالملام، مشتغلاً بنفسه، قليل المخالطة، مع دين متين وعقل رصين، حتى قالوا إن العاد يستطيع إحصاء كلامه، وهو القائل^(١):

تمنيتُ أن الشيبَ عاجلَ لِمَتي وقربَ مني في صباي مزاره
لأخذَ من عصرِ الشبابِ نشاطه وآخذَ من عصرِ المشيبِ وقاره
وقد أجمع من أرخَ له من الثقة على حسن أخلاقه الشخصية والاجتماعية.

١ - أمثلة على تقواه:

روى الشيخ ضياء الدين منتصر ابن الحسن قال^(٢): حكى لي القاضي أحمد بن نوح قاضي أسوان وإدفو وكان ثقة قال: قرأ الشيخ ليلة فاستمعت له فقراً إلى قوله: ﴿فإذا نُفخَ في الصورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾^(٣) فما زال

(١) السبكي: «طبقات الشافعية» ج ٦ ص ٥.

(٢) الأذفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧٩.

(٣) المؤمنون: ٣٠.

يكررها إلى مطلع الفجر.

وقال ابن حجر^(١): قرأت بيد الشيخ الحافظ ابن الحسين بن أبي بكر المصري، سمعت صاحب شرف الدين محمد بن صاحب زين الدين أحمد بن صاحب بهاء الدين رحمه الله تعالى قال كان ابن دقيق العيد يقيم في منزلنا بمصر في غالب الأوقات، فكنا نراه في الليل إما مصلياً وإما ماشياً في جوانب البيت وهو مفكر إلى طلوع الفجر، فإذا طلع الفجر صلى الصبح ثم اضطجع إلى صحوه.

وقال صاحب شرف الدين: وسمعت الشيخ شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي المالكي يقول: قام الشيخ تقي الدين أربعين سنة لا ينام الليل إلا أنه كان إذا صلى الصبح اضطجع على جنبه إلى حيث يضحى النهار. انتهى كلام ابن حجر.

وروى ابن عماد الحنبلي في شجرات الذهب أنه كان يقول^(٢): ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً إلا أعددت له جواباً بين يدي الله، كما نقل ذلك السبكي وقال: وكان يخاطب عامة الناس السلطان فما دونه بقوله (يا إنسان) وإن كان المخاطب فقيهاً كبيراً قال (يا فقيه) وتلك الكلمة لا يسمح بها إلا لابن الرفعة ونحوه. وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي (يا إمام) ويخصه بها.

ومن شدة تقواه أنه كان شديد التحرز عن النجاسات متشدداً في ذلك، حتى اتهم بالوسواس بسبب ذلك، وقد حكى زوجة أبيه أم أخيه الشيخ تاج الدين بنت التيفاشي قالت^(٣): بنى عليّ والده، والشيخ تقي الدين ابن عشر سنين فرأيته ومعه هاون وهو يغسله مرات زمناً طويلاً فقلت لأبيه: ما هذا الصغير يفعل؟ فقال

(١) «الدرر الكامنة»: ج٤ ص ٢١٣.

(٢) النجيبى: «مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ١٧.

(٣) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧١.

له: يا محمد أي شيء تعمل؟ فقال: أريد أن أركب حبراً وأنا أغسل هذا الهاون، وهذا غاية في التطهير والبعد عن النجاسة، وسر ذلك شدة التقوى، الأمر الذي جعل الوسواس يلازمه طيلة حياته، قال تلميذه النجيب: وقد التزم التشديد والتضييق على نفسه في العبادات وبالغ في ذلك حتى ربما أفضى به الأمر إلى وسواس يعذّبه في خاصة نفسه، لا يفتي به الناس، فتلحقه منه مشقة عظيمة^(١).

ومن تقواه أنه لم يكن يحدث بكل ما سمع بل ينتقي منه ما يحدث به ويضرب عن الباقي تشديداً منه في ذلك، وكذلك أيضاً لا يجيز كل ما سمع، بل يستثني فيقول: ما حدثت به من مسموعاتي.

وروى الصفدي والذهبي وابن حجر^(٢) عن الحافظ قطب الدين الحلبي أنه أتاه بجزء سمعه من ابن رواج والطبقة بخطه فقال حتى أنظر فيه، ثم عاد إليه فقال الشيخ تقي الدين: هو خطي ولكن ما أحقق سماعي لها ولا أذكره. وكان أبعد ما يكون عن العبث ودروب اللهو، فقد ذكر الأدفوي^(٣) أنه لعب مرة الشطرنج مع زوج أخته تقي الدين بن ضياء الدين، فلما حان وقت العشاء قاما فصلياً، ثم قال ابن دقيق العيد لصهره نعود إليها - أي الشطرنج - فقال له صهره إن عادت العقرب عدنا إليها، فلم يلعبها بعد مدى الحياة، وهذا يدل على أنه كان يتصح وينصاع لقول الخير، وذلك من التقوى.

ومما يدل على تقواه أيضاً وتمسكه بالحق وبأحكام الدين ومحافظة عليها ما ذكرته من آثاره في القضاء، التي ينبغي أن تكون نبراس لكل قاض مسلم.

(١) النجيب: «مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ١٧.

(٢) انظر «الوافي» للصفدي ج ٤ ص ١٩٤، «تذكرة الحفاظ» للذهبي ج ٤ ص ١٤٨٣،

و«الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢١١، «الطالع السعيد» ص ٢١١.

(٣) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧٨.

وهو القائل: (١)

قالوا فلان عالم فاضل فأكرموه مثل ما يرتضى
فقلت لما لم يكن ذا تقى تعارض المانع والمقتضى

٢ - أمثلة على عزة نفسه :

كان من أساتذته في العربية شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي
فجلس مرة إلى مجلسه فأخذ عنه العربية، فسأل التلاميذ عن شيء في النحو
فسكت من في المجلس، فقال شرف الدين المرسي: أراني أتكلم مع حمير،
فلم يعد ابن دقيق العيد إلى مجلسه بعد أن سمع منه ذلك (٢).

وبسبب عزة نفسه ومحافظته على ماء وجهه وعدم وقوفه على أعتاب
السلطين لم يصل إلى منصب قاضي القضاة مع شهرته وتقدمه في العلم على
جميع أقرانه إلا في أخريات حياته، وبعد أن بلغ السبعين من عمره. وتولى ذلك
مكرهاً، ومع ذلك كان أثناء توليته القضاء إذا سمع ما يكره عزل نفسه ثم يسترضى
فيعود.

ولما عزل نفسه في بعض المرات ثم طلب ليولى، قام السلطان الملك
المنصور لاجين له واقفاً لما أقبل، فصار يمشي قليلاً قليلاً وهم يقولون له:
السلطان واقف! فيقول إديني بأمشي!! وجلس معه على الجوخ حتى لا يجلس
دونه، وقبل السلطان يده، فقال ابن دقيق العيد تنتفع بهذا. قال الأدفوي (٣) حكاة

(١) ديوانه ص ١٧٨، و«الوافي» ج ٤ ص ١٩٩.

(٢) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٨٢.

(٣) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٨٢، وانظر «الدرر الكامنة» في مسألة نزول السلطان

له عن سريره وتقيله ليد ج ٤ ص ٢١٢.

جماعة منهم الشيخ شمس الدين بن عدلان ممن حضر المجلس، والقاضي مجد الدين ابن الخشاب .

٣ - أمثلة على كرمه :

قال الذهبي ، وابن حجر والصفدي^(١) عنه أنه كان كثير الشفقة على المشتغلين - أي بالعلم - كثير البر لهم . ونقل الأذفوي^(٢) كثيراً من الحوادث التي تدل على كرمه ، من ذلك قال أخبرنا الشيخ علاء الدين القونوي رحمه الله تعالى أنه كان يعطيه في كثير من الأوقات الدراهم والذهب ، وحكى الشيخ نجم الدين بن عقيل الباسلي أنه قدم في الجفل فحضر عنده وتكلم ، فأرسل إليه مائتي درهم ثم ولاه النيابة بمصر ، وقال سمعت كلاً من الشيخين العالمين شمس الدين محمد بن عدلان ، وشمس الدين محمد بن القماح ، يقولان : سمعناه يقول : (ضابط ما يطلب مني أنه يجوز شرعاً ، ثم لا أبخل) . ثم قال إنه كان في أكثر وقته - مع كرمه هذا - في فاقة ، حتى إن الفاقة لازمته بعد ولايته قضاء القضاة . حكى الشيخ تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوي قال حضرت عنده ليلة وهو يطلب شمعة ، فلم يجد معه ثمنها ، فقال لأولاده : فيكم من معه درهم ، فخشيت أن ينكر علي ، فإنه كان آنذاك قاضي القضاة ، فكرر الكلام فقلت : معي درهم فقال ما سكوتك؟ وكان الشيخ تاج الدين تلميذه ، وتلميذ أبيه ، وابن صاحبه . وحصل له مرة ضرورة فسافر إلى الصعيد ، وتوجه إلى أستاذه بهاء الدين هبة الله بن عبد الله ، فأعطاه بهاء الدين دراهم وكتباً . وحكى القاضي شهاب الدين بن الكويك التاجر الكارمي رحمه الله قال اجتمعت به مرة فرأيت في ضرورة ، فقلت : يا سيدنا ما تكتب ورقة

(١) انظر «تذكرة الحفاظ» ج٤ ص ١٤٨٣ ، و«الوافي» ج٤ ص ١٩٤ ، و«الدرر الكامنة»

ج٤ ص ٢١١ .

(٢) الأذفوي : «الطالع السعيد» ص ٥٧٦ - ٥٩٦ .

لصاحب اليمن، اكتبها وأنا أقضي فيها الشغل، فكتب ورقة لطيفه فيها هذه الأبيات:

تجادل أرباب الفضائل إذ رأوا بضاعتهم موكسة الحظ في الثمن
فقالوا عرضناها فلم نلف طالباً ولا من له في مثلها نظر حسن
ولم يبق إلا رفضها وإطراحها فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن
وأرسلها إليه، فأرسل إليه مائتي درهم، واستمر يرسلها كل سنة إلى أن مات
يعني صاحب اليمن -.

وقال مرة يشكو من الفقر^(١):

لعمري، لقد قاسيت بالفقر شدة وقعت بها في حيرة وشتات
فإن بحث بالشكوى هتكت مروثتي وإن لم أبح، بالصبر خفت مماتي
وأعظم به من نازل بملمة يزيل حياتي أو يزيل حياتي

وقال أيضاً^(٢) يشكو الفقر ويذم حالة رجال عصره:

قد جرحتنا يد أيامنا وليس غير الله من آس
فلا ترج الخلق في حاجة ليسوا بأهل لسوى الياس
ولا تزد شكوى إليهم فلا معنى لشكواك إلى قاس
ولا تقس بالعقل أفعالهم ما مذهب القوم بمنقاس
فإن تخالط منهم معشراً هويت في الدين على الراس
ياكل بعض لحم بعض ولا يحسب في الغيبة من باس
لا ورع في الدين يحميهم عنها ولا حشمة جلاس

(١) أحمد أحمد بدوي: «مجلة الرسالة» ٩١١/١٧.

(٢) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٨٩-٥٩١.

لا يعدم الآتي إلى بابهم من ذلة الكلب سوى الخاس
فاهرب من الناس إلى ربهم لا خير في الخلطة بالناس
٤ - أمثلة على حلمه وتسامحه :

لقد نقل الأدقوي كثيراً من الأمثلة التي تدل على حلمه وتسامحه وعفوه
عمن أساء إليه فقال : أخبرني برهان الدين المصري الحنفي الطيب وكان قد
استوطن قوص سنين قال^(١) : كنت أباشر وفقاً فأخذه مني شمس الدين محمد بن
أخي الشيخ وولاه لآخر فعز علي ، ونظمت أبياتاً في الشيخ فبلغته ، فأنا أمشي مرة
خلفه ، وإذا به قد التفت إلي وقال : يا فقيه بلغني أنك هجوتني ؟ فسكت زماناً فقال
أنشدني وألح علي فأنشدته :

وَلَيْتَ فَوَلَّى الزُّهْدُ عَنْكَ بِأَسْرِهِ وِإِن لَنَا غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ تَظْهَرُ
رَكَنْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَعَاشَرْتَ أَهْلَهَا وَلَوْ كَانَ عَنِ جَبْرِ لَقَدْ كُنْتَ تُعَدَّرُ

فسكت زماناً وقال : ما حملك على هذا؟ فقلت أنا رجل فقير وكنت أباشر
وفقاً أخذه مني فلان ، فقال ما علمت بهذا ، أنت على حالك فباشرت الوقف مدة ،
وخطر لي الحج ، فجئت إليه أستاذنه ، فدخلت خلفه فالتفت إلي وقال : أمعك
هجو آخر؟ فقلت لا ولكن أريد الحج ، وجئت أستاذن سيدي ، فقال : مع السلامة
ما نغير عليك .

وقال عبد اللطيف بن القفطي هجوته مرة فبلغه فلقيته بالكاملية فقال بلغني
أنك هجوتني أنشدني فأنشدته بليقة أولها :

قَاضِيَ الْقَضَاةَ عَزَلَ نَفْسَهُ لَمَّا ظَهَرَ لِلنَّاسِ نَحْسَهُ
... إلى آخرها ، فقال هجوت جيداً!!

(١) الأدقوي : «الطالع السعيد» ص ٥٨٥ - ٥٨٧ .

وحكى القاضي سراج الدي يونس الأرمتمي قاضي قوص قال جئت إليه مرة وأردت الدخول فمغنني الحاجب، وجاء الجلال العلوجي فأدخله، وغيره، فتألمت وأخذت ورقة وكتبت فيها :

قل لللقى الذي رعيتَه راضون عن علمه وعن عمله
انظر إلى بابك (١).... يلوح من خلفه
باطنه رحمة وظاهره يأتي إليك العذاب من قبله

ثم دخلت، وجعلت الورقة في الدواة وظننت أنه ما رأيي وقمت، فقال: اجلس، ما في هذه الورقة؟ فقلت يقرأها سيدنا، فقال اقرأها أنت، فكررت عليه وهو يرد علي، فقرأتها فقال: ما حملك على هذا؟ فحكيت له فقال: هل وقف عليها أحد، فقلت لا، فقال قطعها.

ومن مشهور حكايته في ذلك قضية قطب الدين بن الشامية، وأنه كلمه بحضرة الناس كلاماً تألم منه، وقام من المجلس فظن الناس أنه يقابله فلم يفعل.

وكان قاضي القضاة الشيخ تقي الدين بن بنت الأعز عدواً للشيخ، ويحقد عليه، ومع ذلك أنقذه وخلصه من ضرب عنقه، فقد روى الشيخ فتح الدين بن سيد الناس أن الوزير شمس الدين بن السلعوسي لما عمل على ابن بنت الأعز وعزله وسعى في عمل محاضر بكفره، وأخذ خط الجماعة على المحاضر، ولم يبق إلا خط ابن دقيق العيد، أرسل إليه المحاضر مع نقباء وقالوا: يا مولانا الساعة تدع خطك على هذه المحاضر، وأخذ يتأملها واحداً بعد واحد، والنقباء يتواتر ورودهم بالحث والطلب والازعاج، وأن الوزير في انتظار ذلك، والسلطان قد حث بالطلب، وهو لا ينزعج، وكلما فرغ محضراً دفعه إلى آخر فقال: ما أكتب

(١) بياض في «الطالع السعيد» وقال محققه بياض في الأصول وكذا في «الوافي».

فيها شيئاً، قال الشيخ فتح الدين قلت له يا سيدي لأجل السلطان والوزير فقال :
أنا ما أدخل في إراقة دم مسلم قال فقلت له : كنت تكتب خطك بذلك وبما
يخلص فيه فقال : يا فقيه ، ما عقلي عقلك ، هم ما يدخلون إلى السلطان ويقولون
كتب فلان يخالف خطوط الباقيين ، وإنما يقولون قد كتب الجماعة وهذا خط ابن
دقيق العيد ، فأكون أنا السبب الأقوى في قتله ، قال فأبطل إبطاله سعيهم وأطفأ
من شواظ نارهم .

٥ - أمثلة على إنصافه :

حكى الشيخ تاج الدين الدشنوي قال : خلوت به مرة فقال يا فقيه فزت
برؤية الشيخ زكي الدين عبد العظيم - المنذري - فقلت وبرؤيتك ، فكرر الكلام
وكررت الجواب ، فقال : كان الشيخ زكي الدين أدين مني ، ثم سكت ساعة وقال
غير أنني أعلم منه .

وعدم موافقته على هدم كنائس النصارى إلا بيينة - كما وضحت ذلك
سابقاً - يدل على منتهى الانصاف والعدل حتى مع من يخالفه في عقيدته ودينه .
وقال الحافظ ابن كثير^(١) . إن ابن دقيق العيد اجتمع بالشيخ تقي الدين ابن تيمية
فلما رأى تلك العلوم منه قال ابن دقيق العيد ما أظن بقي يخلق مثلك .
وقال الأدفوي^(٢) وكان يحاسب نفسه على الكلام ويأخذ عليها بالمام .

(١) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج٤- ص ٢٧ .

(٢) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٩٦ .

المبحث الثاني

تصوفه

كان رحمه الله متصوفاً، سالكاً طريق العقل والحق والهداية فيه، مطبقاً لروح الشريعة ونصوصها، متخلقاً بآدابها بالظاهر والباطن، مؤمناً بأن التصوف عمل سلوكي وأخلاقي ينبع من أصول الإسلام، فكان يسلك في تصوفه التصوف الحق الذي قوامه: الزهد في الدنيا، ومراقبة الله، وعدم الغفلة عن ذكر الله عز شأنه.

فلم يكن رحمه الله من فريق المتصوفة النظريين، الذين اعتنقوا مذاهب ونظريات هي إلى الفلسفة أقرب منها إلى الدين، ولم يذكر أنه أسند إليه مشيخة إحدى الطرق الصوفية، كما أنه لم تسند إليه إحدى الزوايا أو الخوانق.

ومما يدل على صدق تصوفه، وأنه كان من العاملين ولم يكن من النظريين،

قوله^(١):

الجسمُ يذِيه حَقُوقُ الخِدمَةِ وَالقَلْبُ غِذَابُهُ علُوُّ الهِمَّةِ
والعمرُ بذلِكَ ينقضي في تعبٍ والراحة ماتت فعليةا الرحمة

وقوله الذي نقلناه عنه: «ما تكلمت بكلمة ولا فعلت فعلاً إلا أعددت له

جواباً بين يدي الله».

بل إن أوضح دليل على صحة تصوفه سيرته العطرة، وأخلاقه الفاضلة التي

ذكرنا قسماً منها.

(١) ديوانه ص ١٥٧.

ومما يدل على صفاء تصوفه أيضاً وأتباعه منطق العقل فيه، ما ذكره الأدفوي والإسنوي والسبكي^(١) وغيرهم، إنه لما جاء الخبز بورود التتار إلى الشام في سنة (٦٨٠هـ) ورد المرسوم من الملك المنصور قلاوون وهو بالشام أن يجمع أهل العلم بمصر لقراءة البخاري والدعاء عقبه، فقرؤوه إلى أن بقي شيء منه، فأخروا ما بقي إلا أن يتموه في يوم الجمعة، فلما كان يوم الجمعة رأوا ابن دقيق العيد في الجامع، فسلموا عليه، فقال ما فعلتم ببخاريكم، قالوا بقي ميعاد أخرناه، لنختمه اليوم. فقال: انفصل الحال من أمس العصر، وبات المسلمون على كذا... فقالوا نخبر عنك؟ فقال: نعم، فجاء الخبز بعد أيام بذلك، وكان النصر فيه للمسلمين، فقوله ما فعلتم ببخاريكم يريد أن يبين لهم أن النصر قد تم قبل الانتهاء منه، وإنه إنما تم بأمر الله بإعداده من قوة، ومن رباط الخيل، ثم بالتوكل عليه، وليس منه قراءة البخاري ونحوه.

وقد أنكر على ابن العربي آراءه في التصوف وحكم بكفره^(٢). كما وأنكر على كل من حاد عن العقل في تصرفاته وأحكامه من المتصوفة فقال^(٣):

مَنْ عَذِيرِي مِنْ مَعْشَرٍ هَجَرُوا الْعَقْلَ لَ وَحَادُوا عَنْ طَرَقِهِ الْمُسْتَقِيمَةَ
لَا يَرُونَ الْإِنْسَانَ قَدْ نَالَ حِظًّا مِنْ صَالِحٍ حَتَّى يَكُونَ بِهِيمَةَ

فهو في هذين البيتين ينكر على بعض المتصوفة الذين يخرجون في بعض تصرفاتهم عن حكم العقل والدين، ويطلبون من مريديهم إطاعتهم في ذلك إطاعة عمياء، وعدم مناقشتهم فيما يصدر منهم من أفعال أو أقوال أو أوامر.

(١) «الطالع السعيد ص ٥٧٧ - ٥٧٨»، «طبقات الشافعية» للإسنوي ج ٢ ص ٢٣١،

و«طبقات الشافعية» للسبكي ج ٦ ص ٤.

(٢) عبد المتعال الصعيدي: «المجددون في الإسلام» ص ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٠.

وكان رحمه الله له نصيب مما ينسب إلى الصالحين من الكرامات وما يعزى إليهم من المكاشفات ، من ذلك ما ذكرناه من قضية التتار وأخباره عن انتهاء الأمر في اليوم الثاني من وقوعه، وقال الأدفوي بعد أن ساق الحكاية قال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس وأخبرني بذلك صاحبنا الفقيه كمال الدين محمد بن عبد القادر الهمداني ، وذكر أن ذلك كان سنة (٦٨٠هـ) عندما كانت التتار في البلاد، وساق الحكاية زاد فيها أن كمال الدين قال للشيخ : هذا بيقين؟ وأنه قال أو يقال هذا بغير يقين . وقال فقلت له أعن معانيه أو بخبر فقال : عن خبر ولقد كنا بقوص نخبر بأخبارهم في وقعة (عين جالوت) منزلة منزلة في قدومهم وذهابهم .

وقال الأدفوي^(١) أخبرني الشيخ المحدث شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الزبيدي قال: لما خرج الأمير علم الدين الدويداري مسافراً توجه إليه الجماعة مودعين، منهم أبو عمر بن سيد الناس وأمثاله ودعوا له، وقالوا: نراك في خير إن شاء الله تعالى وعافية .

فقال: هذا الشيخ بتاعكم ابن دقيق العيد يقول إني ما أرجع، فقالوا يكذبون عليه، فلما حضروا إلى الشيخ أخبروه قال: نعم ما بقي يرجع، فلم يرجع .

وكان رحمه الله مستجاب الدعوة حكى الشيخ شمس الدين بن عدلان قال: قلت له يوماً إن محبتي لسيدي ليست بسبب ولايته، وإنما لأمر آخر، وأشرت إلى بركته، فقال اسمع شيئاً تنتفع به، كان تقي الدين بن تاج الدين - يعني ابن بنت الأعز - منع أخي تاج الدين بعض حقه وقال: خل أخاك يتوجه في، وأشار إلى أنه تألم من ذلك، قال وحصل له إجحاف فاشفقت عليه، فتوجهت فيمن أجحف به، فسمعت الخطاب أنه يهلك، وقد أشار السبكي^(٢) إليها وإلى غيرها من الحوادث .

(١) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧٩ .

(٢) انظر السبكي: «الطبقات» ج ٦ ص ٤ .

المبحث الثالث

ثناء العلماء عليه

أجمع العلماء الثقات ممن أرخوا له على وصفه بالنزاهة والتقوى والتقدم على جميع معاصريه في العلوم الدينية، وأنه كان من العلماء العاملين، الأمناء على دين الله، الداعين لتطبيقه بلسان صدق وجنان ثابت، لا تزعمهم شهوة نفس ولا نشوة سلطان، ولا يخافون في سبيل الحق ملكاً ولا جباراً. وأنه كان من أساطين الفكر وأئمة الدين، وممن يتغنون بعلمهم وجه الله والدار الآخرة.

قال السبكي^(١): الشيخ الإمام شيخ الإسلام الحافظ الزاهد الورع الناسك، المجتهد المطلق، ذو الخبرة التامة بعلوم الشريعة، الجامع بين العلم والدين، السالك سبيل السادة الأقدمين، أكمل المتأخرين، وبحر العلم الذي لا تكدره الدلاء، ومعدن الفضل الذي لقا صده منه ما يشاء، وإمام المتأخرين كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يؤدونها مع وقار عليه سيما الجلال، وهيبته لا يقوم الضرغام عندها للنزال. . . ثم قال ولم ندركك أحداً من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمئة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي ﷺ وأنه أستاذ زمانه علماً وديناً.

وقال الأدفوي^(٢): (أبو الفتح تقي الدين ذاتاً ونعتاً والسالك الطريق التي لا عوج فيها ولا أمتاً، والمحرز من صفات الفضل فنوناً مختلفة وأنواعاً شتى،

(١) السبكي: «الطبقات» ج ٦ ص ١ - ٢.

(٢) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٦٩ - ٥٧٠.

والمتحلي بالحالتين الحسينيين صمتاً وسمتاً؛ الشيخ الإمام علامة العلماء الأعلام . . . إلى أن قال: تمسك من التقوى بالسبب الأقوى وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التي لا يطيقها غيره من أهل زمانه ولا عليها يقوى مع ترك المباهاة بما عليه من الفضائل والسلامة من الدعوى، وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة، حتى قال بعض الفضلاء من مائة سنة: ما رأى الناس مثله، حاز علماً وديناً ونزاهة فعظم قدراً ووجاهة، ومن غرس العلم والتقوى جبي النباهة، ذاك الذي حاز كل فضل جزيل وحوى كل فعل جميل، والذي يقال فيه أن الزمان بمثله لبخيل، وبالجملة فالاستغراق في مناقبه يخرج عن الإمكان، ويحوج إلى توالي الأزمان، وكتب له بقية المجتهدين، وقرأ بين يديه فأقر عليه، ولا شك أنه من أهل الاجتهاد ولا ينازع في ذلك إلا من هو من أهل العناد، ومن تأمل كلامه علم أنه أكثر تحقيقاً وأمتن وأعلم من بعض المجتهدين فيما تقدم وأتقن). انتهى كلام الأذفوي . . .

وقال تلميذه فتح الدين محمد اليعمري^(١): (لم أر مثله فيمن رأيت، ولا حملت من أجل منه فيما رأيت ورويت، وكان للعلوم جامعاً وفي فنونها بارعاً).
وبعد أن ذكر ما اقتص به من علوم قال: (ولم يزل حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه وقف نفسه على العلوم وقصرها، ولو يشاء العاد أن يعد كلماته لحصرها، ومع ذلك فله بالتجريد تخلق، وبكرامات الصالحين تحقق . . . الخ).

وقال الذهبي^(٢): (وكان من أذكى زمانه واسع العلم كثير الكتب، مديماً للسهر، مكباً على الاشتغال، ساكناً وقوراً ورعاً قل أن ترى العين مثله).

وقال تلميذه النجيبى مانصه^(٣): (أحد أئمة المسلمين المجمع على إمامته

(١) انظر «طبقات الشافعية» للسبكي ج ٦ ص ٢ - ٣، و«الطالع السعيد» ص ٥٦٩.

(٢) الذهبي: «تذكرة الحفاظ» ج ٤ ص ١٤٨٢.

(٣) القاسم بن محمد النجيبى: «مستفاد الرحلة والاغتراب» ص ١٦ - ١٧.

وتقدمه في المعارف كلها. . . إلى أن قال: وقد اتفقت الألسنة على الثناء عليه والمدح له، والناس أكيس أن يمدحوا رجلاً حتى يروا عنه آثاراً حسناً، وأجاب الله فيه دعاء أبيه الإمام مجد الدين أبي الحسن رحمه الله تعالى كما أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام، الفاضل بهاء الدين أبو القاسم من عبد الله بن سيد الكل العذري قال: أخبرني شياخي الإمام العلامة مجد الدين قدس الله روحه وبرّد ضريحه، حين حدثنا بإسناد مسلسل إلى النبي ﷺ قال: (الدعاء عند الملتزم لا يرد) قال الراوي عن النبي ﷺ، دعوت فاستجيب لي، وقال الراوي عنه دعوت فاستجيب لي، وكذلك كل واحد يقول دعوت فاستجيب لي، إلى أن انتهى إلى الشيخ يعني مجد الدين المذكور فقال: دعوت فاستجيب لي، قال فسألناه ما الذي دعا به قال: ولد لي هذا الولد يعني سيدنا تقي الدين هو شيخنا أبو الفتح المذكور في طريق مكة أو قال: ساحل ينبع فسألت الله تعالى، يعني في الملتزم، أن يجعله فقيهاً عالماً، فكان كذلك.

ثم قال النجيبى لم أر في كثير ممن لقيت من يقاربه في معارفه، ولا رأيت أجمع لفنون العلم منه، وما وصف لي رجل إلا وجدته دون ما قيل لي، إلا تقي الدين هذا، نفع الله به وكان كما قال الشاعر:

وكانَ مِنَ العُلومِ بِحَيْثُ يُقضى لَهُ في كُلِّ عِلْمٍ بالجميع

وجمع مع ذلك كثرة الهيبة، ووقار الشيبة، وحسن الهدى والسمت والإقبال على الكتب والتصنيف. . . مع الدين المتين، والورع الفائق وحتى بلغ بذلك الغاية انتهى كلام النجيبى.

وقال تلميذه ابن رشيد^(١): الإمام الأوحى، العالم العلامة، المجتهد، ومفتي الإسلام، ذو التصانيف الجليلة والمباحث الدقيقة، مدرس المذهبين

(١) ابن رشيد: «رحلة ابن رشيد» ج٣ ص ٥٨/ب.

المالكي والشافعي، فقيه العلماء الأعلام، محمد بن الإمام الأوحى مجد الدين أبي الحسن علي بن وهب القشيري المشتهر بابن دقيق العيد، أمتع الله ببقائه الإسلام، وثبت به قواعد الأحكام.

وقال الإسني^(١): لم يشتهر أحد في زمانه اشتهاه، ولا حاز قوته على الاستنباط واقتداره، شيخ الدهر بلا نزاع، ووجه العصر بغير دفاع، ذو المناقب المشهورة، والكرامات الماثورة، تمسك بالسبب الأقوى من التقوى، وقام من الاجتهاد بعبء لا يطيق أحد حمله ولا يقوى، الجامع للعلوم الشرعية، والعقلية، واللغوية، حافظ الوقت خاتم المجتهدين.

وقال صلاح الدين الصفدي^(٢): كان إماماً متقناً محدثاً مجوداً فقيهاً مدققاً أصولياً، أديباً نحوياً شاعراً ذكياً غواصاً على المعاني، مجتهداً، وافر العقل كثير السكينة بخيلاً بالكلام تام الورع شديد التدين مديم السهر مكسباً على المطالعة والجمع، قل إن ترى العيون مثله، وكان سمحاً جواداً عديم الدعاوى، له اليد الطولى في الفروع والأصول وبصيراً بعلل المنقول والمعقول.

وقال جلال الدين السيوطي^(٣): حقق العلوم ووصل إلى درجة الاجتهاد وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه وشدت إليه الرحال.

وقال صاحب مرآة الجنان^(٤): كان ابن دقيق العيد رأساً في العلم والعمل، عديم النظير، أجل علماء وقته وأكبرهم قدراً، وأكثرهم ديناً وعلماً وورعاً واجتهاداً في تحصيل العلم ونشره، والمداومة عليه، في ليلة ونهاره، مع كبر سنه وشغله

(١) الإسني: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢٢٧.

(٢) صلاح الدين الصفدي: «الوافي بالوفيات» ج٤ ص ١٧٤١.

(٣) السيوطي: «حسن المحاضرة» ص ١٢٨.

(٤) عبد الله اليافعي: «مرآة الجنان» ج٤ ص ٢٣٦.

بالحكم إلى أن قال: وبرع في علوم كثيرة ولا سيما في علم الحديث، فاق فيه على أقرانه وبرز على أهل زمانه، ووصل إليه الطلبة من الآفاق، ووقع على علمه وزهده وورعه الاتفاق رحمه الله تعالى . . . ثم قال وقد جعله بعضهم مجدداً لدين الأمة على رأس المائة السابعة.

وقال ابن حجر^(١): اشتهر اسمه في حياة مشايخه وشاع ذكره، وتخرج به أئمة، وكان لا يسلك المراء في بحثه، بل يتكلم كلمات يسيره بسكينته ولا يراجع، ونقل ثناء تلاميذه عليه كقطب الدين الحلبي وابن الزملكاني وقطب الدين الزنباطي وغيرهم.

وقال ابن كثير^(٢) انتهت إليه رياسة العلم في زمانه وفاق أقرانه ورحل إليه الطلبة، ودرس في أماكن كثيرة . . . إلى أن قال: وكان قوياً، قليل الكلام غزير الفوائد، كثير العلوم، في ديانته ونزاهة.

وقال الشوكاني^(٣): وتبحر في جميع العلوم الشرعية، وفاق الأقران، وخضع له أكابر الزمان، وطار صيته، واشتهر ذكره، وأخذ عنه الطلبة، وصنف التصانيف الفاتحة.

وأخيراً أختتم هذه الأقوال بقول شيخه وأستاذه سلطان العلماء العز بن عبد السلام حيث قال^(٤): الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيها ابن دقيق العيد في قوص، وابن المنير في الإسكندرية.

(١) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج٤ ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج٤ ص ٢٧.

(٣) الشوكاني: «البدر الطالع» ص ٢٢٩.

(٤) السيوطي: «حسن المحاضرة» ج١ ص ١٢٨ - ١٢٩.

وهذه الشهادة له من أستاذه عندما كان في قوص قبل أن ينتقل إلى القاهرة، وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره، وقبل أن تظهر مؤلفاته وتحقيقاته وكفى له بهذه الشهادة فخراً.

من هذا نرى أن العلماء متفقون على سعة علمه وتقواه، وأنه كان أستاذاً عصره علماً وديناً وورعاً، بل إنهم يكادون أن يكونوا مجمعين على أنه هو العالم المبعوث على رأس السبعمئة المشار إليه في الحديث المصطفوي، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) رواه أبو داود.

بل ذكر السبكي كما نقلنا عنه تم الاتفاق على ذلك.

ويرجع سبب اتفاقهم على ذلك في اعتقادي إلى ما يلي:

١ - سعة علمه، وتحريه، ونقده، وتدقيقه، وقدرته على الاستنباط والاستدلال، فقد كان كما قال أحمد بدوي: لا يقبل الشيء من غير أن يعمل فيه فكره فيقبله أو يرفضه.

٢ - تقواه وورعه، وجرأته في الحق، وعدم تعلقه بالدنيا وزخرفها، وزهده بالمناصب الدنيوية، وبعده عن النفاق للحكام والسلاطين، والتقرب إليهم على حساب الدين.

٣ - عدم التعصب المذهبي عنده، ودعوته إلى اتباع النص إن ثبت وصح.

وفاته

بعد أن أنهى ابن دقيق العيد حياته العلمية والعملية، وأدى رسالة العلم التي حملها بأمانة وصدق، توفي رحمه الله يوم الجمعة الحادي عشر لصفر عام اثنين وسبعمائة هجرية، ولم يذكر أحد ممن كتبوا عنه الظروف والملابسات التي اكتتفت وفاته، وإنما اختصروا على ذكر الزمان الذي مات فيه، والمكان الذي دفن فيه، ووصف جنازته وراثته.

قال الإسنوي^(١): توفي رحمه الله في حادي عشر صفر سنة اثنين وسبعمائة في بستان ظاهر القاهرة على يمين السالك من باب الخلق إلى باب اللوق، ووقف على المدرسة الشريفة بغيط العدة^(٢) وهو الآن حكر منازل، وبقيت المنظره على حالها.

وقال الأدفوي^(٣): توفي يوم الجمعة حادي عشر صفر عام اثنين وسبعمائة، ودفن يوم السبت بسفح المقطم، وكان ذلك يوماً مشهوداً عزيزاً مثله في الوجود، سارع الناس إليه ووقف جيش ينتظر الصلاة عليه، رحمه الله تعالى، وهو ممن تألمت على فوات رؤيته والتحلي بفوائده وبركته . . . ثم قال ورثاه جماعة من الفضلاء والأدباء بالقاهرة وقوص، منهم شعيب بن أبي شعيب، والأمير محمد مجد الدين ابن اللمطي، وشرف الدين النصيبي.

(١) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج٢ ص ٢٢٠.

(٢) أغلب الظن أنه في المكان الذي أقيم فيه مسجد سمي باسمه وهو يقع الآن على شمال السالك من باب الخلق إلى باب اللوق قرب دار الكتب المصرية.

(٣) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٩٩.

ولم يذكر أي خلاف بين المؤرخين في تاريخ وفاته أو مكانها .

وقد رثاه الشريف محمد بن محمد القوسي بقصيده طويلة ذكرها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة أذكر منها هذه الأبيات (١).

سَيَطُولُ بَعْدَكَ فِي الطُّلُولِ وَقُوفِي أَرُوي الثَّرَى مِنْ مَدْمَعِ المَذْرُوفِ
أُمَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بِنِ وَهَبٍ دَعْوَةٌ مِنْ قَلْبِ مَسْجُونِ القُوَادِ أَسِيفِ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِيكَ حَتْفُكَ فِدْيَةٌ لَفُدَيْتَ مِنْ عُلَمَائِنَا بِأَلُوفِ
أَوْ كَانَ مِنْ حُمْرِ المَنَايَا مَانِعٌ مَنَعْتِكَ سُمْرُقَنَا وَبِيضِ سُيُوفِ
مَا كُنْتُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الدُّنْيَا إِذَا وُلَّتِ بِمَحْزُونٍ وَلَا مَأْسُوفِ
يَا طَالِبِي المَعْرُوفِ أَيْنَ مَسِيرُكُمْ مَاتَ الفَتَى المَعْرُوفُ بِالمَعْرُوفِ
مَا عَنَّفَ الجُلَسَاءَ قَطُّ وَنَفْسَهُ لَمْ يُخْلِهَا يَوْمًا مِنَ التَّعْنِيفِ
يَا مُرْشِدَ الفُتْيَا إِذَا مَا أَشْكَلَتْ طُرُقُ الصَّوَابِ وَمُنْجِدُ المَلْهُوفِ
لَمْ يُثْنِ عَزَمَكَ عَن مَوَاصِلَةِ العُلَا حَسَنَاءِ ذَاتِ قَلَائِدٍ وَشُنُوفِ
أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ فِي تُقَى وَعِبَادَةٍ وَإِفَادَةٍ لِلْعِلْمِ أَوْ تَصْنِيفِ

وكانت وفاته عن سبعة وسبعين عاماً، قضاهما في التعليم والتعلم، والتحصيل والإملاء والعبادة، وقضى منها سبع سنوات في القضاء، إلا أنه لم يترك التدريس أثناءها كما وضحت ذلك سابقاً.

عاش عفا الله عنه معظماً مبعجلاً ومات رحمه الله معززاً مكرماً، وقد أنجب من الأولاد الذكور عشرة، سماهم بأسماء الصحابة العشرة (٢) المبشرين بالجنة، عرف منهم بالعلم والفضل ابنه الشيخ محب الدين علي .

(١) جلال الدين السيوطي : «حسن المحاضرة» ج١ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) صلاح الدين الصفدي : «الوافي بالوفيات» ج٤ ص ١٩٤ .

الباب الثاني

علومه وأثره في الفقه

تمهيد

بعد أن عرفت بابن دقيق العيد بوجه عام، فتكلمت عن نسبه ومولده، وطلبه للعلم وتصديه للتدريس والقضاء، كما تكلمت عن أخلاقه، وثناء العلماء عليه، أريد هنا أن أتكلم عن علمه وفقهه.

لقد اتفق جميع من أرخ له على غزارة علمه، وسعة اطلاعه وتمكنه في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والعقلية.

قال الأذفوي^(١): يصف علومه: إن ذكر التفسير فمحمد فيه محمود المذهب، أو الحديث فالتشيري فيه صاحب الرقم المعلم والطرز المذهب، أو الفقه فأبو الفتح العزيز الإمام الذي إليه الاجتهاد ينسب، أو الأصول فأين ابن الخطيب من الخطيب؟ وهل يقرن المخطيء بالمصيب، أو الآداب فإن اقتضت قلت نابغة زمانه، وإن اختصرت قلت حبيب ثم قال: وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التي لا يطيقها غيره من أهل زمنه، ولا عليها يقوى، مع ترك المباهاة بما عليه من الفضائل والسلامة من الدعوى، وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة . . . ثم قال وفي تصانيفه من الفروع الغربية والوجوه والأقويل ما ليس في كثير من المبسوطات ولا يعرفه كثير من النقلة، ونقلت مرة لقاضي القضاة موفق

(١) الأذفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٦٨ - ٥٨١.

الدين الحنبلي رواية عن أحمد فقال ما تكاد تعرف في مذهبنا ولا رأيتها إلا في كتاب سماه، قلت رأيتها في كلام الشيخ تقي الدين .

بل روي أنه كان عالماً بالكيمياء أيضاً، قال صاحب مفتاح السعادة^(١):
حدثني من أثق به، ممن كان يتطلع على أحوال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله أنه كان مغرمًا بالكيمياء، وأنفق فيها مالاً وعمراً، ولكن أكثر ما امتاز به من العلوم وتقدم به على أقرانه علم الفقه، وعلم الحديث، وعلم اللغة .

وقبل بيان أثره بالفقه يحسن أن نتكلم عنه كأديب وشاعر ثم كمحدث، وذلك لأنه من شروط الفقيه العلم باللغة العربية، إذ بواسطتها يفهم معاني القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. كما أن العلم بالحديث شرط من شروط الفقيه، والعلم به يسبق العلم بالفقه، فناسب التحدث عنهما وتقديمهما قبل التحدث عن ابن دقيق العيد الفقيه .

(١) طاش زادة: «مفتاح السعادة» ج ١ ص ٢٤٣ .

الفصل الأول المبحث الأول الأدب والشعر

كان رحمه الله على إحاطة تامة ومعرفة صادقة باللغة العربية وفنونها، وبرز في النثر والشعر، وشهد له بذلك أهل اللغة والآداب ممن عاصروه، وممن ترجموا له من أهل العدالة والإنصاف.

قال محمود الكاتب^(١): المشهور له بالتقدم على غيره في الأدب في عصر ابن دقيق العيد: (ما رأيت أعرف منه بصناعة الأدب).

وقال الأدفوي^(٢): يصف نثرة شعره (إذا خطب أسهب في البلاغة وأطنب في البراعة، أو كتب فوحي الكلام ينزل على اليراعة)، كما قال عند التحدث عن أنواع علومه: إن ذكر التفسير فمحمد فيه محمود المذهب أو الأدب (إن اقتضت قلت نابغة زمانه وإن اقتضت قلت حبيب) فهو قد عده في طبقة الشعراء المجيدين في الجاهلية وبعد الإسلام، فهو عنده في رتبة النابغة الذبياني، أو في منزلة أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وكل منهما كان مقدماً على أقرانه مشهوراً له بالإبداع الشعري في زمانه.

(١) انظر «طبقات الشافعية» للسبكي ج ٦ ص ٣، و«الوافي بالوفيات» ج ٦ ص ١٩٥، وغيرهما. ومحمود الكاتب هو شهاب الدين أبو الشاء محمود بن سليمان - أو سليمان - الحنبلي الحلبي ثم الدمشقي كاتب السر وعلامة الأدب، المولود بحلب سنة ٦٤٤هـ والمتوفى بدمشق سنة ٧٢٥هـ «الطالع السعيد» الحاشية ص ٥٧٠.

(٢) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٦٨.

وقال السبكي (١) يصف أدبه بعد وصف هيئته ووقاره : (هذا مع ما أضيف إليه من أدب أزهي من الأزهار وألعب بالعقول).

وقال عنه الأديب الكاتب تلميذه فتح الدين بن سيد الناس (٢) : (وله مع ذلك بالأدب باع وساع وكرم طباع ، لم يخل بعضها من حسن انطباع).

وقال الأسنوي (٣) : وللشيخ رحمه الله خطب بليغة مشهورة ، أنشأها لما كان خطيباً بقوص . وله أيضاً شعر بليغ رقيق .

وقال الصفدي (٤) : وشعره في غاية الحسن في الانسجام والعدوية ، وصحة المقاصد وغوص المعاني ، وجزالة الألفاظ ، ولطف التركيب . وقال : قال لي الشيخ فتح الدين بن سيد الناس وكان به خصيصاً ، كان الشيخ تقي الدين ممتعاً إذا فتح له باب انقضت تلك الليلة في تلك المادة حتى في شعر المتأخرين والعصريين ، ثم قال : قال القاضي شهاب الدين محمود ، قال لي يوماً الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قول أبي الطيب :

لو صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لاعيا عيسى
في هذا شيء غير إساءة الأدب ففكرت ساعة ثم قلت : نعم كون الموت
لا يتفاوت إن كان بالسيف أو بغيره ، فالأحياء من الموت سبيل واحدة ، فقال
أحسن يا فقيه .

وقد عقب الصفدي علي هذا النقد الذي يدل على توفر ملكة النقد الأدبي

(١) «طبقات الشافعية» ج ٦ ص ٢ .

(٢) الأدفوي : «الطالع السعيد» ٥٧٧ .

(٣) الإسنوي : «طبقات الشافعية» ص ٢٣٠ .

(٤) صلاح الدين الصفدي : «الوافي بالوفيات» ص ١٩٥ .

لدى ابن دقيق العيد فقال: (وهذه المؤاخذة لا تصدر إلا من أديب كبير كالجاحظ أو غيره). وقال ابن حجر^(١): ومما يدل على تقدم الشيخ تقي الدين بالعلم في أن ذكي الدين عبد العظيم بن أبي الإصبع صاحب البديع ذكره في كتابه فقال ذكرت لابن دقيق العيد عشرة وجوه للمبالغة في آية^(٢) (أيود أحدكم أن يكون له جنة من نخيل وأعناب) الآية ثم قال اجتمع مع الشيخ مرة أخرى فذكر له الشيخ أنه استنبط منها أربعة وعشرين وجهاً من المبالغة، فسأله أن يكتبها له فكتبها بخطه وسمعتها منه، وقال بعد ذلك فاعترفت له بالفضل في ذلك، وقال ابن حجر بعد ذكر القصة تعليقاً عليها، وقد عاش ابن دقيق العيد بعد ابن أبي الإصبع زيادة على أربعين سنة. وهذا يعني أن الشيخ كان مبرزاً في اللغة في سن مبكرة. وكان رحمه الله يجيد الأدب بفنونه النثر والشعر، فنثره في غاية البلاغة والفصاحة شهد له بذلك من هو حجة في الحكم كما أسلفت.

مثال من نثره: كتب رسالة إلى البهنسي قاضي أخميم يذكره ويحذره وينصحه جاء فيها بعد البسملة^(٣):

﴿يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾^(٤).
هذه المكاتبة إلى فلان الدين، وفقه الله تعالى لقبول النصيحة، وآتاه لما يقربه إليه قصداً صالحاً ونيةً صحيحة، أصدرها إليه بعد حمد الله الذي يعلم

(١) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢١٣.

(٢) الآية: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ [البقرة: ٢٦٦].

(٣) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٩٧ - ٥٩٨.

(٤) التحريم: ٦.

خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور، تذكره أيام الله تعالى: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾^(١)، وتحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصيحة بحجزه من النار، فإني أخاف أن يتردى فيها فيجر من ولاء - والعياذ بالله - معه، والمقتضي لإصدارها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم عن القيام بما يجب للرب على المربوب، ومن أنهم بهذه الدار وهم عنها يزعجون، وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كثود وهم منها لا يتخلصون، ولا سيما القضاة الذين تحملوا الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهمم نحيفة، ووالله إن الأمر لعظيم، وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمناً ولا قراراً ولا راحة، اللهم إلا رجلاً نبذ الآخرة وراءه واتخذ إلهه هواه، وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه، فغاية مطلعه حب الجاه، والمنزلة في قلوب الناس، وتحسين الزي والملبس، والركبة والمجلس، غير مستشعر خسة حاله، ولا ركاكة مقصده، فهذا لا كلام معه، فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور، فاتق الله الذي يراك حين تقوم، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير مرحوم، وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمي وقد قال له قائل: يا ليتنا لم نُخلق، قال: قد وقعتم فاحتالوا.

فإن خفي عليك بعد هذا الخطر، وشغلتك الدنيا أن تقضي من معرفتها الوطر، فتأمل كلام النبوة: القضاة ثلاثة، وقول النبي ﷺ لبعض أصحابه مشفقاً عليه: «لا تأمرن على اثنين ولا تليّن مال يتيم»، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي

(١) الآية: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ [الحج: ٤٧].

العظيم ، هيهات جفَّ القلم ، ونفذ أمر الله فلا رادّ لما حكم ، ومن هنالك شَمَّ الناس من فم الصديق رائحة الكبد المشوية ، وقال الفاروق : ليت أم عمر لم تلده ، واستسلم عثمان وقال : من أغمد سيفه فهو حرٌّ ، والخزائن مملوءة بين يديه : من يشتري مني سيفي هذا؟ ولو وجدت ما اشتري به رداء ما بعته ، وقطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض ، وعلّق بعض السلف في بيته سوطاً يؤدب به نفسه إذا فتر .

أفترى ذلك سدى؟ ، أم وضح أن نحن المقربون وهم البعداء؟ . وهذا والله أحوال لا تأخذ من باب السَّلْم والإجارة والجنایات ، نعم كلها تُنال بالخضوع والخشوع ، وبأن نظماً ونجوع ، وتحمي عينيك الهجوع ، ومما يعينك على هذا الأمر الذي قد دعوتك إليه ، وتزوّدك في سفرك للعرض عليه ، أن تجعل لك وقتاً تعمره بالتذكر والتفكر ، وأياماً تجعلها لك معدّة لجلاء قلبك ، فإنه متى استحکم صداه صعب تلافیه ، وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه ، فاجعل أكبر همك الاستعداد للمعاد والتأهب لجواب الملك الجواد؛ فإنه يقول : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، ومهما وجدت من همتك قصوراً ، واستشعرت من نفسك عما بدا لها نفوراً ، فاجأر إليه وقف ببابه؛ فإنه لا يُعرض عمّن صدق ، ولا يعزّب عن علمه خفاء الضمائر؛ ألا يعلم من خلق؟

وهذه نصيحتي إليك وحجتي بين يدي الله - إن فرطت - عليك ، أسأل الله لي ولك قلباً واعياً ، ولساناً ذاكرًا ، ونفساً مطمئنة بمنّه وكرمه .

كما أن كتبه التي ألفها وما سيأتي في مقدمته لشرح مختصر ابن الحاجب . تشهد له بجوده الأسلوب ودقة التعبير ، هذا بالنسبة للنثر الفني .

أما بالنسبة للخطابة : فقد شهد له بالبراعة والإبداع الشاعر أبو الحسين الجزار وغيره ، فقد سمعه أبو الحسين الجزار وهو يخطب بقوص فتأثر به فقال

واصفاً لبلاغته، وفصاحته وقوة بيانه^(١):

يا سيد العلماء والأدباء وال
شنت أسماع الأنام بخطبه
أبكت عيون السامعين فصولها
وعجبت منها كيف حازت رقة
ستقول مصر إذا رأتك لغيرها
ويقول قوم إذا رأوك خطيهم
بلغاء والخطباء والحفاظ
كست المعاني رونق الألفاظ
فزكت على الخطباء والوعاظ
مع أنها في غاية الإغلاظ
ما الدهر إلا قسمة واحاظ
أنسيتنا قسماً بسوق عكاظ

قال السبكي وله ديوان خطب مفرد معروف كما ذكر ذلك غيره^(٢).

ويمكن أن نعتبر أول مقدمته التي كتبها على شرح مختصر بن الحاجب من خطبه، حيث جاء في مقدمتها^(٣)، (الحمد لله منزل الكتاب مفصل الخطاب وفتاح أبواب الصواب، ومانح أسباب الثواب، أحمدته وهبنا بره، بغير حساب، وأعبده وإليه المرجع والمآب، وأرجوه وأخافه، فيه الثواب والعقاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقدمات دلائلها مبينة الأسباب، ونتيجة اعتقادها جنة مفتحة الأبواب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله وقد طال زمن الفترة ونسيت الآداب، وبعد عهد النبوة فزال الحق وانجاب، فمنازل الهدى خراب، ومعاهده لا تعتاد ولا تنتاب، وللناس بالشهوات والشبهات إعجاب، حتى أفرد النظر بالدنيا وادعى تعدد الأرباب، فاختار الله محمداً في أشرف الأنساب وخيرة الأحساب نذيراً بين يدي العذاب، وبشيراً لمن أطاع الحق وأجاب، وأيده بمعجزات تدفع

(١) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٩٤.

(٢) السبكي: «طبقات الشافعية» ج ٦ ص ١٢، «الشجرة الزكية» ص ١٨٩، «مستفاد الرحلة والاغتراب» ص ٢٠.

(٣) السبكي: «طبقات الشافعية» ص ٢٣، ج ٩.

عارض الارتياب، وتكشف أنوار اليقين ليس دونها حجاب، وتدع القلوب مطمئنة لا ترتاع من جانب الشبهات ولا ترتاب، وصلى الله على سيدنا محمد صلاة وسلاماً يدخل فيها الآل والأصحاب . أما بعد فإن التصنيف . . . الخ .

وأما بالنسبة لشعره فهو يفيض بالأحاسيس والشعور وتسود ألفاظه السهولة والعدوئية مع الرصانة والتمتانة وجودة السبك وصدق التعبير. وقد سبق أن ذكرت بعض أشعاره .

وقد جمع السيد علي حسين صافي شعره في ديوان خاص في رسالته التي حصل فيها على شهادة الماجستير من جامعة القاهرة .

ومن أشهر المواضع التي طرقها في شعره مديح الرسول ﷺ، والحنين إلى الأرض المقدسة والزهد والحكمة والغزل أو النسيب .

نماذج من شعره في كل نوع منها:

أولاً: في مديح الرسول ﷺ، فقد نقل له السيد حسين علي حسين صافي ثلاث قصائد: الأولى وقد ذكرها الصفدي وابن حجر العسقلاني وابن تغري بردي وهي قصيدة طويلة مكونة من خمسين بيتاً وقد جاء فيها^(١):

يا سائراً نحوَ الحجازِ مُشمرًا
وتدَّرعِ الصبرَ الجميلَ ولا تكن
اقصدْ إلى حيثُ المكارمُ والندی
وإذا سهرتَ الليلَ في طلبِ العلا
إن كُلتَ النجبُ الركائبُ تارةً
وابعث لها سرَّ المدامِ فإنها
أجهدُ فدَيْتُكَ في المسيرِ وفي الشرى
في مطلبِ المجدِ الأثيلِ مُقصرًا
يلقاكَ وجههما مضيئاً مقمرًا
فحذارِ ثم حذارِ من خدعِ الكرى
فأعدْ لها ذكرَ الحبيبِ مُكرراً
بالذكرِ لا تنفكُ حتى تسكراً

(١) انظر «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٣٩ - ١٤٤ .

وإذا اختلفت طرق المسير وظل من أشكالها نظر البصير محيرا
 فالقصد حيث النور يشرق ساطعاً
 قف بالمنازل والمناهل من لدن
 وتوخ آثار النبي فضع بها
 وإذا رأيت مهابط الحي التي
 فاعلم بأنك ما رأيت شبيهها
 شرفاً لأمكنة تنزل بينها
 فتردد المحتار بين بعيدها
 ولقد أقول إذا الكواكب أشرقت
 لا تفخراً زهراً فإن محمداً
 أحيى الإله ببعثه سنن الهدى
 يا خاتم الرسل الكرام نداء من
 أنا ضيفك المدعو يوم معادنا ال

والقصيدة الثانية مكونة من خمسة وثلاثين بيتاً وقد جاء فيها^(١):

شرف المصطفى رفيع عماده
 بعثه بعث كل خير وميلا
 وبه قد تدارك الله أهل ال
 جاء من عند ربه بكتاب
 وله الجذع حن لما شجأه
 وأجاب استدعاه الشجر المنفا
 وأتى بإنشقاق بدر الدياجي
 ليس يحصى بكثرة تعداده
 د الهدى والتقى معاً ميلاده
 أرض لما طغى عليها عباده
 مُحكم النظم كامل إرشاده
 بعد قرب المزار منه بعاده
 د طوعاً لماً أريد انقياده
 خبر عنه ثابت أسناده

(١) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٤٥ - ١٤٦.

كثرت مُعجزاتُ أحمدَ حتى صَارَ خرقُ العاداتِ فيها اعتيادُهُ

والقصيدة الثالثة وهي مخمّس وقد ذكرها السبكي في طبقاته، كما ذكرها

شاكر الكتبي في كتابه وفيات الوفيات، ومطلعها^(١):

ذُرُوا فِي السُّدَى نَحْوَ الْجَنَابِ الْمُمَنَعِ
لذِيذِ الْكُرَى وَاجْفُوا لَهُ كُلَّ مَضْجَعِ
وَاهْدُوا إِذَا جِئْتُمْ إِلَى خَيْرِ مَرْبَعِ
تَحِيَّةَ مُضْنَى هَائِمِ الْقَلْبِ مُوجِعِ
سَرِيعٍ إِلَى دَاعِي الصَّبَابَةِ طِيعِ

وهي قصيدة طويلة فقد جاءَ فيها^(٢):

سَلامٌ عَلَى صَفْوِ الْحَيَاةِ وَطَيْبِهَا إِذَا لَمْ تَفْزُ عَيْنِي بُلْقِيَا حَبِيبِهَا
وَلَمْ تَحْظَ مِنْ إِقْبَالِهِ بِنَصِيبِهَا وَلَا اسْتَعْطَفْتُهُ عِبْرَتِي بِصِيبِهَا
وَلَا وَقَعْتَ شَكْوَايَ مِنْهُ بِمَوْعِ
مَقْرَ الَّذِي دَلَّ الْأَنَامَ بِشَرَعِهِ عَلَى أَصْلِ دِينِ اللَّهِ حَقًّا وَفِرْعِهِ
بِهِ انْضَمَّ شَمْلُ الدِّينِ مِنْ بَعْدِ صَدْعِهِ لَنَا مَذْهَبُ الْعُشَاقِ فِي قَصْدِ رِيعِهِ
نُقِيمُ بِهِ رَسْمَ الْبُكَاءِ وَالتَّضَرُّعِ
تَحُلُّ بِهِ الْأَنْوَارُ مِلءَ رِحَابِهِ وَمُسْتَوْدَعُ الْأَسْرَارِ عِنْدَ صَحَابِهِ
هِدَايَةٌ مَنْ يَحْتَارُ تَأْمِيلُ بَابِهِ وَتَشْرِيفُ مَنْ يُخْتَارُ قَصْدُ جَنَابِهِ
بِتَقْبِيلِهِ وَجَهَ الشَّرَى الْمُتَضَوِّعِ
أَقَامَ لِنَا شَرَعَ الْهُدَى وَمَنَارَهُ وَأَلْبَسَنَا ثَوْبَ التَّقَى وَشِعَارَهُ

(١) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٤٩.

وَجَنَّبَنَا جَوْرَ الْعَمَى وَعِثَارَهُ سَقَى اللَّهُ عَهْدَ الْهَاشِمِيِّ وَدَارَهُ
سَحَاباً مِنَ الرُّضْوَانِ لَيْسَ بِمُقْلَعِ
بَنَى الْعِزَّ لِلتَّوْحِيدِ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ وَأَوْجَبَ ذُلَّ الْمُشْرِكِينَ بِجَدِّهِ
عَزِيزٌ قَضَى رَبُّ السَّمَاءِ بِسَعْدِهِ وَأَيَّدَهُ عِنْدَ اللَّقَاءِ بِجُنْدِهِ
فَأَوْرَدَهُ لِلنَّصْرِ أَعَذَّبَ مَشْرَعِ
أَقُولُ لِرُكْبٍ سَائِرِينَ لِيَثْرِبِ ظَفِرْتُمْ بِتَقْرِيْبِ النَّبِيِّ الْمُقَرَّبِ
فَبِئْسُوا إِلَيْهِ كُلَّ شَكْوَى وَمَتَعَبِ وَقُصُّوا عَلَيْهِ كُلَّ سُؤْلِ وَمَطْلَبِ
فَأَنْتُمْ بِمَرَى لِلرُّسُولِ وَمَسْمَعِ

ثانياً: الحنين إلى الأماكن المقدسة:

من ذلك قوله:

تَهِيمٌ نَفْسِي طَرَباً عِنْدَمَا اسْتَلْمِحُ الْبَرْقَ الْحِجَازِيَا
وَيَسْتَخْفُ الْوَجْدَ عَقْلِي وَقَدْ أَصْبَحَ لِي حِسْنُ الْحَجَى زِيَاً
يَا هَلْ أَقْضِي حَاجَتِي مِنْ مَنِي وَأَنْحَرُ الْبُزْلَ الْمَهَارِيَا
وَأَرْتَوِي مِنْ زَمَزَمَ فَهِيَ لِي أَلْدُّ مِنْ رِيْقِ الْمَهَارِيَا
ثالثاً: الزهد والحكمة (٢):

من ذلك قوله:

وَقَائِلَةٌ مَاتَ الْكِرَامُ فَمَنْ لَنَا إِذَا عَضْنَا الدَّهْرَ الشَّدِيدَ بِنَابِهِ
فَقُلْتُ لَهَا مَنْ كَانَ غَايَةُ قَصْدِهِ سَوْألاً لِمَخْلُوقٍ فَلَيْسَ بِنَابِهِ
لَنْ مَاتَ مَنْ يَرْجَى فَمَعْطِيهِمُ الَّذِي يَرْجُونَهُ بَاقِ فُلُودِي بِيَابِهِ

(١) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٥٤.

(٢) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٨٥.

وقال أيضاً^(١):

فإن سَلَبَ الذي أعطى أثابا
وأَحَمَدُ عِنْدَ عُقْبَاهَا أَيَابَا
أم الأخرى التي جَلَبَتْ ثواباً

عَطِيَّتُهُ إِذَا أُعْطِيَ سُرُورًا
فَأَيُّ النُّعْمَتَيْنِ أَعْدُ فَضْلًا
أَنْعَمْتُهُ الَّتِي كَانَتْ سُرُورًا

وقال^(٢):

وسيري حثيثاً في مسيري إلى القبر
تسح هموماً دونها وابل القطر
تعبت به مذ كنت في مبدأ العمر
تكدره والموت خاتمة الأمر

أفكرُ في حالي وقربِ مَنِيَّتِي
فينشئ لي فكري سحائب الأسي
إلى الله أشكو من وجودي فإنني
تروح وتغدو للمنايا فجائعُ

رابعاً: الغزل والنسيب وقد قال فيهما^(٣):

بسلطان حُسنٍ لا يَنَارُغُ في الحكمِ
دقيقِ حواشِ الطرفِ والحسنِ والفهمِ
تحيلٌ في رشفي الرضابِ بلا إثمِ

ومستعبدٍ قلبَ المحبِ وطرفه
متينِ التقى عَفَ الضميرِ عن الخنا
يناولني مِسْوَآكُهُ فَأَظُنُّهُ

وقال^(٤):

لا نَعْرِفُ العَمَضَ ولا نَسْتَرِيحُ
يزيلُ من شكواهم أو يُريحُ

كم ليلة فيكَ وَصَلْنَا السَّرَى
واختَلَفَ الأَصْحَابُ ماذا الذي

(١) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٥٤ .

(٢) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٧٤ .

(٣) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٤) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٦٠ .

وقلت بل ذكراك وهو الصحيح

فَقِيلَ تَعْرِيسُهُمْ سَاعَةً

وقال:

جَمَالُكُمْ لَا يُحْصَرُ
وَحُبُّكُمْ بَيْنَ الْحَشَا
نَارِي بِكُمْ لَا تَنْطَفِي
إِذَا أَتَى اللَّيْلُ أَتَى
فَإِنْ أَكُنْ وَذَكَرْكُمْ
وَلِي عَذُولٌ فِيكُمْ
يَقُولُ لِي تَقِلُّ مِنْ
وَتَحْمِلُ الشَّقَّ الَّذِي
وَاللَّهِ مَا أَطِيقُهُ

وَمِثْلُكُمْ لَا يُهَجَرُ
مُسْتَوْدَعٌ لَا يَظْهَرُ
وَلَوْعَتِي لَا تَفْتُرُ
الْهَمُّ بِكُمْ وَالْفِكْرُ
طَابَ وَلَدَّ السَّهَرُ
يُقْلِقُنِي وَيُكْثِرُ
ذِكْرَهُمْ وَتُقْصِرُ
حَمَلَتَهُ وَتَصْبِرُ
هَلْ أَنَا إِلَّا بَشْرُ

وقال قصيدة منها هذه الأبيات:

لَقَدْ بَعُدَتْ لَيْلِي وَعَزَّ وَصَالُهَا
يُقَرِّبُ عِنْدِي وَصَلَّهَا حَسَنُ لُطْفِهَا
وَإِنِّي لِأَرْضَى الْيَوْمَ بَعْدَ تَشَوُّقِي
كَمَا عَزَّ بَيْنَ الْعَالَمِينَ مِثَالُهَا
وَيُبْعِدُهَا اسْتِغْنَاؤُهَا وَدَلَالُهَا
إِلَى أَنْ أَرَاهَا أَنْ يَزُورَ خِيَالُهَا

وقال قصيدة يوازن فيها بين أهل المراتب وأهل الفضائل (١):

أَهْلُ الْمَنَاصِبِ فِي الدُّنْيَا وَرَفَعَتْهَا
قَدْ أَنْزَلُونَا لِأَنَّا غَيْرُ جِنْسِهِمْ
فَمَا لَهُمْ فِي تَوْقِي ضُرْنَا نَظَرُ
فَلَيْتَنَا لَوْ قَدَرْنَا أَنْ نَعْرِفَهُمْ

أَهْلُ الْفَضَائِلِ مَرْدُولُونَ بَيْنَهُمْ
مَنَازِلَ الْوَحْشِ فِي الْإِهْمَالِ عِنْدَهُمْ
وَلَا لَهُمْ فِي تَرْقِي قَدَرْنَا هِمُّ
مِقْدَارَهُمْ عِنْدَنَا أَوْ لَوْ دَرَوْهُ هُمْ

(١) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٨٣ .

لهم مُريحانٍ مِنْ جَهْلٍ وَفَرَطٍ غَنَى وَعِنْدَنَا الْمُتَعَبَانِ الْعِلْمُ وَالْعَدَمُ

فهذه الأبيات كما ترى جيدة السبك، جذلة التراكيب، موفقة التعبير، واضحة المعاني، تناولت إحدى ظواهر المجتمع، وهي ظاهرة مطردة في كثير من المجتمعات الشرقية والعربية، وقصارها استعلاء الرؤساء والحكام على العلماء وأهل الفضل، لما لهم من الجاه والغنى، ولكنهم مع ذلك جهلاء أراحمهم الجهل من فهم الحق ومعرفة منازل الناس، بينما أتعب العلم والعدم أهل الفضل وقلل من منازلهم.

وقد نافضه البققي المصري المتوفى عام (٧٠هـ) واسمه أحمد بن محمد

فتح الدين البققي في أبيات قالها، فقال وأجاد^(١):

أين المراتبُ والدُّنيا ورَفَقْتُهَا	عندَ الذي حازَ علماً ليسَ عندهمُ
لا شكَّ أن لنا قَدراً رأوه وما	لقدَّرهـم عنـدنا قَدْرٌ ولا لهمُ
هُم الوُحوشُ ونحنُ الإنسُ حِكْمَتُنَا	تقودُهُم حيث ما شئنا وهمُ نَعَمُ
وليسَ شيءٌ سوى الإهمالِ يَقْطَعُنَا	عَنهُم لأنَّهُم وجدانُهُم عَدَمُ
لنا المُريحانِ من علمٍ ومن عَدَمٍ	وفيهـم المتعبانِ الجهلُ والحشمُ

وأختم شعره بقصيدة التي يرد فيها على من نصحه بترك قوص والسفر إلى القاهرة ليسعى لرزقه فيقرع باب أصحاب السلطان والنفوذ والجاه ليصل إلى المراكز الرفيعة ويحصل على المال الوفير^(٢):

يقولونَ لي هلا نَهَضْتَ إلى العلا	فما لُدَّ عيشُ الصابرِ المتنَعِ
وهلا شددتَ العيسَ حتى تُحلَّها	بمصرَ إلى ظلِّ الجنابِ المرفَعِ

(١) السبكي: «الطبقات» ج ٩ ص ٢١٥، طبعة الباي الحلبي.

(٢) «ديوان ابن دقيق العيد» ص ١٧٨.

تَعَيَّنُ كَوْنِ الْعِلْمِ غَيْرَ مُضِيعٍ
يُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالْعَلَا كُلِّ اصْبُعٍ
فَقَمِ وَاسِعَ وَاقْصِدْ بَابَ رِزْقِكَ وَاقْرَعِ
ذَلِيلًا مُهَانًا مُسْتَخْفًا بِمَوْضِعِي
عَلَى بَابِ مَحْجُوبِ اللَّقَاءِ مُمْنَعٍ
أَرْوَحُ وَأَغْدُو فِي ثِيَابِ التَّصْنَعِ
أُرَاعِي بِهَا حَقَّ التَّقَى وَالتَّوَرَعِ
تُشِبُّ بِهَا نَارَ الْغَضَا بَيْنَ أَضْلَعِي
إِذَا بَحْثُوا فِي الْمَشْكَالَاتِ بِمَجْمَعِ
وَقَدْ شَرَعُوا فِيهَا إِلَى شَرِّ مَشْرَعِ
أَوْ الصَّمْتِ عَنِ حَقِّ هُنَاكَ مُضِيعِ
وَإِمَّا تَلْقَى غَضَّةَ الْمَتَجَرِّعِ

فَفِيهَا قُضَاءٌ لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِمْ
وَفِيهَا شَيْوُخُ الدِّينِ وَالْفَضْلِ وَالْأَوْلَى
وَفِيهَا وَفِيهَا وَالْمَهَانَةُ ذَلَّةٌ
فَقُلْتُ نَعَمْ أَسْعَى إِذَا شِئْتُ أَنْ أَرَى
وَأَسْعَى إِذَا مَا لَدَّ لِي طَوْلُ مَوْقِفِي
وَأَسْعَى إِذَا كَانَ النِّفَاقُ طَرِيقَتِي
وَأَسْعَى إِذَا لَمْ يَبْقَ فِيَّ بَقِيَّةٌ
فَكَمْ بَيْنَ أَرْبَابِ الصُّدُورِ مَجَالِسُ
وَكَمْ بَيْنَ أَرْبَابِ الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا
مِنَاطِرَةٌ تَحْمِي النُّفُوسَ فَتَنْتَهِي
مِنَ السَّفْهِ الْمَزْرِيِّ بِمَنْصَبِ أَهْلِهِ
فَإِمَّا تَوَخَّيْ مَسْلَكَ الدِّينِ وَالنَّهْيِ

هذه القصيدة تعتبر في رأيي دستوراً للعلماء ينبغي عليهم السير على
منهجها فهي توضح لهم ما ينبغي عليهم اتباعه، وما ينبغي عليهم اجتنابه، وذلك
حتى يعيشوا كرماء لأنفسهم وللعلم الذي يحملونه .

المبحث الثاني

الحديث

المطلب الأول

روايته له

يعتبر ابن دقيق العيد من كبار الحفاظ لعلم الحديث والمحققين له، ولا غرو في ذلك، فقد تهيأ له في أول مراحل تعليمه، منذ نعومة أظفاره سماع الحديث من والده ومن الشيخ بهاء الدين القنطي، ومن خالته أم إبراهيم مريم بنت الشيخ المقترح^(١).

وعندما انتقل إلى القاهرة والإسكندرية سمع الحديث من الجميزي، وابن رواج، وابن الحباب، وابن المقير، وابن المحاسب، وعبد العظيم المنذري، ويحيى القرشي، والعز بن عبد السلام، وأبي حامد المحمودي، وأبي علي الحسن بن محمد البكري، ومحمد الأنجب الصوفي البغدادي، وعلي بن المبارك البغدادي، وأبي المعالي بن المظفر وغيرهم كثير^(٢). وعندما رحل إلى الشام سمع الحديث من مسند الشام وفقهها ابن عبد الدايم، وزين الدين خالد النابلسي^(٣)، وعبد اللطيف بن الحسن الدمشقي وغيرهم، وأجازه جمع كثير من

(١) النجيبى: «مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ١٩.

(٢) انظر الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧١ - ٥٧٢، و«مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ١٩.

(٣) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢١.

المحدثين منهم حافظ الشام ومسنده أبو الحجاج يوسف بن خليل بن عبد الله
الدمشقي نزيل حلب، ومسموعاته كثيرة غير أنه لا يرى التحدث بكل ما سمع،
بل ينتقي منه ما يحدث به، ويضرب عن الباقي تشديداً منه في ذلك، وكذلك
أيضاً لا يجيز كل ما سمع بل يستثني ويقول ما حدثت به من مسموعاتي^(١)، وكان
مثبتاً في الرواية إلى أبعد الحدود، فقد روى الصفدي والذهبي وابن حجر عن
الحافظ قطب الدين الحلبي^(٢)، أنه أتاه بجزء سمعه من ابن رواج والطبقة بخطه
فقال حتى انظر فيه، ثم عاد إليه فقال الشيخ تقي الدين هو خطي ولكن لم أحقق
سماعي له ولا أذكره، ولم يحدث به.

وقد أجمع علماء الحديث ممن أروخوا له على تقدمه في معرفة علل
الحديث على أقرانه، وأنه كان أحد الحفاظ الثقات، من ذلك قول تلميذه الحافظ
فتح الدين بن سيد الناس اليعمري^(٣): لم أر مثله فيمن رأيت، ولا حملت عن
أجل منه فيما رأيت ورويت. . . إلى أن قال مقدماً في معرفة علل الحديث على
أقرانه، منفرداً بهذا الفن النفيس في زمانه، بصيراً بذلك، سديد النظر في تلك
المسالك، بأذكي المعية، وأزكى لودعيه، لا يشق له غبار، ولا يجري معه سواء
في مضمار.

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل مصيب ولم يثن اللسان على هجر

وقول تلميذه قطب الدين الحلبي^(٤) عنه:

(١) النجيبى: «مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ١٩.

(٢) «الوافي»: ج ٤ ص ١٩٤، «تذكرة الحفاظ» ج ٤ ص ١٤٨٢، «الدرر الكامنة» ج ٤
ص ٢١١.

(٣) السبكي: «طبقات الشافعية» ج ٦ ص ٢ - ٣.

(٤) ابن حجر: «الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢١١.

كان الشيخ تقي الدين حافظاً متقناً في الحديث وعلومه يضرب به المثل في ذلك . وكان آية في الحفظ والإتقان والتحري .

وقد اشتغل في رواية الحديث في أول حياته العلمية وبدأ بتدريسه للحديث بقوص حيث أسند السابق والي قوص إليه التدريس بدار الحديث التي أنشأها خصيصاً له^(١) .

وعندما انتقل إلى القاهرة درس الحديث في المدرسة الكاملة التي كانت تعرف بدار الحديث، ثم أصبح شيخاً لها، وكان يسكن فيها، كما درس الحديث بغيرها من المدارس^(٢) .

وكان يروي الحديث سماعاً بإسناده من مسموعاته، وقد روى عنه الكثير من الحفاظ . قال النجيبى^(٣) : أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام أوحى الأنام ونخبة الإسلام قاضي القضاة وشيخ الامة المصمود، المرحول إليه المقصود، ومفتي المسلمين، وعمدة المصنفين، وخاتمة المجتهدين، أجل من لقيناه، وأعلم من رأيناه، تقي الدين أبو الفتح محمد بن الشيخ الفقيه الإمام الفاضل الزاهد والورع، بقية السلف، وعمده الخلف، مجد الدين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي، ثم الينبعي القوصي، ثم القاهري، الدقيقي، قراءه عليه وأنا أسمع، بدار الحديث الكاملة، من القاهرة المعزية، حاضرة الديار المصرية . قال قراءه على أبي الحسن الأنجب البغدادي عن أبي المعالي عن المنعم بن عبد الغراوي، قال أخبرني أبو بكر الحيري، قال حدثنا أبو العباس الأصم قال، حدثني سفيان بن عيينة عن أبي إسحاق سمع

(١) علي مبارك: «الخطط الجديدة» ج ١٣ ص ٣٦ .

(٢) سبق أن وضحت ذلك عند التحدث عن تصديه للتدريس .

(٣) النجيبى : مستفاد «الرحلة والاعتراب» ص ٢١ - ٣٤ .

البراء بن عازب رضي الله عنه يقول : سمعت النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه يقول :
(اللهم إليك أسلمت نفسي ، وإليك وجهت وجهي ، وإليك فوضت أمري ، وإليك
ألجأت ظهري ، رغبة ورهبة ، لا ملجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ،
وبرسولك ونبيك الذي أرسلت ، فإن مات مات على الفطرة).

وروى الحديث عنه بعدة طرق بإسناده وكلها تنتهي بأبي إسحق عن البراء
بن عازب . ثم قال أي ابن دقيق العيد ، هذا حديث صحيح عال عشيري الإسناد
متفق على صحته وثبوته من حديث أبي عمار - أي البراء بن عازب - ثم أخذ يذكر
نسبه ، ثم قال : حديث أبي إسحق هذا الذي أوردته أخرجه الأئمة الأربعة
البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث شعبة وأبي الأحوص عنه ، والترمذي
في جامعه والنسوي في سننه ، فرواه الترمذي في الدعوات عن محمد بن يحيى
بن أبي عمر العدني ، ورواه النسوي في اليوم والليلة عن قتيبة بن سعيد كلاهما
عن الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة عن أبي إسحاق ، فوقع لنا بدلاً عالياً لهما ،
ورواه النسوي في اليوم والليلة عن محمد بن عبيد الله بن يزيد عن أبيه . . . الخ .
كما روى النجيبى عنه بسنده حديثاً لأنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال
الرجل : يا رسول الله متى الساعة قال : وما أعددت لها؟ فلم يذكر شيئاً إلا أنه
يحب الله ورسوله ، فقال أنت مع من أحببت .

وروى الحديث بعدة طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفي بعض
طرقه زيادة في آخره قال أنس فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ
(فإنك مع من أحببت) قال أنس فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن
أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

وروى حديث آخر بسنده عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يدخل
على أم حرام بنت ملحن فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل

رسول الله ﷺ فأطعمته، ثم جلست تفلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت ما يضحكك يا رسول الله؟ فقال ناسٌ من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر، ملوك على الأسرة (أو مثل الملوك على الأسرة) يشك أيها قال قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله عز وجل أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله - كما قال في الأول - قالت: فقلت ادع الله أن يجعلني منهم قال: أنت من الأولين . فركبت أم حرام بنت ملحان البحر زمن معاوية بن أبي سفيان فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت . وروى الحديث عنه بعدة طرق عن أنس بن مالك .

وممن روى عنه الحديث بسنده أثير الدين أبو حيان قال : قال الأذفوي^(١) :

أخبرنا شيخنا العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي حدثنا الشيخ الفقيه الإمام العالم الأوحى المتقن مفتي الفريقين الحافظ الناقد، تقي الدين أبو الفتح محمد بن الشيخ الفقيه الإمام العالم الورع الزاهد مجد الدين أبي الحسن علي بن أبي العطايا وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري رضي الله عنه يوم الأحد المبارك ثاني شهر رمضان المعظم من سنة ست وثمانين وستمائة بمنزلة من دار الحديث الكاملية بالمعزية، إملاء من لفظه، قال: قرأت على الإمام المفتي أبي الحسن علي بن أبي الفضائل هبة الله بن سلامة الشافعي اللخمي بمصر عن الإمام الحافظ أبي الطاهر السلفي قراءة عليه بالإسكندرية، أخبرنا الشيخ الرئيس أبو عبد الله القاسم بن الفضل الثقفي بأصبهان، حدثنا أبي الفتح هلال بن جعفر بن سعدان قراءة عليه ببغداد، حدثنا أبو عبد الله الحسين بن يحيى بن عياش القطان، حدثنا أبو الأشعث أحمد بن المقدم العجلي، حدثنا حماد بن زيد عن

(١) الأذفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧٢ - ٥٧٤ .

عاصم بن سليمان، عن عبد الله بن سرجس قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا سافر «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد الكور، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال»، قيل لعاصم ما الحور بعد الكور قال حار بعدما كار^(١).

قال شيخنا أثير الدين قال لنا الشيخ تقي الدين هذا حديث صحيح ثابت من حديث عاصم الأحول، أخرجه مسلم من حديث جماعة عنه، وفيه نوعان من أنواع العلو. أحدهما العلو إلى النبي ﷺ، فإنه أعلى ما يقع لنا بالأسانيد الجيدة، الثاني العلو إلى إمام من أئمة الحديث وهو حماد بن زيد، وبهذا الإسناد إلى الثقفي قال: حدثنا علي بن محمد بن عبد الله بن بشران حدثنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا سعدان بن نصر بن منصور، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله يقول: لما نزل على النبي ﷺ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجَلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يُلْبِسْكُمْ شَيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: «هتان أهون وأيسر».

قال شيخنا أثير الدين أبو حيان قال لنا الشيخ: هذا حديث ثابت صحيح من حديث سفيان بن عيينة، وفيه النوعان المتقدمان من العلو مع كونه بدلاً فإن البخاري أخرجه عن علي بن المديني عن سفيان وفيه نوع زائد من العلو وهو

(١) الحَوْر: بفتح الحاء وسكون الواو، الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والنقصان بعد الزيادة، لأنه رجوع من حال إلى حال. والكور: ما تحت الكور من العمامة، يقال (حار بعد ما كار) لأنه رجوع عن تكريرها.

والمعنى المراد: نعوذ بالله من فساد أمورنا بعد صلاحها. وأصله من نقض العمامة بعد لفها. انظر «اللسان» ج ٤ ص ٢١٧، و«القاموس» ج ٢ ص ١٥.

المسمى بعلو التنزيل، فإن الثقفي كان سمعه من صاحب البخاري .
وبه إلى الثقفي حدثنا أبو عمرو محمد بن محمد بن بالويه الصانع قراءة
عليه بنيسابور، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف الأموي حدثنا
العباس بن محمد الدوري، حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان بن بلال،
حدثنا عمارة بن عزية، عن نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله
ﷺ: «أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء، فمن استطاع منكم
فليطل غرته وتحجيله» صحيح متفق عليه من حديث نعيم المجمع، وهو من حديث
عمارة انفرد به مسلم .

وقد روى عنه كثير من المحدثين غير النجيبى^(١) وأبي حيان، وقد سبق أن
ذكرت أسماء بعض من روى عنه في البحث الخاص في تلاميذه وذكرت منهم
قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام بن جميل
التونسي، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن حيدرة الشهير بابن
القماح، وقاضي القضاة علاء الدين القسوني، وقاضي القضاة علاء الدين
الأخنائي، وابن رشيد، وفتح الدين بن سيد الناس، وغيرهم، وذكر الذهبي أنه
روى عنه عشرين حديثاً.

(١) ترجمة النجيبى: هو القاسم بن يوسف النجيبى السبتي المغربي ولقبه علم الدين . ولد
في حدود السبعين وستمائة، عالم محدث، سمع ببلده وحج فسمع في رحلته من
العراقي وابن عساكر وابن القواس وشيخنا تقي الدين وغيرهم . ألف كتاباً سماه «مستفاد
الرحلة والاعتراب» وقد حذا في كتابه حذو ابن رشيد الذي كان قد رحل قبله بعشر
سنوات إلا أنه توسع في كتابه أكثر منه فذكر ترجمة كل شيخ من شيوخه، وذكر ما سمعه
فيه من أحاديث مع ذكر السند .

كما ذكر ما استفاده منه مع ذكر بعض شعره ص ١٦ إلى ٣٧، وقد حقق كتابه السيد عبد
الحفيظ منصور وقام بطبعه الدار العربية للكتاب في ليبيا وتونس . توفي سنة ٧٣٠هـ،
انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» ج ٣ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

المطلب الثاني

كتبه في علم الحديث

لقد كتب رحمه الله في علم الحديث كتباً كثيرة منها ما هو خاص في علم الحديث رواية، ومنها ما هو خاص في علم الحديث دراية.

كتبه في علم الحديث رواية :

أولاً : كتاب الإمام في أحاديث الأحكام :

وقد طبع هذا الكتاب بعد أن راجعه وعلق عليه الزميل محمد سعيد المولولي ، وقامت بنشره دار الثقافة الإسلامية في الرياض ، وقد جاء في المقدمة التي كتبها ابن دقيق العيد في أول هذا الكتاب ، وذلك بعد حمد الله والصلاة على النبي ﷺ قوله وبعد : (فهذا مختصر في علم الحديث ، تأملت مقصده تأملاً ، ولم أدع الأحاديث إليه الجفلى ، ولا ألوت في وضعه محرراً ، ولا أبرزته كيف اتفق تهوراً ، فمن فهم معناه شد عليه يد الضنانه ، وأنزله من قلبه وتعظيمه الأعززين مكاناً ومكانة ، وسميته كتاب الإمام بأحاديث الأحكام ، وشرطي فيه ألا أورد إلا أحاديث من وثقه إمام من مزكي رواة الأئمة ، وكان صحيحاً على طريقة أهل الحديث الحفاظ ، أو أئمة الفقه النظار ، فإن لكل منهم مغزى قصده وسلوكه ، وطريقاً أعرض عنه وتركه ، وفي كل خير ، والله ينفع فيه دنيا وديناً ، ويجعله نوراً يسعى بين أيدينا ، ويفتح لدارسيه حفظاً وفهماً ، وبلغنا وإياهم ببركته منزلة من كرامته عظمى ، إنه الفتح العليم الغني الكريم).

وقد ذكر الأحاديث محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها ويعم الانتفاع بها فإن

الأسانيد لا فائدة في ذكرها لكثير من الناس، بعد أن عُلِّمت صحتها، واكتفى بذكر اسم الصحابي الذي رواه عن رسول الله ﷺ، وذكر من أخرجه من أصحاب كتب الحديث المعتمدة، وذكر من صححه منهم. وعدد أحاديثه ألف وأربعمائة وواحد وسبعون (١٤٧١) حديثاً، وقد قسمه حسب موضوعاته إلى عدة كتب، وقسم كل كتاب إلى عدة أبواب وقسم بعض أبوابه إلى عدة فصول.

وقد بدأه بعد المقدمة بكتاب الطهارة، ثم بكتاب الصلاة، ثم بكتاب الزكاة، ثم بكتاب الصيام، ثم بكتاب الحج، ثم بكتاب البيوع، ثم بكتاب الفرائض، ثم بكتاب النكاح، ثم بكتاب الجراح، ثم بكتاب الجهاد والسير، ثم بكتاب جامع^(١).

ثانياً: كتاب الإمام في معرفة أحاديث الأحكام:

وقد تكلم عنه ابن دقيق العيد فقال: ما وقفت على كتاب من كتب الحديث وعلومه المتعلقة به سبقت بتأليفه وانتهى إلي إلا وأوردت منه فائدة في هذا الكتاب كذا نقل عنه تلميذه ابن رشيد في وصف هذا الكتاب^(٢)، وقال عنه ابن رشيد أنه في نحو سبع مجلدات.

وقال عنه الإسنوي^(٣): وقد أكمل كتابه الكبير العظيم الشأن المسمى (بالإمام) بهمزة مكسورة بعدها ميم، وهو الذي استخرج منه كتابه المختصر المسمى بـ (الإمام) وقال «وقد حسده عليه بعض كبار هذا الشأن ممن في نفسه منه عداوة فسدس من سرق أكثر هذه الأجزاء وأعدمها، وبقي منها الموجود عند

(١) انظر كتاب «الإمام»: مراجعة وتعليق سعيد مولوي، الناشر دار الثقافة الإسلامية بالرياض.

(٢) ابن رشيد: «رحلة ابن رشيد» ص ٦٢/ب مخطوط، مكتبة الجامعة الإسلامية.

(٣) الإسنوي: «طبقات الشافعية» ج ٢ ص ٢٢٩.

الناس اليوم نحو أربعة أجزاء فلا حول ولا قوة إلا بالله ، كذا سمعته من الشيخ شمس الدين بن عدلان رحمه الله وكان عارفاً بحاله» انتهى كلام الإسنوي .

وعند البحث والمراجعة وجدت في المكتبة الأزهرية نسخة من الجزء الأول منه بخط محمد بن أبي القاسم الفارقي وقد كتبت في سنة (٧٣١هـ) وهي تحت رقم (٢٨٧) ٢١٢٨ وهي ٢٧٩ ورقة مسطرتها ٢٥ سطراً . . . وقد بدأ كاتبها بما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل ، قال الشيخ الفقيه الإمام العالم الأوحد العلامة البارع النقاد شيخ شيوخ الطريقة، كاشف أسرار الحقيقة، جامع الحدائق في الحقائق، ومظهر الدقائق في الرقائق، بقية المجتهدين في الدين، أبي الفتح محمد بن الشيخ الإمام مجد الدين أبي الحسن علي بن وهب بن مطيع القشيري رحمه الله تعالى ، ثم قال بعد ذلك :

كتاب الطهارة: باب المياه

ذكر بيان معنى الطهور وأنه المطهر لغيره

عن يزيد الفقيه قال أخبر جابر عن عبد الله أن النبي ﷺ قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأیما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة . متفق عليه من حديث هشيم عن يزيد .

وذكر أن اللفظ للبخاري ، وذكر الألفاظ التي جاءت في مسلم تخالف لفظ البخاري، وذكر أن مسلماً رواه عن أبي هريرة ، وأن النبي قال : فضلت على الأنبياء

بسته فذكر منهن وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً^(١). وقال وأخرج مسلم حديثاً عن حذيفة، وسيأتي في باب التيمم إن شاء الله تعالى بزيادة بعض الألفاظ في الحديث، ثم روى الحديث بسنده هو عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، كما ذكر عدة روايات للحديث وذكر الكتب التي وردت فيها.

وقد ختم كاتبه الجزء الأول بالفصل الخاص في وقت الفضيلة للصلاة، وجاء في آخره والله الحمد والفضل والمنة، يتلوه في أول المجلدة الثانية إن شاء الله تعالى ذكر التفليس بصلاة الصبح، وقال: كتبه العبد محمد أبي القاسم الفارقي رفق الله به ووافق الفراغ منه عام واحد وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة المعزية، والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وقد كتب عنه بالفهرس كما كتب على نفس الكتاب بخط كبير (الجزء الأول من كتاب الإمام) بدلاً من كتاب الإمام.

وبعد اطلاعي عليه ومقارنته مع كتاب الإمام الذي حققه الزميل السيد سعيد مولوي، واعتمد فيه على ثلاث نسخ أصلية موجودة في المكتبة الظاهرية في دمشق، وكلها كتبت قبل النسخة الموجودة في مكتبة الأزهر، فالأولى كتبت في سنة (٧٢٥هـ)، والثانية كتبت سنة (٧٠٣هـ) أي بعد وفاة ابن دقيق العيد بسنة واحدة، والثالثة في سنة (٧١٢هـ)^(٢)، وما سبق أن اطلعت عليه من وصف لكل

(١) وذلك بأن عدّهما اثنتين، أما رواية الخمس فقد جعلتهما واحدة فيكون المعنى في الرواية الأولى جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وجعلت لغيري مسجداً، أما رواية مسلم التي انفرد بها فجعلت كل واحدة مستقلة عن الأخرى فيكون جعل الأرض مسجداً خاصة به أيضاً.

(٢) انظر ما كتبه سعيد مولوي في مقدمته لكتاب «الإمام» ص: هـ + و + ز.

من كتابي الإمام والإمام، وبعد التحقيق والتثبت في مختلف المراجع جازمت بأن النسخة الموجودة في المكتبة الأزهرية هي الجزء الأول من كتاب (الإمام) وليست الجزء الأول من كتاب الإمام.

فالمؤرخون الذين تكلموا عن كتاب الإمام ووصفوه أجمعوا على أنه كتاب صغير الحجم مختصر في أحاديث الأحكام، ووصفهم هذا لا ينطبق على الكتاب الموجود في المكتبة الأزهرية، بل ينطبق على الكتاب الذي حققه السيد سعيد مولوي، كما أن اسمه يشعر بذلك فهو الملم بأحاديث الأحكام وليس إماماً فيها.

والجزء الأول الذي هو في المكتبة الأزهرية يشعر بحق بأنه جزء من كتاب يعتبر لو كملت أجزائه إماماً في أحاديث الأحكام كما وصفوه.

وذكر الإسنوي وابن حجر والسبكي أن الإمام مستمد من كتاب الإمام^(١) وأنه خاص في الحديث، وذهب المقرئزي والصفدي وخير الدين الزركلي والشيخ المحقق أحمد شاکر في تعليقه على الجزء الأول من المحلى لابن حزم أن الإمام هو شرح الإمام^(٢)، وذلك خطأ، لأن شرح الإمام هو كتاب ثالث غير الإمام كما سأوضح ذلك إن شاء الله تعالى عند التحدث عن فقهه بوجه عام.

وبعد التحقيق راجعت مدير المكتبة الأزهرية السيد محمد عميرة علي وأوضحت له صحة ما ذهبت إليه، فاقتنع برأيي وصحة ما ذهبتُ إليه، وأمر بكتابة ورقة توضع في الكتاب يثبت أن هذا الكتاب هو الجزء الأول من كتاب (الإمام) وليس هو الجزء الأول من كتاب (الإمام) تمهيداً لتغيير العنوان الذي على الكتاب.

(١) انظر «طبقات الشافعية» للإسنوي ج ٢ ص ٢٢٩، «الدرر الكامنة» ج ٤ ص ٢١١، و«طبقات الشافعية» للسبكي ج ٦ ص ٤.

(٢) انظر ما كتبه سعيد مولوي في مقدمته لكتاب «الإمام» ص: د.

ووجه إلي كتاب شكر في ذلك .

وكتاب الإمام يعتبر بحق كتاباً عظيم الشأن في أحاديث الأحكام كما ذكر ذلك الإسنوي، ويغني عن كل كتاب في هذا الفن، كتب فيه جميع أحاديث الأحكام التي وردت في الكتب الستة وغيرها من كتب الأحاديث المعتمدة، كما كتب فيه أحاديث الأحكام التي رواها هو بسنده، فهو يذكر الحديث بجميع روايته . وقد أثنى عليه العلماء ثناء عاطراً حتى قال فيه ابن تيمية^(١) أنه كتاب الإسلام، وقال بأنه ما عمل أحد مثله، ولا الحافظ الضياء ولا جده أبو البركات .

ثالثاً: كتاب شرح الأربعين حديثاً النووي :

جمع الإمام النووي - رحمه الله - اثنين وأربعين حديثاً مشتملة على جميع أبواب السنة تقريباً، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين، ذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها وشرح بعض ألفاظها .

ولأهمية هذه الأحاديث قام ابن دقيق العيد بشرحها ليسهل فهمها ويعم الانتفاع بها، ويعتبر النووي من معاصريه حيث توفي سنة (٦٧٦هـ) . واطلاعه على هذا المختصر في الحديث وشرحه له مع حداثة ظهوره في بلاد الشام يدل على اهتمامه وشغفه بعلم الحديث .

وقد شرحه رحمه الله شرحاً سهلاً مبسطاً يناسب عقول الناس على اختلاف علومهم وثقافتهم .

رابعاً: أربعون حديثاً تساعية الإسناد :

وهو كتاب صغير الحجم، يحتوي على أربعين حديثاً خرجها ابن دقيق العيد لنفسه من مسموعاته، وهي موجودة في دار الهيئة المصرية العامة للكتاب،

(١) الأذفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧٥ .

كاتبها محمد بن محمد بن علي الأسعداني ، وقال في آخرها أنه قد انتهى منها ثاني عيد الأضحى سنة (٦٩٨هـ) ، وذلك في المدرسة الكاملية ، وعدد صفحاتها (٢٤) صفحة . وقد ذكر هذا الكتاب كل من الذهبي ، ومحمد محمد مخلوف ، والصفدي^(١) . وقال النجيبى^(٢) عند ذكر مسموعاته من الشيخ من ذلك : أربعون حديثاً تساعية الإسناد من تخريجه ، من مسموعاته ، سمعتها عليه بدار الحديث الكاملية في القاهرة المعزية ، بقراءة صاحبنا الفاضل نور الدين المكي الهاشمي المعروف باليميني . وهي تحت رقم (٤٢٢) قسم مصطلح الحديث ، والحديث مكتبته تيمور وهي بخط مغربي صغير رديء يصعب قراءته .

خامساً : الأربعون حديثاً في الرواية عن رب العالمين :

وهو كتاب اشتمل على أربعين حديثاً قدسياً كما يشعر ذلك من عنوانه ، ذكره كل من الصفدي والذهبي .

أما بالنسبة لمؤلفاته في علم الحديث دراية فهما كتابان :

الأول : كتاب الاقتراح في معرفة الاصطلاح .

وهو كتاب في مصطلح الحديث مخطوط ذكره الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي في ألفيته^(٣) . وقد ذكره حاج خليفة والنجيبى

(١) انظر «تذكرة الحفاظ» ج ٤ ص ١٤٨٢ ، و«الشجرة الزكية» ص ١٨٩ ، و«الوافي» ج ٤ ص ١٩٣ .

(٢) النجيبى : «مستفاد الرحلة والاعتراب» ص ٢١ .

(٣) ذكره عند التكلم عن القسم الثاني من أقسام الحديث وهو الحسن فقال :

ولأبي الفتح في الاقتراح أن انفراد الحسن ذو اصطلاح كما ذكره في مواضع أخرى .

والسيوطي^(١) ومعظم من ترجم له ، وقد اطلعت على هذا الكتاب مصوراً في مكتبة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عن نسختين مخطوطتين ، إحداهما في مكتبة برلين الوطنية ، والثانية في مكتبة لندن . وهو كتاب جليل عظيم الفائدة في هذا العلم كما وصفوه ، وقد جاء في مقدمته ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله الحمد لله رب العالمين ، وبحوله نستعين ، وبهدايته نعرف الحق ونستبين ، وإياه نسل أن يصلي على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذه نبذة في فنون مهمة في علوم الحديث ، يستعان بها على فهم مصطلحات أهلها ، ومقاصدهم ، ومراميهم ، على سبيل الاختصار والإيجاز ، لتكون كالمدخل إلى التوسع في هذا الفن - إن شاء الله تعالى - وهو مرتب على أبواب . . . الخ .

وقد قسم الكتاب إلى تسعة أقسام :

- الباب الأول : ذكر فيه أقسام الحديث وقد قسمه إلى اثنين وعشرين قسماً وتكلم فيه بالتفصيل عن كل قسم .
- الباب الثاني : في كيفية السماع والتحمل .
- الباب الثالث : في آداب المحدث .
- الباب الرابع : في آداب كتابة الحديث .
- الباب الخامس : في معرفة العالي والنازل .
- الباب السادس : في معرفة بقايا من الاصطلاح .
- الباب السابع : في معرفة الثقات من الرواة .

(١) «كشف الظنون» ج ١ ص ١٣٥ ، «مستفاد الرحلة والاغتراب» ص ٢٠ ، «حسن المحاضرة» ج ١ ص ١٢٨ .

الباب الثامن : في معرفة الضعفاء .

الباب التاسع : في ذكر طرف من الأسماء المؤتلفة والمختلفة .

ثم ختم الكتاب بذكر سبعة أقسام من الأحاديث، وذكر من كل قسم منها أربعين حديثاً وهي كما يلي :

القسم الأول : المتفق على إخرجه في صحيح البخاري ومسلم .

القسم الثاني : فيما انفرد به البخاري عن مسلم .

القسم الثالث : فيما انفرد به مسلم عن البخاري .

القسم الرابع : ما كان على شرطهما ولم يخرجاه .

القسم الخامس : ما كان على شرط البخاري ولم يخرجه مسلم .

القسم السادس : أخرج مسلم عن رجالها في الصحيح، ولم يحتج برجالها البخاري .

القسم السابع : في أحاديث يصححها بعض الأئمة ليست على شرط الشيخين واللفظ فيها لأبي داود إلا ما بين .

الثاني : كتاب طبقات الحفاظ .

وهو كتاب خاص في رواية الحديث على حسب طبقاتهم ، كما يشعر ذلك

اسمه ، وقد ذكره تلميذه النجيب وقال : ذكر لي الشيخ ابن دقيق العيد أنه في مجلدين ، كما ذكره تلميذه ابن رشيد نقلاً عن أبي حيان الغرناطي . ولم أعثر له على أثر .

وبعد أن تكلمت عن أدبه وعلمه بالحديث يحسن أن أتعرض لعلمه في

علم التوحيد فإنه رحمه الله له مصنف فيه وهو كتاب (عقيدة ابن دقيق العيد) ذكره حاج خليفة بهذا العنوان وقال أوله الحمد لله العالم . . . الخ . وقال : وشرحها

العلامة برهان الدين إبراهيم بن أبي شريف القدسي المتوفى سنة (٩٢٣هـ) وسماه (العقد النضيف) وقال وأوله: الحمد لله المتعالي في جلال قدسه، كما ذكره السبكي والسيوطي والزركلي فقالوا بأن له مصنف في أصول الدين ولم يذكروا اسمه. وقد بحثت عنه في المخطوطات فلم أجده. ويمكن معرفة تمكنه في هذا العالم واطلاعه على آراء غيره فيه، وطرقه في الاستدلال على صحة ما ذهب إليه من خلال شرحه لبعض الأحاديث التي تتعلق في العقيدة، فقد قام رحمه الله كما سبق أن ذكرت بشرح الأربعين النووية، ومن ضمن أحاديث الأربعين النووية بعض الأحاديث التي تتعلق بالعقيدة كالحديث الثاني الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بيان معنى الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة^(١) فمما جاء في شرحه له قوله: وقد استفيد من هذا الحديث أن

(١) ابن دقيق العيد: شرح الأربعين النووية.

نص الحديث: عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، فجعنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن إماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان»، ثم انطلق، فلبث ملياً ثم قال: «يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» [رواه مسلم].

الإسلام والإيمان حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً، وهذا هو الأصل في الأسماء المختلفة، وقد يتوسع فيها الشرع فيطلق أحدهما على الآخر على سبيل التجوز.

ثم قال: الإيمان بالله: هو التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال، منزه عن صفات النقص، وأنه واحد صمد فرد خالق جميع المخلوقات متصرف فيما يشاء، يفعل في ملكه ما يريد.

والإيمان بالملائكة: هو التصديق بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

والإيمان برسول الله: هو أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى. أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلغوا عن الله رسالته وبينوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وأنه يجب احترامهم وأن لا يفرق بين أحد منهم.

والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بيوم القيامة وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه جزائه للمحسنين والمسيئين إلى غير ذلك مما صح من النقل.

والإيمان بالقدر: هو التصديق بما تقدم ذكره، وحاصله ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ونحو ذلك، ومن ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عباس: «... واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

وقد فسر رحمه الله قوله عليه السلام «رفعت الأقلام وجفت الصحف» عند شرحه للحديث الذي وردت به بقوله: هذا تأكيد أيضاً لما تقدم أي لا يكون

خلاف ما ذكرت لك بنسخ أو تبديل^(١).

ثم قال بعد هذا البيان بالنسبة لمعنى الإيمان بالقدر: ومذهب السلف وأئمة الخلف أن من صدق بهذه الأمور تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تردد كان مؤمناً حقاً سواء كان ذلك عن براهين قاطعة أو اعتقادات جازمة.

ثم نقل ما ذكره النووي عند شرحه لهذا الحديث في شرحه مسلم بالنسبة لبيان معنى الإسلام والإيمان، وذكر أهم الآراء التي نقلها النووي في ذلك، فقال قال الشيخ محي الدين في شرحه لهذا الحديث:

أهم ما يذكر في هذا الحديث بيان الإسلام والإيمان والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله تعالى وذكر في بيان الإسلام والإيمان كلاماً طويلاً، وحكى فيه أقوال جماعة من العلماء.

منها ما حكاه عن الإمام أبي الحسين المعروف بابن البطل المالكي أنه قال: مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ ونحوها من الآيات.

قال بعض العلماء: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها. قالوا وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وبين أصل وضعه في اللغة.

وبعد أن ذكر ما نقله النووي من الآراء حول معنى الإيمان والإسلام ذكر رأيه في ذلك مع الدليل، والرد على الآراء التي نقلها النووي فقال: وهذا الذي قاله

(١) ابن دقيق العيد: «شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد» ص ٥٢. أقول هذا الشرح والتوضيح لمعنى القدر هو أفضل بيان لمعناه.

هؤلاء، وإن كان ظاهراً فالأظهر والله أعلم؛ أن التصديق يزيد بكثرة النظر لظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان المصدقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا يغرنهم السفة ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لاتزال قلوبهم منشرحة منيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، فأما غيرهم من المؤلففة ومن قاربهم فليسوا كذلك، وهذا لا يمكن انكاره ولا يشك في نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه لا يساويه آحاد تصديق الناس، ولهذا قال البخاري في صحيحه:

قال ابن مليكة: أدركت ثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل عليهم السلام. فقرر أن الإيمان هو تصديق الباطن لغة وشرعاً.

وقال: وأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فمتفق عليه عند أهل الحق ودلائله أكثر من أن تحصر.

قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم.

ونقل عن ابن الصلاح ما يؤيد رأيه في أن الإيمان هو التصديق الباطن لغة وشرعاً، وأن ثمرته العمل، وأن الإسلام والإيمان حقيقتان متباينتان لغة وشرعاً وأنه قد يتوسع فيهما الشرع فيطلق إحداهما على الآخر على سبيل التجوز.

فقال: حكى عن الشيخ أبي عمر بن الصلاح في قوله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة . . . الخ».

ثم فسر الإيمان بقوله: «أن تؤمن بالله تعالى وملائكته . . . الخ». قال رحمه الله: هذا بيان أصل الإيمان وهو التصديق الباطن، وبيان أصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر، وحكم الإسلام في الظاهر ثبت في الشهادتين، وإنما أضاف إليها الصلاة والزكاة والصوم والحج لكونها أظهر شعائر الإسلام

وأعظمها، وبقيامه بها يصح استسلامه، ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات، لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان.

ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة، لأن اسم الشيء مطلقاً يقع على الكامل فيه، ولا تستعمل في الناقص ظاهراً إلا بنية وكذلك جاز اطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن». واسم الإسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن، ويتناول أصل الطاعات فإن ذلك كله استسلام. قال: فخرج بما ذكرناه أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً، وقال: فهذا التحقيق واف بالتوفيق، ونصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون. وما حققنا من ذلك موافق لمذهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم والله أعلم. انتهى ما نقله عن ابن الصلاح مع الشرح.

وأبان قبل ذلك المراد من قوله عليه السلام: «أن تَلِدَ الأُمَّةُ رَبَّتَهَا» وهو مما ورد في الحديث عن علامات الساعة فقال بعد أن بين معاني الألفاظ: اختلف العلماء في قوله: «أن تَلِدَ الأُمَّةُ رَبَّتَهَا» ف قيل المراد أن يستولي المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسري فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه، وعلى هذا فالذي يكون من إشارات الساعة استيلاء المسلمين على المشركين وكثرة الفتوح والتسري.

وقيل معناه أن تفسد أحوال الناس حتى يبيع السادة أمهات أولادهم، ويكثر ترددهن في أيدي المشركين وربما اشتراها ولدها ولا يشعر بذلك.

فعلى هذا الذي يكون إشارات الساعة غلبة الجهل بتحريم بيعهن .
وقيل معنى أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته
من الإهانة والسب .

من هذا نرى أن ابن دقيق العيد رحمه الله كان متمكناً من علم التوحيد
مطلعاً على آراء العلماء فيه، فقد حقق معنى الإيمان ومعنى الإسلام، فعرض
أهم الآراء التي نقلها النووي فيها، ثم ذكر رأيه وناقش تلك الآراء واستدل لرأيه بأدلة
دامغة، وعقب على ذلك بذكر رأي من يقول برأيه من العلماء مع ذكر دليلهم .
ونختم هذا الفصل الخاص بعلمه بذكر الكتب التي ألفها في أنواع العلوم
المختلفة .

مؤلفاته في العلوم عامة :

- ١ - كتاب إحكام الأحكام ، شرح عمدة الأحكام ، وهو مطبوع وقد وضع
عليه الصنعاني حاشية سماها بالعدة على العمدة .
- ٢ - كتاب الإلمام في أحاديث الأحكام وهو مطبوع تحقيق السيد محمد
سعيد مولوي .
- ٣ - شرح الأربعين النووية وهو مطبوع .
- ٤ - شرح كتاب الإلمام وقيل إنه لم يكمل شرحه (ستأتي ترجمته عند
التحدث عن أثره في الفقه عامة) .
- ٥ - كتاب الإمام في معرفة أحاديث الأحكام (ترجم له في بحث
الحديث) .
- ٦ - كتاب الاقتراح في بيان الاصطلاح (ترجم له في بحث الحديث) .

- ٧ - كتاب طبقات الحفاظ (ترجم له في بحث الحديث).
- ٨ - أربعين حديثاً تساعية الإسناد (ترجم له في بحث الحديث).
- ٩ - الأربعون حديثاً في الرواية عن رب العالمين (ترجم له في بحث الحديث).
- ١٠ - شرح كتاب الجامع بين الأمهات المشهور بمختصر ابن الحاجب في الفقه، وصل فيه إلى باب الحج . ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه المالكية.
- ١١ - شرح مختصر أبي شجاع في فقه الشافعية (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه الشافعية).
- ١٢ - شرح العمدة في فروع الشافعية (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه الشافعية).
- ١٣ - شرح عيون المسائل في نصوص الشافعي لأبي بكر أحمد بن الحسين بن سهل الفارسي (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه الشافعية).
- ١٤ - كتاب شرح مختصر التبريزي في فقه الشافعية (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه الشافعية).
- ١٥ - شرح بعض مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه المالكية).
- ١٦ - شرح العنوان في أصول الفقه (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه الشافعية).
- ١٧ - شرح مقدمة المطرزي في أصول الفقه (ستأتي ترجمته عند التحدث عن أثره في فقه الشافعية).

١٨ - شرح كتاب المحصول للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ذكره تلميذه ابن رشيد ج ٣ ص ١/٦٣).

١٩ - إملأ على مقدمة كتاب عبد الحق: وهو كتاب الأحكام الصغرى لأبي محمد عبد الحق الغرناطي المعروف بابن عطية ذكره الأدفوي في الطالع السعيد ص ٥٧٦ كما ذكره ابن رشيد في رحلته ج ٣ ص ١/٦٣. وقد أخبرني ممن أثق به بأنه موجود في مكتبة شوروم رقم (٣١٩٠) نوادر المخططات.

٢٠ - تحفة اللبيب في شرح التقريب (ذكره خير الدين الزركلي بالأعلام) ج ٧ ص ٧.

٢١ - اقتناص السوانح فوائد ومباحث مختلفة (ذكره خير الدين الزركلي: الأعلام ٧/٧ ط ٣، وذكره الأدفوي: الطالع السعيد ص ٥٧٦، وقد وصفه الأدفوي فقال أتى فيه بأشياء غريبة، ومباحث عجيبة، وفوائد كثيرة ومواد غزيرة.

٢٢ - كتاب الأمالي (كتاب أملاه بدار الحديث بقوص ذكره النجيبى: مستفاد الرحلة والاعتراب ص ٢٠).

٢٣ - كتاب عقيدة ابن دقيق العيد وقد شرحه برهان الدين إبراهيم ابن شريف المقدسي المتوفى سنة (٩٢٣هـ).

٢٤ - التشديد في الرد على غلاة التقليد (ستأتي ترجمته في البحث الخاص في درجته في الاجتهاد).

٢٥ - ديوان خطب (ذكره كل من السبكي في طبقاته ج ٦ ص . . والنجيبى في مستفاد الرحلة والاعتراب ص ٢٠ وصاحب الشجرة الزكية ص ١٨٩).

٢٦ - ديوان شعر جمعه له السيد علي صافي حسين (طبعته دار المعارف بالقاهرة).

الفصل الثاني أثره في الفقه

كان أكثر ما امتاز به ابن دقيق العيد رحمه الله من العلوم هو علم الفقه . لا سيما فقه الحديث والاستنباط منه .

قال تلميذه أبو الفتح بن سيد الناس اليعمري^(١) :

وكان حسن الاستنباط للأحكام والمعاني من السنة والكتاب ، بلب يسحر الألباب ، وفكر يستفتح له ما يستغلق على غيره من الأبواب ، مستعيناً على ذلك بما رواه من العلوم ، مستبيناً ما هنالك بما حواه من مدارك الفهوم ، مبرزاً في العلوم النقلية والعقلية ، والمسالك الأثرية ، والمدارك النظرية .

وقال السبكي^(٢) : فوائد الشيخ تقي الدين ومباحثه أكثر من أن تحصى ، ولكنها غالباً متعلقة بالعلم من حيث هو حديثاً وأصولاً وقواعد كلية ، كما يراها الناظر في مصنفاته ، ولا سيما فقه الحديث والاستنباط منه ، كان إمام الدنيا في ذلك .

وكان رحمه الله ينظر إلى الفقه نظرة مهابة وإجلال وإكبار ، ونظرة خطيرة لما فيه من إدراك مقاصد الشارع، ولما يترتب على أحكامه من عواقب .

فقد جاء في مقدمته لشرح مختصر ابن الحاجب ما نصه^(٣) :

-
- (١) الأذفوي : « الطالع السعيد » ص ٥٧ .
 - (٢) السبكي : « طبقات الشافعية » ج ٦ ص ١٩ .
 - (٣) السبكي : « طبقات الشافعية » ج ٦ ص ١٣ - ١٤ .

«أما بعد فإن التصنيف في علم الأحكام وتبيين الحلال من الحرام؛ وإن كان شدة الحاجة إليه تُوجب وقف الهمم عليه، ووقوف الإمكان بين يديه، فإن شدة خطره، وعظيم غره، مما يوجب مهابة الشروع في تلك المشارع، والتوقف عن الحكم على مقاصد الشارع.

ما هي إلا أعراض تُنتهك، وأجسام تُنتهك، وأعمال يتعب لها وينصب، وأموال يُثبت ملكها ويُسلب، ودماء تُعصم وتُسفح، وأبضاع تُحرّم أو تُنكح.

هذا مع تشعب مواقع النظر، وتعارض مسالك العبر، وملالٍ يعترى الأذهان، وتقصيرٍ جِبِلٍّ عليه طبع الإنسان. فالطريقُ خفيُّ المسارب، والغاية مخوفةُ العواقب. وما قلَّ من ذلك يتقوى خاطر الرادع، ويتوقى الرأي الخادع ويخاف الأمن ويعلق الرادع.

ولقد كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، لطريق هذا الخوف سالكين، ولأزمة الورع والخشية مالكين، فتدافعوا الفتوى لشدة التقوى، وأجابوا عن السير عندما سألوا عن الكثير، وأجروا الدُموعَ فرقاً. وجروا إلى غاية التحري طلقاً. ثم آل الأمر إلى التسامح والتساهل، والغفلة والتغافل، فأطلقت أعنة الأقلام، وأرسلت بواذر الكلام. وطوي بساط التورع رأساً، وعُدَّ التوقفُ جهالةً أو وسواساً، وتوهموا التسرعَ دليلاً على كثرة الحاصل، والأحجام علامةً على قلة الواصل، وأحدُ الأمرين لازم لهم! إما أن يدعوا أنهم أعلمُ ممن سبق، أو يسلموا أنهم ما طرَق قلوبهم من مخافة الله ما ألمَّ بقلوب العارفين وطرَق، هذا ما يتعلق بغرور الأخرى. أما في الدنيا . . . الخ.

ومع اعتقاده بخطورة علم الفقه، قام رحمه الله بالاشتغال به خدمة للدين وأهله، ولما لهذا العلم من شرف وثواب عند الله إذا أخلص الإنسان النية لله سبحانه وتعالى.

وقضى معظم حياته في التدريس والتصنيف في الفقه على المذهبين ، ثم في شرح أحاديث الأحكام ، وبيان الآراء الفقهية ، وذكر أدلة الفقهاء في جميع المذاهب ، كما كان يقضي قسماً كبيراً من وقته في الإفتاء على المذهبين .

وكان رحمه الله إماماً من أئمة الفقه ، قد حذق المذهبين ، مذهب مالك والشافعي ، وتمكن منهما في ريعان شبابه ، فهو لم يكن قد درس المذهبين وعرف مسائلهما فقط ، وإنما جاوز ذلك بأن وقف على أدلة قضايا كل من المذهبين ثم اشتغل في التدريس والتأليف فيهما ، ثم في جمع وشرح أحاديث الأحكام .

وستكلم في هذا الفصل إن شاء الله عن أثره في الفقه المالكي ، وأثره في الفقه الشافعي ، ثم أثره في الفقه الإسلامي عامة ودرجته في الاجتهاد .

المبحث الأول أثره في الفقه المالكي

بعد أن أتقن رحمه الله دراسة مذهب مالك، واطلع على أدلة مسائله، قام بتدريسه في قوص، ثم في القاهرة، ثم أصبح مجتهداً في نطاق مذهب مالك. فإن من عرف الآراء في مذهب، وعرف أدلة كل رأي، وكان على درجة من الذكاء، استطاع أن يفاضل بين الآراء، ويميز بين الأقوال قوة وضعفاً، كما استطاع أن يستنبط الأحكام ضمن قواعد وأصول المذهب، ويكون بذلك قد خرج عن دائرة التقليد إلى دائرة الاجتهاد، ولكن في إطار المذهب، ولا شك أن ابن دقيق العيد كان على اطلاع وذكاء يمكنه من ذلك.

ومما يدل أيضاً على أنه كان قد بلغ درجة الاجتهاد في مذهب مالك وأنه كان يقصد في الفتوى فيه، ما رواه ابن رشيد في كتابه المعروف برحلة ابن رشيد حيث جاء فيه ما نصه^(١):

أول يوم رأيته - أي ابن دقيق العيد - يوم رأيته في المدرسة الصالحية، دخلها لحاجة عرضت له، فسلمت عليه وهو قائم، وقد حف به جمع من طلاب العلم، وعُرضت عليه ورقة سُأل فيها عن البسمة في قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة، وكان السائل فيما ظننته مالكيّاً، فقال الشيخ رضي الله عنه في جوابه. إلى قراءتها للمالكيين. خروجاً من الخلاف في إبطال الصلاة بتركها، وصحتها مع قراءتها. فقلت له يا سيدي أذكر في المسألة ما يشعر لاختياركم.

(١) ابن رشيد: «رحلة ابن رشيد» ج ٣ ص ٥٨ - ٥٩.

فقال: وما هو فقلت: ذكر أبو حفص وأردت أن أقول الميانشي فغلطت وقلت ابن شاهين قال: صليت خلف الإمام أبي عبد الله المازري فسمعتة يقرأ باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين . . . الخ السورة، فلما خلوت به قلت له يا سيدي: سمعتك تقرأ في صلاة الفريضة كذا، فقال لي أوقد فطنت لذلك يا عمر، فقلت له: يا سيدي أنت إمام في مذهب مالك، ولا بُدَّ أن تُخبرني، فقال: اسمع يا عمر قول واحد في مذهب مالك: إن من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم لا تبطل صلاته، وقول واحد في مذهب الشافعي: إنه من لم يقرأ باسم الله الرحمن الرحيم بطلت صلاته، فإنما أفعل ما لا تبطل به صلاتي في مذهب إمامي، و(لا)(١) تبطل في مذهب الغير، فتركني شيخنا رضي الله عنه حتى استوفيت الكلام وهو مصغٍ لذلك، فلما قطعت كلامي قال: هذا حسن إلا أن التاريخ يأبى ما ذكرت، فإن ابن شاهين لم يلق المازري، فقلت إنما أردت الميانشي، فقال: لكان صح ما ذكرته.

وقد كان رحمه الله يقوم بتدريس المذهب في معظم حياته ويفتي فيه ويشرح بعض مصنفاة.

مؤلفاته في المذهب المالكي

١ - شرح كتاب (الجامع بين الأمهات) المشهور بمختصر ابن الحاجب في الفقه: قام رحمه الله بشرح مختصر الشيخ أبي عمرو عثمان بن الحاجب في الفقه إلا أنه لم يتم ووصل فيه إلى باب الحج(٢).

قال صاحب الشجرة الزكية عن هذا المختصر: إنه اختصره من ستين

(١) في المخطوط وتبطل في مذهب الغير بدون (لا) وقد أضفتها لأجل استقامة المعنى.

(٢) محمد محمد مخلوف: «شجرة النور الزكية» ص ١٨٩ وغيره.

ديواناً، وفيه ست وستون ألف مسألة^(١).

وقد كتب ابن دقيق العيد رحمه الله مقدمة للشرح، وبالغ في المقدمة في مدحه، فقد قال بعد الحمد والصلاة على النبي ﷺ، وبيان أهمية الفقه وخطورته ما نصه: «أتى فيه بالعجب العُجاب، ودعا قَصِيَّ الإِجَادَةِ فكان المُجَاب، وراضَ عَصِيَّ المُرَاد، فزال شِمَاسُهُ وانجَاب، وأبدى ما حَقُّهُ أَنْ تُصَرَّفَ أَعِنَّةُ الشُّكْرِ إِلَيْهِ، وتُلَقَّى مَقَالِيدُ الاستِحسان بين يديه، وأن يُبَالِغَ في استحسانه ويُشكِرَ نَفَحَاتُ خَاطِرِهِ. ونَفَثَاتُ لِسَانِهِ، فإنه رحمه الله تيسَّرت له البلاغة، فتَفِيَّاً ظَلَّهَا الظَّلِيل، وتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ فكان خَاطِرُهُ ببطن المسيل، وقَرَّبَ المرمى فخَفَّفَ الحِمْلَ الثَّقِيل، وقام بوظيفة الإيجاز، فناداه لسانُ الإنصاف: ما على المحسنين من سبيل.

وقد ذكر بعد ذلك مقصده في شرح هذا المختصر، وما قام به من مجهود، من فك ألفاظه، وتوضيح معانيه، ليسهل فهمه، ويعم الانتفاع به. ونسب الأقوال التي لم ينسبها المصنف إلى أصحابها، مع تمييز قول الإمام عن أقوال تلاميذه عند الخلاف، مع ذكر التوجيه والتعليل، وترجيح الأصح من الأقوال والأقرب من الصواب، مع ذكر الأدلة ومناقشتها، وبيان الصحيح من الأحاديث، والضعيف والتي استدل بها، من غير تعصب لأحد من العلماء، نصيحة للدين والسنة.

وقد ذكر رحمه الله مقصده من شرحه لهذا المختصر وحدده بعشرة أمور فقال:

الأول: التعرض لبسط ألفاظه المُقفلة، وإيضاح معانيه المُشكلة، وإظهار مُضمراته المهملة، فأذكرُ المسائل أو المسئلة، أبسطُ العبارة فيها، واقتصر على

(١) محمد محمد مخلوف: «شجرة النور الزكية» ص ١٦٧.

ذلك أن رأيت أنه يكفيها، وإلا رجعتُ إلى تنزيل ألفاظ الكتاب على ذلك الذي بسطته موضعاً موضعاً. لأجمع بين البيان الإجمالي والتفصيلي معاً، اللهم إلا مواضع يسيرة أخذ الإشكال بخنقها، ورامت الأذهان الرائعة سلوكها، فالتبس عليها جميع طرقها، فإننا نطوي تلك على غيرها^(١)، ونربأ بأنفسنا عن ركوب مراكب العسف مستعيزين بالله من شرها، والعاقل يختار السكوت على التخليط، وإذا لم يكن بُدُّ من أحد الحاملين فجيء هذا بالبيسط.

على أنني لا أجزم بالصحة لتلك المواضع، ولا أعتقد العصمة إلا لمن يشهد له بها القواطع، ولقد سمعتُ أبي رحمه الله، يحكي ما معناه أو قريب منه: أن المصنّف سُئل عن شيء من هذا الكتاب، فلم يأت منه بجواب، وذكر أنه إنما وضعه على الصّحة.

الثاني: تفسير ألفاظه الغريبة واللغوية، وكيفية النطق بها على مقتضى العربية، وذكر شيء من الاشتقاقات الأدبية، والتحرُّز مما يُعدُّ من لحن العوام، والتحفُّظ من التصحيف، الذي هو إحدى القوام^(٢)، ولقد بُلي بذلك من ضَعْفَةِ الفقهاء من صغره^(٣) من الأدب مزأده^(٤)، وقُلَّ في طريق العربية زأده، وخفَّت عن تلك اللطائف طباعه، وتناءت عن تلك المناهل رباعه.

الثالث: أنسب الأقوال المهملة إلى أربابها إذا أطلقت، وأميز أقوال الإمام من أقوال الصحابة إذا علّمت المخالفة بينهم وتحققت، وأبين الأصح من القولين

(١) يقال: طويت الثوب على غرة: أي على كسره الأول، وكل كسر مثنى في ثوب أو جلد

غرة، بفتح الغين، «اللسان» (غ ر). والمراد أبقيا كما هي.

(٢) القوام بضم القاف وهو داء يصيب الخيل في قوائمها، والمراد أحد الأمراض.

(٣) يقال صَفِرَ الإِناء من الطعام والشراب: خلي.

(٤) مُزأده: جمع مزأده وهي التي يحمل فيها الماء.

إذا لم يُبين، وأعيُنُ الأشهرَ من الخلافِ إذا لم يُعيَّن، كلُّ ذلك بحسبِ ما انتهى علمي إليه، ووقف بحثي بحسبِ الحالِ الحاضرِ عليه.

الرابع: أراعي في المسائلِ المذهبيةِ التوجيهَ والتعليلَ، ولا أدعها تتردّد بين أنحاءِ التعليلِ^(١)، فما قويت في الاعتبارِ مُنته^(٢) ومبانيه، ورجحت عندَ النظرِ رُبته ودرأيته، أوضحت الطريقَ إليه أيّ إيضاح، وجلوتُ الحقَّ هنالك كالقمرِ اللّياح، وما ضَعُفت من القواعدِ مادّته، وخَفَيْت على التّحقيقِ حادّته، اكتفيت فيه بالميسورِ من التعليلِ، أو أخذتُ على غيري فحكيتُ ما قيل، فما كلُّ مسكٍ^(٣) يصلحُ وعاءً للمسكِ ولا كلُّ ضعيفٍ يوسمُ بِسَمَةِ التّركِ.

الخامس: أحكم من صناعةِ الحديثِ ما أورده، وأتقن ما أنص فيه وأسرده، فإن حكمتُ بصحّةِ حديثٍ بإسنادٍ ذلك إليّ، فبعد أن أنزعَ رداءَ التّعصّبِ عن منكبِي، وأودّي حَقَّ النّصحيةِ للسّنةِ كما يتعيّن، واحترزُ من الميلِ إلى نصرِ مذهبٍ مُعيّن، فإن وجدَ المُستدِلُّ مطلوبه، بنى على أوثقِ أساس، وإلّا فليعدلِ إلى غيرِ النّصِّ من أنواعِ الاستدلالِ والقياسِ.

وإن حكيتُ الصحّةَ عن غيري فعن حَقِّ لا تمتدُّ يدُ الشكِّ إلى لَبِسه، وقد قيل: من أحال على غيره فقد احتاط لنفسه، وما عزوته إلى الكتبِ المشهورة، فهو فيها عندَ المراجعةِ موجود، فإن وُجد في مَظَنَّتِهِ وإلّا فعندَ التّتبُّعِ يحصلُ المقصود. وقد وقع لجماعةٍ من الفقهاء وغيرهم في ذلك خلل، وأقدم بعضهم على أمرٍ لِيته عنه نكل.

وقد حكيتُ في هذا الكتابِ من غرائبِ الأخبارِ، وشواردِ الآثارِ، ما يعزُّ

(١) التعليل من (العله) بمعنى الداء والمرض.

(٢) منته: قوته وتطلق على الضعف أيضاً وهي من أسماء الأضداد، «المصباح المنير».

(٣) المسك: الإهاب، لأنه يُمسك فيه الشيء إذا جعل سقاء. «مقاييس اللغة» ٥ / ٣٢١.

وجوده عند الفقهاء الذين خَصُّوا الفقه بالعناية، وَحَصُّوا^(١) جناح المسير إلى الرواية.

السادس: ما جزمت بنقله عن أئمة الاجتهاد، تحرَّيتُ فيه، ومنحتُه من طريق الاحتياط ما يكفيه، فإن كان من أحد المذاهب الأربعة نقلته من كتب أصحابه، وأخذته عن المتن فاتبعْتُ الأمر من بابه، ولم اعتبر حكاية الغير عنهم، فإنه طريقٌ وقع فيه الخلل، وتعدَّد من جماعة من النُّقْلة فيه الزَّلَل، وحكى المخالفون للمذاهب عنها ما ليس منها.

وما كان من الأقوال للمتقدِّمين للصحابة ومن شدَّ عَمَّن ذكرناه من المخالفين، فاعتمادي فيه على كتاب الإشراف للحافظ أبي بكر بن المنذر رحمه الله فبأنواره اهتديت، وبطريقه إلى تلك الغاية اقتديت، فإن لم يكن فيه ذلك النُّقل ولم أره فيه، نقلتُ من غيره بعبارة مُلخَّصه، فقلت: وَحِكِي عن فلان كذا، أو عن فلان كذا، إلا ما جذمتُ بِصِحِّته، فإني أقطعُ القولَ بنسبته إليه.

ولما كنتُ لا أرى لأحد قولاً إلا ما نصَّ عليه، وتعدَّر عليَّ في كثير من المسائل معرفة نصِّ صاحب المذهب؛ لكون المسألة متَّفَقاً عليها عند ناقلته، رأيت أن أقول في مثل ذلك: قالت الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية، أو قال الحنفيُّ أو الحنبليُّ، وما قلت: فقد نُقل عن فلان، أو اشتهر عنه، فلا ألزِم نقله عن كتب أصحاب ذلك الإمام، لصدق اللفظ المذكور، وإن لم يُنقل من كتبهم.

السابع: اذكر في المسائل الخلافية المعروفة بمسائل الطريقة، موادَّ أصل الاجتهاد، فإن تعدَّدت اخترتُ الأمتن، وقصدتُ الأحسن، لا على وجه الإطالة الموجبة للملالة، ولا على طريقة الإجمال المفضي إلى الإخلال.

(١) الحصص: حلق الشعر، ويقال أحص الجناح أي قليل شعره.

ثم إن لأهل عصرنا وما واثاه نُكْتًا رَشِيقَةً : وطُرُقًا رَوْضَاتُهَا أُنِيقَةٌ ، أخذوا فيها مَأْخَذَ الإِعْرَابِ ، وأبَدُوا عَرَائِشَهَا كَالكَوَاعِبِ الأَتْرَابِ ، وأمَلُوا الإِبْدَاعَ فأدركوا التَّامِيلَ ، وظَفَرُوا فِيهِ بِالْمُعَلَّى^(١) لما أرسلوا أقداح المُجِيلِ^(٢) ، إلا أن أكثرهم أُولِعَ من تعبير المُبِينِ ، وبَالَغَ فِي إِغْلَاقِهَا حَتَّى لَا تَكَادُ تَبِينُ . إنما هو جدالٌ كالجلادِ وَخِيَالٌ تَزخَرُفُهُ الأَلْسِنَةُ الحِدَادِ ، فلم أَرِ إِخْلَاءَ هَذَا الكِتَابِ عَن شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا اسْتَحْسَنْتُ مَعَ ظِرَافِهَا أَن أُعْرَضَ بِالكُلِّيَّةِ عَنْهَا فَكسوتُ بَعْضَ المسائِلِ الفِقهِيَّةِ ذَلِكَ الوَشْيِ المَرْقُومِ ، وَأَنْفَتُ أَن يُضْحَى صَاحِبُ هَذِهِ الصَّيْغَةِ بِأَثَرٍ مِنْ رِزْقِهَا محروم ، ولم أَبالِغَ فِي الإِغْلَاقِ والإِبهامِ ، وَلَا أَكثَرْتُ مِنْ هَذَا النُّوعِ ، فَإِنَّهُ خُرُوجٌ عَن المِصْطَلَحِ فِي كِتَابِ الأَحْكَامِ .

الثامن : ما أسلُكُهُ مِنَ الطَّرِيقِ فِي الحِجَاجِ لَا أروغُ فِي رَوغانِ الثَعَالِبِ ، وَلَا أَرَجِّحُ مِنْ جَانِبٍ مَا ضَعَّفْتَهُ فِي جَانِبٍ ، وَلَا أَلْتَزِمُ فسادَ الدَّمِّ عِنْدَ المِخَالَفَةِ بِمِثْلِهِ ، وَلَا أَضَعُ شَخْصاً تَقَدَّمَ مِنِّي ذِكْرُ فَضْلِهِ ، وَلَا أَسْلُكُ طَرِيقَ اليَمَنِ ، فَإِن رَضِيتُ مَدَحْتُ ، وَإِن سَخِطْتُ قَدَحْتُ ، وَلَا أَتَهافتُ ، فَإِن فَعَلْتُ فَمَا أَنْصَفْتُ نَفْسِي وَلَا نَصَحْتُ ، فَلَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمٌ أَوْجَبُوا السَّبِيلَ إِلَى ذَمِّهِمْ ، فَأَقْرَأُوا عِنْدَ ذِكْرِ العِيوبِ عَيْنَ خِصْمِهِمْ ، فَأَطالَ عَلَيْهِمْ فِي التَّشْنِيعِ ، وَبَدَّدَ بِسوءِ ذَلِكَ الصَّنِيعِ ، وَنَسَبَ إِلَيْهِمْ مِحاوِلَةَ تَغْلِيطِ النَّاظِرِ ، وَتَوَهَّمُ فِيهِمْ أَن المَقْصُودَ المُغَالَبَةَ فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ ، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى سُلُوكِ هَذِهِ المَسالِكِ .

التاسع : لَسْتُ بِالرَّاعِبِ فِي جَلْبِ زَوائِدِ الفُرُوعِ المِسطُورَةِ ، وَحِصْرِ شِوارِدِ المسائِلِ المَذْكَورَةِ ، مَا لَمْ يَتَضَمَّنْ هَذَا المِجمُوعُ ، وَلَا رَفَعَ ذِكْرَ هَذَا المَوْضُوعِ ، فَإِن المَقْصُودَ إِنما هُوَ الشَّرْحُ ، فَلِيتَوَقَّفَ الغَرَضُ عَلَيْهِ وَلِتَتَوَجَّهَ الدَّواعِي وَالهِمَمُ إِلَيْهِ ،

(١) المعلى : «سابع سهام الميسر» .

(٢) المجيل : هو الذي يحرك السهام بين القوم ، ويقضي بها في القسمة .

واللائق بذلك الغرض كُتِبَ المسائل التي قُصد إلى جمعها، واستقلَّ أصحاب التصانيف بوضعها، ولكلِّ غايةٍ طريقٌ قاصدٌ يناسبها، ولكلِّ عزيمةٍ مأخذٌ من نحو ما يُصاحِبها.

فأما الأقوال المتصلة بما وضعه المصنّف وذكره والفروع المقارنة لما نظمه وسطره فإنني أمنحها طرفاً من العناية، وأولها جانب الولاية.

العاشر: اذكر الاستشكالات في مباحث^١ أُنْبِئَ فيها فهم الباحث وأرسلها إرسالاً، ولا أدعها تسير إرسالاً، وأوسع للناظر فيه مجالاً، حتى إذا خرج من السَّعة للضيق، وتبارز في ميدان التسابق فُرسانُ التحقيق، وأُخرجت أحكامُ النفوس من السير، وكان الطريق ميثاءً^(١) ينفذها البصر، ويستسير فيها العير، وسَلِمَت الممادح من القوادح ووقع الإنصاف، فربّما فضل الجذعُ على القارح^(٢)، فهناك تنكشف الأستار عن الحقائق، وتبين الفضيلة لسيل الوجيه ولا حق.

فهذه الطرق التي أقصدها، والأنحاء التي أعتمدها، ومن الله أعتمد العون، ومن الخسارة فيما نرجو ربحه أسأله الصّون، فبه القوّة والحول، ومنه الإحسان والطول، فإن لم يفض من رحمته سجال، ويتسع لمسامحته مجال، فالثَّباب والخسار، والتَّنائي عن منازل الأبرار، ونعوذُ بالله من عُمرٍ وعملٍ تقتحمها النار، وهذا حين الشروع في المراد، والله وليُّ التوفيق والإرشاد إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ومن المؤسف له أنني مع كثرة البحث عنه، وشدة الاشتياق إلى التطلع إلى ما جاء فيه مما ذكره الشارح ابن دقيق العيد لم أعثر له على أثره وأغلب الظن أنه

(١) الميثاء بكسير الميم: الطريق العامر المسلوک.

(٢) الجذع في الخيل: أن يستتم الفرس سنتين ويدخل في الثالثة، والقارح من الخيل: هو

الذي دخل في السنة الخامسة.

يوجد منه نسخة مخطوطة في المغرب العربي لأن كثيراً من المغاربة قد أخذوه عنه، بل درسوا عليه مختصر ابن الحاجب جميعه . وقال النجيبى ويقدر تمامه عشرين مجلداً، وقد قام بشرحه كاملاً أحد تلاميذه ممن درس عليه المختصر، وهو الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن راشد القفصي، قال صاحب الشجرة الذكية: وقرأ الإمام العلامة أبو عبد الله بن راشد القفصي على ابن دقيق العيد مختصر بن الحاجب الفرعي - أي مختصره الفقهي - ثم قال وله تأليف مفيدة شاهدة بفضله ونبله، منها:

- «الشهاب الثاقب في شرح مختصر بن الحاجب الفرعي» و«المذهب في ضبط قواعد المذهب» في ستة أسفار ليس للمالكية مثله . . . الخ .

وأغلب الظن أن معظم آراء وتوضيحات وتعليقات ابن دقيق العيد قد نقلها ابن راشد في شرحه، لأن التلميذ غالباً ما يتأثر بآراء شيخه ويدونها في مصنفاته .

- شرح مختصر ابن الحاجب في الأصول: قال المقرئزي في كتابه المقفى عن ابن دقيق العيد «شرح كتاب ابن الحاجب في الفقه على مذهب مالك وشرح كتاب ابن الحاجب أيضاً في الأصول»^(١) .

وقال صاحب كشف الظنون إن ابن دقيق العيد شرح بعضاً من مختصر ابن الحاجب في الأصول .

وأثناء البحث والتدقيق عنه في المخطوطات في المكتبات العامة اطلعت على نسخة مخطوطة فيها شرح لبعض مختصر ابن الحاجب، وعدد ورقاتها ست وثلاثون ورقة، والكتابة على الوجهين وهي بخط جيد وبأسلوب رصين وأغلب الظن أنها لابن دقيق العيد لأن أسلوبها في العرض والاستدلال يشبه إلى حد كبير

(١) المقرئزي: «المقفى» ج ٦ لوحة ١٦٥ - ١٢٦ .

أسلوب ابن دقيق العيد، وهي موجودة في الهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم (٥٠٣) قسم المخطوطات ولا يعلم كاتبها. والله أعلم.

وبالجملة فابن دقيق العيد كان من علماء مذهب مالك، وكان يعتبر من مجتهدي المذهب، وقد قضى قسماً كبيراً من حياته في خدمة المذهب تدريساً وإفتاءً وتأليفاً، وتخرج به من أئمة مذهب مالك وخاصة من مصر والشمال الإفريقي. قال صاحب الشجرة الزكية في طبقات المالكية في ترجمته له ما نصه: أبو الفتح محمد بن الإمام أبي الحسن علي بن دقيق العيد المعروف بتقي الدين المالكي الشافعي الإمام المفتي في المذهبين الفقيه الأصولي. العالم المفرد بمعرفة العلوم في زمانه والرسوخ فيها، اشتغل بمذهب مالك ثم بمذهب الشافعي^(١). . . الخ.

(١) «شجرة النور الزكية» ص ١٨٩.

المبحث الثاني أثره في الفقه الشافعي

بعد أن أخذ ابن دقيق العيد الفقه عن العز بن عبد السلام الأصول والفروع، وأتقن مذهب الشافعي، عاد إلى قوص وقام بتدريس مذهب الشافعي مع مذهب مالك، ثم انتقل إلى القاهرة وأخذ يدرس المذهبين في المدرسة الفاضلية، كما درس المذهب الشافعي في المدرسة الناصرية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وكان يدرس المذهب ويفتي الناس فيه طيلة حياته، حتى بعد توليه منصب قاضي القضاة.

وقد ارتفع في المذهب عن مستوى التقليد المطلق الذي يقف فيه العالم عند نص الإمام لا يحيد عنه، بل نظر إلى الأدلة وناقشها وبيّن صحيحها من سقيمها. وانتهت إليه رئاسة المذهب، في زمانه، ورحل إليه الطلبة من كل مكان وتخرج به أئمة من علماء المذهب الشافعي، سبق أن ذكرت قسماً كبيراً منهم وترجمة لثلاثة منهم^(١).

بعض مباحث الشيخ تقي الدين في المذهب الشافعي

فوائد الشيخ ومباحثه في المذهب الشافعي أكثر من أن تحصره إلا أنها مبثوثة في مصنفاته، وبعض كتب الشافعية، ومن مباحثه المشهورة: خيار التصرية^(٢)

(١) انظر ص ٦٤ - ٦٦.

(٢) التصرية: هي ربط أخلاف الأنعام ليمنع اللبن. وأصل هذه المسألة هو قول الرسول ﷺ: «لا تصروا الغنم، ومن ابتاع فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر، وفي لفظ وهو في الخيار ثلاثاً» متفق عليه.

فقد بحث ابن دقيق العيد في مستنده في المذهب الشافعي وفرع على ذلك فروعاً فقال: هل مستنده التدليس الصادر من البائع؟، أو الضرر الحاصل للمشتري؟ أي هل مستنده التغيرير الحاصل من البائع؟ أو الغرر الحاصل للمشتري؟ فقرر أن فيه وجهين مشهورين عند الشافعية يبني عليهما ما لو تحفلت الشاة بنفسها، بأن ترك صاحبها حلابها أياماً ناسياً لشغل عرض، أو صرّها غيره بغير إذنه. قال ابن دقيق العيد والأصح عند صاحب التهذيب، وبه قطع القاضي الحسين ثبوت الخيار، خلافاً للغزالي. وذلك بناء على أن سبب الخيار عند صاحب التهذيب والقاضي حسين هو الغرر الذي حصل للمشتري. وسبب الخيار عند الغزالي هو التغيرير.

كما حكى ابن دقيق العيد الخلاف في مذهب الشافعي فيما لو صرّها لا لأجل الخديعة ثم نسيها. وقال السبكي لم نر ذلك في كلامهم صريحاً، لكنه يتخرج على أن السبب التدليس، أو ضرر المشتري، فعلى الأول وهو أن السبب التدليس لا يثبت الخيار لأن البائع لم يقصد الخديعة، وعلى الثاني هو أن السبب ضرر المشتري يثبت الخيار لحصول الضرر.

الكتب التي ألفها في المذهب الشافعي

١ - كتاب شرح مختصر أبي شجاع:

مختصر أبي شجاع كتاب مشهور في فقه الشافعية ألفه أحمد بن الحسين بن أحمد الأصفهاني الشافعي المتوفى سنة (٥٠٠هـ).

شرحه شهاب الدين أبو الخير أحمد بن محمد بن عبد السلام الشافعي المعروف (بالمونفي) المتوفى سنة (٩٣١هـ)، وقد توسع في شرحه وسماه بـ (الإقناع) وشرحه أيضاً تقي الدين أبو بكر بن محمد الحصني الدمشقي سنة

(٨٢٩هـ) وكان ابن دقيق العيد رحمه الله قد شرحه قبلهما وذكر ذلك الإسنيوي رحمه الله^(١)، ولكنني لم أعتز لشرحه على أثر.

٢ - شرح كتاب عيون المسائل في نصوص الشافعي:

قام بتأليف هذا الكتاب أبو بكر أحمد بن الحسين بن سهل الفارسي المتوفى سنة (٣٠٢هـ) جمع فيه مُصنّفهُ أهم المسائل الفقهية في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه كما يشعر ذلك اسمه، وقد قام ابن دقيق العيد رحمه الله بشرحه ذكر ذلك صاحب كتاب كشف الظنون^(٢).

٣ - شرح كتاب العمدة في فروع الشافعية:

قام بتأليف الكتاب الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي المتوفى سنة (٥٠٧هـ) وشرحه علاء الدين علي بن محمد البغدادي المتوفى سنة (٧٤١هـ) وتاج الدين عمر بن علي الفكهاني المالكي المتوفى سنة (٧٣١هـ) وعمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة (٨٠٤هـ) كما شرحه الشيخ ابن دقيق العيد وقد ذكر طاش زادة أثناء التحدث عنه أنه في الحديث، فيكون مؤلفه جمع فيه أحاديث الأحكام التي اعتمدها عليها الشافعية في فقههم وقام هؤلاء الشراح بشرحها.

٤ - كتاب شرح مختصر التبريزي في فقه الشافعية:

قال السبكي وعلق شرحاً على مختصر التبريزي في فقه الشافعية. وقد بحث عنه في المخطوطات في مصر والأردن والسعودية فلم أعتز له على أثر.

(١) الإسنيوي: «طبقات الشافعية» ج ٢ ص ٢٢٩.

(٢) الحاج خليفة: «كشف الظنون» ج ٢ ص ١١٦٩ - ١١٧٠.

كتبه في الأصول

لقد كتب رحمه في أصول الفقه شارحاً لبعضها، والكتب التي ذكر المؤرخون أنه شرحها في أصول الفقه هي :

١ - كتاب : شرح مقدمة المطرزي في أصول الفقه .
ذكره الذهبي والصفدي .

٢ - كتاب : شرح كتاب عنوان الوصول في الأصول .
ذكره الإسنوي . وصاحب كشف الظنون .

قال صاحب كشف الظنون في التعريف بالكتاب : كتاب عنوان (الوصول في الأصول) في أصول الفقه، وشرحه الشيخ تقي الدين محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد الشافعي المتوفى سنة (٧٠٢هـ) . أوله الحمد لله ذي العظمة والجلال . . الخ . قال فهذه فصول مشتملة على تعريفات ومسائل لا غنية عنها للفقهاء في معرفة الأحكام، وأوردتها على سبيل الإيجاز، مقتصراً على رؤوس المسائل، مكتفياً بالأنموذج من نكت الدلائل، جردتها للمبتدئين في الفن، وهو عشر ورقات ولم يذكر اسم مؤلفه .

٣ - شرح كتاب (المحصول) للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي،
ذكر ذلك تلميذه ابن رشيد .

المبحث الثالث

أثره بالفقه عامة

أجمع المؤرخون الذين تعرضوا لعلم الشيخ ابن دقيق العيد أن أكثر ما امتاز به هو فقه الحديث، وأحاديث الأحكام كما نعلم قام عليها بنيان الفقه الإسلام بعد كتاب الله عز وجل، فلذلك عني العلماء بجمع أحاديث الأحكام وشرحها، فقد قام بجمع أحاديث الأحكام من العلماء الشيخ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الجماعيلي النابلسي ثم الدمشقي (٥٤١ - ٦٠٠) في كتابه (عمدة الأحكام) ويشتمل على أربعمائة وتسعة عشر (٤١٩) حديثاً، والشيخ مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني (٥٩٠ - ٦٥٢هـ) وهو جد الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية، في كتابه (منتقى الأخبار) تضمن خمسة آلاف وتسعة وعشرين (٥٠٢٩) حديثاً.

وشيخنا تقي الدين بن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢هـ) في كتابه «الإمام» ثم اختصره في كتابه «الإمام» واشتمل الإمام على ألف وأربعمائة وواحد وسبعين (١٤٧١) حديثاً.

والشيخ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٣٣ - ٨٥٢هـ) في كتابه «بلوغ المرام» تضمن ألف وخمسمائة وستة وتسعين (١٥٩٦) حديثاً.

هذه أشهر كتب أحاديث الأحكام ذكرتها بالترتيب بالنسبة لتاريخ جمعها فأقدمها «عمدة الأحكام» ثم كتاب «منتقى الأخبار» ثم «الإمام» فـ«الإمام» وأخرها «بلوغ المرام».

أما بالنسبة لشرحها فقد قام علامة اليمن الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني بشرح كتاب «بلوغ المرام» بكتابه الشهير «سبل السلام» وقام القاضي محمد بن علي الشوكاني بشرح «منتقى الأخبار» بكتابه «نيل الأوطار» .

أما بالنسبة لكتاب «عمدة الأحكام» وهو أقدمها وأجزها وأصحها حيث يشتمل على أعلى أنواع الصحيح من أحاديث الأحكام مما اتفق على إخرجه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما . فقد قام بشرحه شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد بكتابه إحكام الأحكام .

كما قام الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد بشرح كتابه «الإمام» كما شرحه غيره من العلماء منهم الشيخ شمس الدين محمد بن ناصر الدين .

أما بالنسبة لكتاب «الإمام» فلم يشرح كما فقد معظمه، فيكون ابن دقيق العيد رحمه الله قد وضع كتابين في أحاديث الأحكام وهما «الإمام» و«الإمام»، وشرح كتابين من أحاديث الأحكام وهما «عمدة الأحكام» و«الإمام»، فيكون بذلك له الحظ الأوفى واليد الطولى في خدمة أحاديث الأحكام فقهاً وجمعاً .

وسأتناول بعض آثاره الفقهية في هذين الكتابين الجليلين :

١ - كتاب إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام :

يعتبر كتاب إحكام الأحكام أفضل كتاب يدل على أثره بالفقه فهو خير شاهد على قوة استنباطه للأحكام الفقهية، والحكم بعلو منزلته في العلم، فهو يزخر بالمباحث الأصولية والفقهية الدقيقة، وليس قاصراً على المباحث الفقهية، وإنما هو أيضاً يشتمل على المصطلحات الأصولية والمباحث المنطقية فهو كما قال مستمليه من ابن دقيق العيد القاضي عماد الدين إسماعيل بن محمد بن الأثير الحلبي (فأملى علي من معانيه كل فن غريب، وكل معنى بعيد على غيره أن

يخطر بباله وهو عليه قريب).

فالكتاب هذا يعتبر صورة واضحة يتمثل فيها اجتهاده، وتتجلى فيها شخصيته الفقهية، كما يدل على سعة اطلاعه على آراء الأئمة الأربعة وأتباعهم وغيرهم من المجتهدين.

وقد عرض آراءهم وأدلتها بأسلوب علمي أدبي منطقي واضح المعاني والعبارة، مع سهولة المآخذ ووضوح المسائل، من غير تعصب لأحد من أئمة الفقه.

وقد راعى في عرض المسائل المذهبية التوجيه والتعليل، فما قوي في الاعتبار ورجح دليله، ووضحه ودلل من عنده على صحته وقواه، وما ضعف دليله اكتفى بذكر أدلة صاحب ذلك المذهب، وهو أربعة أجزاء.

وإليك على سبيل المثال شرحه للحديث الأول من هذا الكتاب.

الحديث الأول^(١): عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات - وفي رواية بالنية - وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أبو حفص^(٢) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بكسر الراء المهملة بعدها ياء مثناة من تحت، آخر الحروف^(٣)، وبعدها حاء مهملة. ابن عبد

(١) من كتاب «العدة» للصنعاني على «إحكام الأحكام» لابن دقيق العيد ص ٥٥ - ٨١، المطبعة السلفية ومكنتها.

(٢) الحفص: الأسد، وبه كنى النبي ﷺ عمر بهذا، لما كان عليه من الشد والشجاعة.

(٣) قوله آخر الحروف يقصد بها آخر حروف الأحرف الهجائية.

الله بن قرط ابن رزاح بفتح الراء المهملة بعدها زاي معجمة وحاء مهملة . ابن عدي بن كعب القرشي العدوي ، يجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي . أسلم بمكة قديماً وشهد المشاهد كلها وولي الخلافة بعد أبي بكر الصديق وقتل سنة ثلاث وعشرين من الهجرة في ذي الحجة لأربع مضيّن ، وقيل لثلاث .

ثم الكلام على هذا الحديث من وجوه^(١) :

أحدها : أن المصنف رحمه الله بدأ به لتعلقه بالطهارة ، وامثل قول من قال من المتقدمين أنه ينبغي أن يبتدأ به في كل مصنف . ووقع موافق لما قال^(٢) .

الثاني : كلمة إنما للحصر ، على ما تقرر في الأصول ، فإن ابن عباس رضي الله عنهما فهم الحصر من قوله ﷺ «إنما الربا في النسيئة»^(٣) وعورض بدليل آخر يقتضي تحريم ربا الفضل^(٤) ، ولم يعارض في فهمه للحصر . وفي ذلك اتفاق على أنها للحصر . ومعنى الحصر فيها : إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما

(١) لم يجعل ما قدمه عن حياة الراوي كلاماً على الحديث لأن المراد به الكلام على معانيه .

(٢) أي أن سبب بدء المصنف به لتعلقه بالطهارة ، والطهارة كما نعلم مفتاح الصلاة ، وذكر أن العلماء استحجوا أن يفتح المصنف بهذا الحديث ، وذلك تنبيهاً للطالب على تصحيح النية .

(٣) استدل على أنه إنما تفيد الحصر على فهم ابن عباس رضي الله عنهما أنها للحصر في حديث «إنما الربا في النسيئة» وتقرير الصحابة له في ذلك .

(٤) يقصد قول الرسول ﷺ : «التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى» رواه مسلم ، وهو صريح بتحريم ربا الفضل .

عداه، وهل نفيه عما عداه بمقتضى موضوع اللفظ، أو هو من طريق المفهوم؟ فيه بحث^(١).

الثالث: إذا ثبت أنها للحصر فتارة تقتضي الحصر المطلق، وتارة تقتضي حصراً مخصوصاً، ويفهم ذلك بالقرائن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ وظاهر ذلك حصره ﷺ في النذارة، والرسول لا ينحصر في ذلك بل له أوصاف جميلة كثيرة كالبشارة وغيرها، ولكن مفهوم الكلام يقتضي حصره في النذارة لمن لا يؤمن، ونفي كونه قادراً على إنزال ما اقترحه الكفار من الآيات، وكذلك قوله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَإِن كُنتُمْ تَحْتَضِمُونَ إِلَيَّ» معناه: حصره في البشرية بالنسبة إلى الاطلاع على بواطن الخصوم، لا بالنسبة إلى كل شيء، فإن للرسول ﷺ أوصافاً أُخر كثيرة، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يقتضي - والله أعلم - الحصر باعتبار من آثارها، وأما بالنسبة إلى ما هو في نفس الأمر فقد تكون سبيلاً إلى الخيرات، أو يكون ذلك من باب التغليب للأكثر في الحكم على الأقل. فإذا أُوردت لفظة إنما فاعتبرها، فإن دلّ السياق المقصود من الكلام على الحصر في شيء مخصوص فاعمل به، وإن لم يدل على الحصر في شيء مخصوص فاحمل الحصر على الإطلاق، ومن هذا قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

الرابع: ما يتعلق بالجوارح وبالقلوب، قد يطلق عليه عمل ولكن الأسبق إلى الفهم تخصيص العمل بأفعال الجوارح، وإن كان ما يتعلق بالقلوب فعلاً للقلوب أيضاً. ورأيت أن بعض المتأخرين من أهل الخلاف خصص الأعمال بما لا يكون قولاً، وأخرج الأقول من ذلك، وفي هذا عندي بعد. وينبغي أن يكون

(١) ذهب جمهور الأصوليين أنها تفيد الحصر بالمنطوق وضعاً حقيقياً، وذهب الآمدي وبعض الأصوليين وأهل اللغة إلى أنها تفيد ذلك عن طريق المفهوم.

لفظ العمل يعم جميع أفعال الجوارح ، نعم لو كان خصص بذلك لفظ الفعل كان أقرب فإنهم استعملوها متقابلين فقالوا: الأفعال والأقوال .

ولا تردد عندي في أن الحديث يتناول الأقوال أيضاً والله أعلم .

الخامس : قوله ﷺ الأعمال بالنيات ، لا بد فيه من حذف مضاف فاختلف الفقهاء في تقديره ، فالذين اشترطوا النية قدروا صحة الأعمال بالنيات أو ما يقاربه والذين لم يشترطوها قدروا كمال الأعمال بالنيات أو ما يقاربه . وقد رجح الأول بأن الصحة أكثر لزوماً للحقيقة من الكمال ؛ فالحمل عليها أولى لأن ما كان ألزم للشيء كان أقرب إلى خطورة بالبال عند إطلاق اللفظ ، وكان الحمل عليه أولى وكذلك قد يقدرونه إنما اعتبار الأعمال بالنيات ، وقد قرب ذلك بعضهم بنظائر من المثل كقولهم : إنما الملك بالرجال أي قوامه ووجوده ، وإنما الرجال بالمال ، وإنما المال بالرعية ، وإنما الرعية بالعدل ، كل ذلك يراد به أن قوام هذه الأشياء بهذه الأمور .

السادس : قوله ﷺ وإنما لكل امرئ ما نوى يقتضي أن من نوى شيئاً يحصل له ، وكل من لم ينو لم يحصل له ، فيدخل تحت ذلك ما لا ينحصر من المسائل ، ومن هنا عظموا هذا الحديث فقال بعضهم يدخل في حديث الأعمال بالنيات ثلث العلم ، فكل مسألة خلافية حصلت فيها نية فلك أن تستدل بهذا على حصول المنوي ، وكل مسألة خلافية لم تحصل فيها نية فلك أن تستدل بهذا على عدم حصول ما وقع فيه النزاع .

وسياتي ما يقيد به هذا الإطلاق ، فإن جاء دليل من خارج يقتضي أن المنوي لم يحصل ، أو أن غير المنوي يحصل وكان راجحاً عمل به وخصص هذا العموم .

السابع : قوله : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله » اسم الهجرة يقع على أمور: الهجرة الأولى إلى الحبشة عندما آذى الكفار الصحابة ؛ الهجرة الثانية من مكة إلى المدينة .

الهجرة الثالثة ؛ هجرة القبائل إلى النبي ﷺ لتعلم الشرائع ثم يرجعون إلى المواطن ، ويعلمون قومهم .

الهجرة الرابعة ؛ هجرة من أسلم من أهل مكة ليأتي إلى النبي ﷺ ثم يرجع إلى مكة ، الهجرة الخامسة هجرة ما نهى الله عنه . ومعنى الحديث وحكمه يتناول الجميع ، غير أن السبب يقتضي أن المراد بالحديث الهجرة من مكة إلى المدينة ، لأنهم نقلوا أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة ، لا يريد بذلك فضيلة الهجرة وإنما هاجر ليتزوج امرأة تسمى أم قيس ، فسمي مهاجر أم قيس ، ولهذا خص في الحديث ذكر المرأة دون سائر ما ينوي به الهجرة من أفراد الأغراض الدنيوية ثم أتبع بالدنيا .

الثامن : المتقرر عند أهل العربية أن الشرط والجزاء والمبتدأ والخبر لا بد وأن يتغايرا ، وهنا وقع الاتحاد في قوله فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، وجوابه أن التقدير فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصداً فهجرته إلى الله ورسوله حكماً وشرعاً .

التاسع : شرع بعض المتأخرين من أهل الحديث في تصنيف أسباب الحديث كما صنف في أسباب النزول للكتاب العزيز ، فوقفت من ذلك على شيء يسير له ، وهذا الحديث على ما ذكرناه من الحكاية عن مهاجر أم قيس واقع على سبب فيدخل في هذا القبيل ، وتنضم إليه نظائر كثيرة لمن قصد تتبعه .

العاشر : فرق بين قولنا من نوى شيئاً لم يحصل له غيره ، وبين قولنا من لم

ينو الشيء لم يحصل له والخديث محتمل للأمرين ، أعني قوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات . وآخره يشير إلى المعنى الأول ، أعني قوله : «ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

وجاء في شرحه لأول حديث من الجزء الثاني من الكتاب ما نصه : «عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل المسجد ، فدخل رجل فصلّى ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال : ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ ، فرجع فصلّى كما صلّى ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ ، فقال : ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ «ثلاثاً» فقال : والذي بعثك بالحق لا أحسن غيره فعلمني فقال : إذا قُمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئنّ راکعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئنّ جالساً ، وافعل ذلك في صلاتك كلّها» .

الكلام عليه من وجوه :

الأول : فيه الرفق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن النبي ﷺ عامله بالرفق فيما أمره به ، كما قال معاوية بن الحكم السلمي^(١) «فما كهربي» ووصف

(١) قوله «كما قال معاوية بن الحكم» يريد ما أخرجه مسلم عنه حينما شتمت عاطساً في الصلاة فقال يرحمك الله فأنكر عليه الصحابة ذلك أشدّ الإنكار ، إلا أن الرسول ﷺ قال له برفق بعد انتهاء الصلاة : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» . وقال معاوية : بأبي هو وأمي ، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهربي - أي نهربي - ولا ضربني ولا شتمني .
«مختصر مسلم ج ١ ص ٩٤ - ٩٥» .

يقف رسول الله ﷺ به . وكذلك قال في الأعرابي «لا تذرموه» ولم يُعنف^(١)، وفيه حسن خلق النبي ﷺ، وفيه تكرار ردّ السلام مراراً إذا كرّره المسلم، كما ورد في بعض طرقه مع الفصل القريب.

الثاني: تكرر من الفقهاء الاستدلال على وجوب ما ذكر في هذا الحديث وعدم وجوب ما لم يذكر فيه، فأما وجوب ما ذكر فيه فلتعلق الأمر به، وأما عدم وجوب غيره فليس ذلك كون الأصل عدم الوجوب، بل الأمر زائد على ذلك، وهو أن الموضع موضع تعليم^(٢) وبيان للجاهل، وتعريف بواجبات الصلاة، وذلك يقتضي انحصار الواجبات فيما ذكر. ويقوي مرتبة الحصر أنه ﷺ ذكر ما تعلق به الإساءة من هذا المصلي وما لم يتعلق به إساءته من واجبات الصلاة، وهذا يدل على أنه لم يقصر المقصود على ما وقعت فيه الإساءة فقط. فإذا تقرر هذا^(٣) فكل موضع اختلف الفقهاء في وجوبه، وكان مذكوراً في هذا الحديث، فلنا أن نتمسك به في وجوبه، وكل موضع اختلفوا في وجوبه، ولم يكن مذكوراً في هذا الحديث، فلنا أن نتمسك به في عدم وجوبه، لكونه غير مذكور في هذا الحديث، على ما تقدم من كونه موضع تعليم. وقد ظهرت قرينة مع ذلك على قصد ذكر

(١) ونص الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تذرموه دعوه، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، وإنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن» قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشبهه - أي رشه - عليه). [مختصر مسلم ج ١ ص ٥٧ - ٥٨].

(٢) قوله (موضع تعليم) لأن السائل قال: فعلمه.

(٣) قوله (فإذا تقرر هذا) أي إذا تقرر إن هذا الحديث دليل على وجوب ما ذكر فيه وعلى عدم وجود ما لم يذكر فيه.

الواجبات . وكل موضع اختلف في تحريمه^(١)، فلك أن تستدل بهذا الحديث على عدم تحريمه، لأنه لو حُرِّم لوجب التلبس بضده، فإن النهي عن الشيء أمر بأحد أضداده^(٢)، ولو كان التلبس بالضد واجباً لذكر على ما قررناه، فصار من لوازم النهي الأمر بالضد، ومن الأمر بالضد ذكره في الحديث على ما قررناه، فإذا انتفى ذكره - أعني الأمر بالتلبس بالضد - انتفى ملزومه وهو الأمر بالضد، وإذا انتفى الأمر بالضد انتفى ملزومه، وهو النهي عن ذلك الشيء .

فهذه الثلاث طرق^(٣) يمكن الاستدلال بها على شيء كثير من المسائل المتعلقة بالصلاة، إلا أن على طالب التحقيق في هذا ثلاث وظائف:

أحدها: أن يجمع طرق هذا الحديث، ويحصي الأمور المذكورة فيه، ويأخذ بالزائد فالزائد^(٤)، فإن الأخذ بالزائد واجب .

ثانيهما: إذا قام دليل على أحد أمرين - إما الوجوب أو عدم الوجوب^(٥) - فالواجب العمل به، ما لم يعارضه ما هو أقوى منه، وهذا في باب النهي يجب التحرز فيه أكثر، فليُنظر عند التعارض أقوى الدليلين فيعمل به .

(١) قوله (في تحريمه) أي في تحريم فعله في الصلاة .

(٢) قوله: (فإن النهي عن الشيء أمرٌ بأحدِ أضداده) معناه: إذا نهى الشارع عن شيء كان نهييه عنه أمراً بضده .

(٣) قوله: (فهذه الثلاث طرق) أي التي ذكرها وهي:

أ - وجوب ما ذكر في هذا الحديث .

ب - عدم وجوب ما لم يذكر فيه .

ج - عدم تحريم فعل ما لم يذكر فيه أحد أضداده .

(٤) قوله: (أن يأخذ بالزائد) أي الألفاظ الزائدة التي وردت في بعض روايات الحديث .

(٥) قوله: (أما الوجوب) أي لذكره فيه (أو عدم الوجوب) لعدم ذكره فيه .

وعندنا أنه إذا استدل على عدم وجوب شيء بعدم ذكره في الحديث، وجاءت صيغة الأمر به في حديث آخر، فالمقدم صيغة الأمر، وإن كان يمكن أن يقال: الحديث دليل على عدم الوجوب، وتحمل صيغة الأمر على الندب، لكن عندنا أن ذلك أقوى، لأن عدم الوجوب متوقف على مقدمة أخرى، وهو أن عدم الذكر في الرواية يدل على عدم الذكر في نفس الأمر، وهذه غير المقدمة التي قررناها، وهو أن عدم الذكر يدل على عدم الوجوب لأن المراد ثمة أن عدم الذكر في نفس الأمر من الرسول ﷺ يدل على عدم الوجوب، فإنه موضع البيان، وعدم الذكر في نفس الأمر غير عدم الذكر في الرواية، وعدم الذكر في الرواية إنما يدل على عدم الذكر في نفس الأمر، بطريق أن يقال: لو كان لذكر، أو بأن الأصل عدمه، وهذه المقدمة أضعف من دلالة الأمر على الوجوب. وأيضاً فالحديث الذي فيه الأمر إثبات لزيادة فيعمل بها، وهذا البحث كله بناءً على أعمال صيغة الأمر في الوجوب الذي هو ظاهر فيها، والمخالف يخرجها عن حقيقتها بدليل عدم الذكر^(١)، فيحتاج الناظر المحقق إلى الموازنة بين الظن المستفاد من عدم الذكر في الرواية، وبين الظن المستفاد من كون الصيغة للوجوب، والثاني عندنا أرجح.

ثالثها: أن يُستمرّ على طريقة واحدة، ولا يستعمل في مكان ما يتركه في آخر، فيتعلّب^(٢) نظره، وأن يستعمل القوانين المعتمدة في ذلك استعمالاً واحداً فإنه قد يقع هذا الاختلاف في النظر في كلام كثير من المتناظرين.

الوجه الثالث من الكلام على الحديث: قد تقدم أنه قد يستدل - حيث يراد نفي الوجوب - بعدم الذكر في الحديث وفعلوا هذا في مسائل منها:

(١) قوله: (عدم الذكر) أي عدم الذكر في هذا الحديث، وهو حديث المسيء في صلاته.

(٢) قوله: (فيتعلّب نظره) أي يصير كالتعلّب في تطوراته وروغانه.

إن الإقامة غير واجبة، خلافاً لمن قال بوجوبها من حيث إنها لم تذكر في الحديث، وهذا على ما قررناه يحتاج إلى عدم رجحان الدليل الدال على وجوبها عند الخصم، وعلى أنها غير مذكورة في جميع طريق الحديث، وقد ورد في بعض طرقه الأمر بالإقامة، فإن صحَّ فقد عُدَّ أحد الشرطين اللذين قررناهما^(١).

ومنها الاستدلال على عدم وجوب دعاء الاستفتاح، حيث لم يذكر في الحديث، وقد نقل بعض المتأخرين ممن لم يرسخ قدمه في الفقه ممن ينسب إلى غير الشافعي، أن الشافعي يقول بوجوبه، وهذا غلط قطعاً، فإن لم ينقله غيره فالوهم منه، وإن نقله غيره كالقاضي عياض رحمه الله، ومن هو في مرتبته من الفضلاء، فالوهم منهم لا منه.

ومنها استدلال بعض المالكية به على عدم وجوب التشهد مما ذكرناه من عدم الذكر، ولم يتعرض هذا المستدل للسلام، لأن للحنفية أن يستدلوا به على عدم وجوب الإسلام بعينه، مع أن المادة واحدة^(٢)، إلا أن يريد أن الدليل المعارض الدال على وجوب السلام أقوى من الدليل على عدم وجوبه، فلذلك تركه، بخلاف التشهد فهذا يقال فيه أمران:

أحدهما: أن دليل إيجاب التشهد هو الأمر وهو أرجح مما ذكرناه. وبالجملة فله أن يناظر على الفرق بين الرجحانين ويمهد عذره ويبقى النظر ثمة فيما يقول.

(١) قوله: (فقد عدم أحد الشرطين اللذين ذكرناهما) هما قوله: (وهذا يحتاج إلى عدم رجحان الدليل على وجوبها، وقوله: (وإنها غير مذكورة في جميع طرق الحديث) لأنه فقد هذا الشرط الأخير.

(٢) قوله: (مع أن المادة واحدة)، أي أن مادة الاستدلال على عدم وجوب التشهد وعلى عدم وجوب السلام.

الثاني: أن دلالة اللفظ على الشيء لا تنفي معارضة المانع الراجع، فإن الدلالة أمر يرجع إلى اللفظ، أو إلى أمرٍ لو جُودَ النظرُ إليه لثبت الحكم، وذلك لا ينفي وجود المعارض. نعم لو استدل بلفظ يحتمل أمرين على السواء، وكانت الدلالة منتفية. وقد يطلق الدليل على الدليل التام الذي يجب العمل به، وذلك يقتضي عدم وجود المعارض الراجع، والأولى أن يستعمل في دلالة ألفاظه الكتاب والسنة الطريق الأول، ومن ادعى المعارض الراجع فعليه البيان.

الوجه الرابع من الكلام على الحديث: استدل بقوله فكبر على وجوب التكبير بعينه، وأبو حنيفة يخالف فيه ويقول: إذا أتى بما يقتضي التعظيم كقوله «الله أجل»، أو (أعظم) كفى، وهذا نظر منه إلى المعنى، وإن المقصود التعظيم، ويحصل بكل ما دلّ عليه. وغيره اتبع اللفظ، وظاهره تعيين التكبير، ويتأيد ذلك بأن العبادات محل التبعيدات، ويكثر ذلك فيها، فالاحتياط فيها الاتباع. وأيضاً: فالخصوص قد يكون مطلوباً، أعني خصوص التعظيم بلفظ الله أكبر، وهذا لأن رتبة هذه الأذكار مختلفة، كما تدل عليه الأحاديث، فقد لا يتأدى برتبة ما يُقصد من أخرى، ولا يُعارض هذا أن يكون أصل المعنى مفهوماً، فقد يكون التبعيد واقعاً في التفصيل، كما أننا نفهم أن المقصود من الركوع التعظيم بالخضوع، ولو أقام مقامه خضوعاً آخر لم يكتف به، ويتأيد هذا باستمرار العمل من الأمة على الدخول في الصلاة بهذه اللفظة، أعني الله أكبر.

وأيضاً فقد اشتهر بين أهل الأصول أن كل علة مستنبطة تعود على النص بالإبطال فهي باطلة، ويخرج على هذا حكم هذه المسألة فإنه إذا استنبط من النص أن المقصود مطلق التعظيم بطل خصوص التكبير. وهذه القاعدة الأصولية قد ذكر فيها بعضهم نظراً وتفصيلاً، وعلى تقدير تقريرها مطلقاً يخرج ما ذكرناه.

الوجه الخامس: قوله ثم «اقرأ ما تيسر معك من القرآن» يدل على وجوب

القراءة في الصلاة، ويستدل به على من يرى أن الفاتحة غير متعينة، ووجهه ظاهر، فإنه إذا تيسر غير الفاتحة وقرأه يكون ممثلاً، فيخرج عن العهدة، والذين عينوا الفاتحة للوجوب وهم الفقهاء الأربعة - إلا أن أبا حنيفة منهم جعلها واجبة وليست بفرض على أصله في الفرق بين الواجب والفرض^(١) - اختلف من نصر مذهبهم في الجواب عن الحديث وذكر فيه طرقاً:

الطريق الأول: أن يكون الدليل الدال على تعيين الفاتحة كقوله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» مثلاً مفسراً للمجمل الذي فيه قوله ﷺ: «ثم اقرأ ما تيسر معك»، وهذا إن أريد بالمجمل ما يريده الأصوليون به فليس كذلك، فإن المجمل لا يتضح المراد منه، وقوله: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن»، مُتَّضِح المراد إذ يقع امثاله بكل ما يتسر، حتى لو لم يرد قوله ﷺ «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب» لاكتفينا في الامتثال بكل ما تيسر، وإن أريد بكونه مجملاً أن لا يتعين فرداً من الأفراد، فهذا لا يمنع من الاكتفاء بكل فرد ينطبق عليه ذلك الاسم، كما في سائر المطلقات.

الطريق الثاني: أن يُجعل قوله: «اقرأ ما تيسر معك» مطلقاً يُقَيَّد أو عاماً يُخَصَّص بقوله: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»، وهذا يرد عليه أن يقال: لا نسلم أنه مطلق من كل وجه، بل هو مُقَيَّد بقيد التيسير، الذي يقتضي التخيير في قراءة كل فرد من أفراد المتيسرات، وهذا القيد المخصوص يقابل التعيين. وإنما نظير المطلق الذي لا ينافي التعيين أن يقول اقرأ قرآناً، ثم يقول اقرأ فاتحة الكتاب فإنه

(١) قوله: (على أصله في الفرق بين الفرض والواجب) الحنفية يقولون في أصولهم: ما طلب فعله طلباً حتمياً وثبت بدليل قطعي فهو الفرض، وما طلب فعله طلباً حتمياً وثبت بدليل ظني فهو الواجب. ويأثم تارك الواجب ولا تفسد صلاته، كتارك قراءة الفاتحة مهناً.

يحمل المطلق على المقيّد حينئذٍ. والمثال الذي يوضح ذلك؛ أنه لو قال لغلّامه اشتر لي لحماً ولا تشتّر لحماً لضان لم يتعارض، ولو قال اشتر لي أي لحم شئت ولا تشتّر إلا لحم الضان في وقت واحد، لتعارض، إلا أن يكون بهذه العبارة ما يراد بصيغة الاستثناء. وأما دعوى التخصيص فأبعد، لأن سياق الكلام يقتضي تيسير الأمر عليه، وإنما يقرب هذا إذا جعلت ما بمعنى الذي وأريد بها شيء معين، وهو الفاتحة، لكثرة حفظ المسلمين لها فهي المتيسرة.

الطريق الثالث: إن يُحمل قوله ما تيسر على ما زاد على فاتحة الكتاب، ويدل على ذلك بوجهين:

أحدهما: الجمع بينه وبين دلائل إيجاب الفاتحة.

والثاني: ما ورد في بعض رواية أبي داود «ثم اقرأ بأُمّ القرآن وما شاء الله أن تقر»، وهذه الرواية إذا صحّت تزيل الإشكال بالكلية لما قررناه من أنه يأخذ بالزائد إذا جمعت طرق الحديث، ويلزم من هذه الطريقة إخراج صيغة الأمر عن ظاهرها عند من لا يرى بوجوب زائد عن الفاتحة وهم الأكثرون.

الوجه السادس: قوله ﷺ: «ثم اركع حتى تطمأن راکعاً يدل على وجوب الركوع، واستدلوا به على وجوب الطمأنينة، وهو كذلك دالٌّ عليها، ولا يُتخيّل ههنا ما تكلم الناس فيه من أن الغاية هل تدخل في المغيّا أم لا؟ أو ما قيل من الفرق بين أن تكون من جنس المغيّا أو لا؟ فإن الغاية ههنا وهي الطمأنينة وصف للركوع لتقييده بقوله: «راكعاً» ووصف الشيء معه، حتى لو فرضنا أنه ركع ولم يطمئن بل رفع عقيبه مسمى الركوع، لم يصدق عليه أنه جعل مطلق الركوع مُغيّاً بالطمأنينة. وجاء بعض المتأخرين فأعرب جداً وقال ما تقريره: إن الحديث يدل على عدم وجوب الطمأنينة من حيث أن الأعرابي صلى غير مطمئن ثلاث مرات، والعبادة بدون شرطها فاسدة حرام، فلو كانت الطمأنينة واجبة لكان فعل الأعرابي

فاسداً، ولو كان ذلك لم يقره النبي ﷺ عليه في حال فعله، وإذا تقرّر بهذا التقرير عدم الوجوب حمل الأمر في الطمأنينة على الندب، ويحمل قوله ﷺ: «فإنك لم تصل» على تقدير لم تصل صلاة كاملة، ويمكن أن يقال أن فعل الأعرابي بمجرد لا يوصف بالحرمة عليه: لأن شرطه علمه بالحكم، فلا يكون التقرير تقريراً على محرم، إلا أنه لا يكفي ذلك في الجواب، فإنه فعل فاسد، والتقرير يدل على عدم فساده، وإلا لما كان التقرير في موضع ما يدل على الصحة. وقد يقال أن التقرير ليس بدليل على الجواز مطلقاً، بل لا بد من انتفاء الموانع، وزيادة قبول المتعلم لما يلقي إليه - بعد تكرار فعله واستجماع نفسه: وتوجه سؤاله - مصلحة مانعة من وجوب المبادرة إلى التعليم، لا سيما مع عدم خوف الفوات، أما بناءً على ظاهر الحال، أو بوحى خاص.

الوجه السابع: قوله ﷺ: «ثم ارفع حتى تعتدل قائماً» يدل على وجوب الرفع خلافاً لمن نفاه، ويدل على وجوب الاعتدال في الرفع، وهو مذهب الشافعي في الموضوعين. وللمالكية خلاف فيهما. وقد قيل في توجيه عدم وجوب الاعتدال أن المقصود من الرفع الفصل، وهو يحصل بدون الاعتدال، وهذا ضعيف، لأننا نسلم أن الفصل مقصود، ولا نسلم أنه كل المقصود، وصيغة الأمر دلت على أن الاعتدال مقصود مع الفصل، فلا يجوز تركها. وقريب من هذا في الضعف استدلال بعض من قال بعدم وجوب الطمأنينة، بقوله تعالى: ﴿اركعوا واسجدوا﴾، فلم يأمرنا بما زاد على ما يسمى ركوعاً وسجوداً. وهذا وإياه جداً، فإن الأمر بالركوع والسجود يخرج عنه المكلف بمسمى الركوع والسجود كما ذكرت، وليس الكلام فيه، وإنما الكلام في خروجه عن عهده الأمر الآخر وهو الأمر بالطمأنينة، فإنه يجب أمثاله كما يجب أمثاله الأول.

الوجه الثامن: قوله: «ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً» والكلام فيه كالقلام

في الركوع، وكذلك قوله: «ثم ارفع حتى تطمئن جالساً» فيما يستنبط منه.

الوجه التاسع: قوله ﷺ: «ثم افعل ذلك في صلاتك كلها» يقتضي وجوب القراءة في جميع الركعات، وإذا ثبت أن الذي أمر به الأعرابي هو قراءة الفاتحة دلّ على وجوب قراءتها في كل الركعات، وهو مذهب الشافعي رحمه الله، وفي مذهب مالك رحمه الله ثلاثة أقوال: أحدها الوجوب في كل ركعة، والثاني الوجوب في الأكثر، والثالث الوجوب في ركعة واحدة.

٢ - كتاب: شرح كتاب الإمام:

ذكرت عندما تحدثت عن كتاب «الإمام» في البحث الخاص بالحديث أن المؤرخين اختلفوا في موضوعه، وأن منهم من زعم بأن كتاب «الإمام» هو شرح كتاب «الإمام» كالصفيدي، وابن عماد الحنبلي، والزركلي، وأحمد شاكر، ومحب الدين الخطيب، وأوضحت أن الجزء الأول من «الإمام» موجود في المكتبة الأزهرية، وهو خاص في الحديث وأنه ليس جزءاً من كتاب «الإمام» ولا شرحاً له، وأن كتاب «شرح الإمام» كتاب ثالث شرح فيه ابن دقيق العيد كتابه «الإمام».

قال ابن حجر: وصنف «الإمام» في أحاديث الأحكام وشرع في شرحه فشرح فيه أحاديث يسيرة في مجلدين أتى فيهما بالعجائب الدالة على سعة دائرته بالعلوم خصوصاً في الاستنباط، وجمع كتاب الإمام في عشرين مجلداً.

وقال الأدفيوي بعد أن تكلم عن كتاب «إحكام الأحكام»: فكيف بـ«شرح الإمام». وما تضمنته من الأحكام، وما اشتمل عليه من الفوائد النقلية، والقواعد العقلية، والأنواع الأدبية والنكت الخلافية، والمباحث المنطقية. واللطائف البيانية، والمواد اللغوية، والأبحاث النحوية، والعلوم الحديثية، والملح التاريخية، والإشارات الصوفية.

وقال السيوطي عنه : لم يؤلف أعظم منه لما فيه من الاستنباطات العظيمة .

ونقل الأدفوي والسبكي بعض مقدمة ابن دقيق العيد لهذا الكتاب ، كما نقل الصنعاني بحثاً منه تعقب فيه ابن دقيق العيد رد ابن حزم على من شنع على الظاهرية في قولهم بعدم نجاسة الماء إذا وقعت فيه نجاسة إلا إذا تغير فيه أحد أوصافه .

أما بالنسبة لمقدمة كتاب «شرح الإمام» التي كتبها ابن دقيق العيد ونقل قسماً منها الأدفوي والسبكي^(١) ، فقد جاء قوله فيهما : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد : فإن للفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاؤها ، ولا يحتجب عن العقول طوالها وأضواؤها ، وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل البحث عن معاني حديث نبيه المرسل .

إذ بذلك تثبت القواعد ويستقر الأساس وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس ، وما تعين شرعاً تعين تقديمه شروعيّاً ، وما يكون محولاً على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعاً ، لكن شرط ذلك عندنا أن يُحفظ هذا النظام ويُجعل الرأي هو المأموم ، والنص هو الإمام ، وتردّ المذاهب إليه ، وتردّ الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه ، وأما أن يُجعل الفرع أصلاً ، ويردّ النص إليه بالتكلف والتحليل ، ويُحمل على أبعد المحامل بلطافة الوهم وسعة التخيل ، ويرتكب في تقرير الآراء الصعّب والدّلّول ويُحمل على التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول ، فذلك عندنا من أردأ مذاهب وأسوأ طريقتة ، ولا نعتقد أنه يصلح معه النصيحة للدين على الحقيقة ، كيف يقع أمر مع رجحان منافيه؟ وأن يصح الوزن بميزان مال أحد الجانبين فيه؟ ومتى يُنصف حاكمٌ ملكته غضبيّة العصبية؟ وأين يقع الحق من

(١) الأدفوي : «الطالع السعيد» ص ٥٨٧ - ٥٨٨ . السبكي : «طبقات الشافعية» ج ٦

خاطر أخذته العزّة بالحميّة؟ وإنما يحكم بالعدل عند تعادل الطرفين، ويظهر الجور عند تقابل المنحرفين.

هذا ولمّا برز ما أبرزته من كتاب «شرح الإمام» وكان وضعه مقتضياً للاتساع، ومقصوده موجبه لامتداد الباع، عدل قوم عن استحسان إطابته إلى استخشان إطالته، ونظروا إلى المعنى الحامل عليه فلم يقضوا بمناسبته ولا إطالته، فأخذت في الإعراض عنهم بالرأي الأحزم، وقلت عند سماع قولهم: شِنْشِنَةٌ^(١) أعرّفها من أخزم، ولم يكن ذلك مانعاً لي من وصل ما فيه بالمستقبل، ولا موجباً لأن أقطع ما أمر الله به أن يوصل. «فما الكرج^(٢) الدنيا ولا الناس قاسم».

أما بالنسبة لتعقب ابن دقيق العيد لما قاله ابن حزم، ورده عليه في كتابه «شرح الإمام» فيحسن قبل أن أنقل هذا البحث أن أوضح المذاهب المشهورة في مسألة حكم الماء الدائم الذي حلت به نجاسة، وإلى سبب هذا الاختلاف.

اتفق العلماء على أن الماء الدائم الذي لا يجري إذا حلت به نجاسة وغيرت أحد أوصافه، بأن غيرت طعمه أو رائحته أو لونه امتنع استعماله، وصار

(١) هذا مثل من أمثال العرب. يضرب عن شابه من قبله كآبيه أو غيره، قال ابن الكلبي: إنه لأبي أخزم الطائي. قال ابن بري: كان أخزم عاقاً لأبيه فمات وترك بنين عقوا جدهم وضربوه حتى أدموه. والشنشنة الطبيعة والعادة بمعنى: أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق.

(٢) الكرج - بفتح اوله وثانيه - مدينة بين همذان وأصبهان، وأول من مصرها أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي وجعلها وضنه، وإليها قصد الشعراء، وذكروها في أشعارهم، ومدائح كثيرة وله أشعار حسنة، وكان قد مدحه وهو بها بعض الشعراء، فلم يحصل للشاعر منه ما في نفسه فانفصل عنه وهو يقول:

دعيني أجوب الأرض في فلواتها فما الكرج الدنيا ولا الناس قاسم

نجساً، وذلك إجماع، واختلفوا في الماء الدائم إذا خالطته نجاسة ولم تغير أحد أوصافه .

ذهبت الظاهرية بأنه طاهر سواء كان قليلاً أو كثيراً، وذهب الجمهور ومنهم الحنفية والشافعية والحنابلة إلى التفرقة بين القليل والكثير وقالوا يتنجس القليل ولا ينجس الكثير، واختلفوا في تحديد الماء القليل على مذاهب .

أما المالكية فقد اختلفوا، فقد ذكر الشيخ الدردير في شرحه الكبير^(٤) بأن الماء إذا حلت به نجاسة ولم يتغير شيئاً من أوصافه فهو باق على طهورته، سواء كان الماء كثيراً مما زاد على آنية الغسل أو كان يسيراً على الراجح، وذكر الشيخ الدسوقي في حاشيته تعليقاً على ذلك فقال: وقوله على الراجح أي خلافاً لما قاله ابن القاسم من أنه قليل الماء ينجسه قليل النجاسة ولو لم تغيره، ومشى عليه في رسالته .

استدل الظاهرية بما يلي :

١ - ما روي عن أبي سعيد الخدري قال^(١): قيل يا رسول الله أنتوضأ من

بئر بضاعة وهو بئر يلقي فيها الحيض ولحوم الكلاب والتنن؟ قال رسول الله ﷺ الماء طهور لا ينجسه شيء، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن . فقالوا: هذا الحديث يدل على أن الماء طهور ولو خالطته نجاسة قليلاً كان أو كثيراً، وإنما حكم بعدم طهورية ما غيرت النجاسة أحد أوصافه للإجماع على ذلك .

(٤) محمد بن عرفة الدسوقي: «حاشية الدسوقي» ج ١ ص ١٣٣ - ١٤٠ .

(١) الشوكاني: «نيل الأوطار» ج ١ ص ٢٨ .

٢ - استدلو أيضاً بما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقال^(١): جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد، فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب^(٢) من ماء، فأهريق^(٣) عليه فقالوا: بأن هذا الحديث يدل على أن قليل النجاسة لا يفسد قليل الماء لأنه معلوم أن ذلك الموضع قد طهر بذلك الذنوب.

واستدل الجمهور بعدة أدلة منها:

١ - أن الماء القليل بملاقاته النجاسة وإن لم يتغير أحد أوصافه تستعمل النجاسة باستعماله وقد قال تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾.

٢ - ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل منه^(٤). قال الجمهور هذا الحديث يدل بصراحة على تنجس الماء الراكد بملاقاته النجاسة لأن علة النهي عن البول فيه هي النجاسة، وخرج عنه الماء المستبخر الكثير بالإجماع ويبقى ما عداه على حكم النص، وأصحاب الشافعي يخصون هذا العموم ويحملون النهي على ما دون القلتين، وعدم تنجس القلتين فما زاد إلا بالتغيير^(٥).

٣ - جاء في بعض الأحاديث قول الرسول ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يديه قبل أن يدخلهما في الإناء ثلاثاً، فإن أحدكم لا يدري أين باتت

(١) متفق عليه.

(٢) الذنوب: الدلو الكبير إذا كانت ملاءى وهي الدلو، قال الله تعالى: ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ [الذاريات: ٥٩].

(٤) وفي رواية فشنه عليه، والشن هو التفريق في الصب «نيل الأوطار» ج ١ ص ٤٣. متفق عليه.

(٥) سيأتي إيضاح أن الشافعية حددوا الماء القليل بأقل من قلتين.

يده»^(١). قالوا: دل الحديث على أن الماء القليل ينجس بوقوع النجاسة فيه فإنه منع من إدخال اليد فيه لاحتمال النجاسة. وذلك دليل على أن تيقنها مؤثر فيه. وإلا لما اقتضى احتمال النجاسة المنع.

٤ - ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات، أولاهن بالتراب، أخرجه مسلم وفي لفظ فليرقه. قالوا فقوله طهور إناء أحدكم يدل على نجاسة الإناء بسبب ذلك، وأمره بإراقة الماء دليل على نجاسة الماء الذي ولغ فيه.

وتوجيه ذلك: لا يجب الغسل إلا من حدث أو نجس. وليس هناك حدث فتعين النجس، والإراقة إضاعة مال، فلو كان الماء طاهر لما أمر بإضاعته إذ قد نهى عن إضاعة المال.

٥ - قال الشوكاني^(٢): استدلو بقاعدة ترجيح الحظر على الإباحة، وبحديث «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون»، عند أحمد وأبي يعلى والطبراني وأبي نعيم مرفوعاً، وحديث «دع ما يريك إلى ما لا يريك» أخرجه النسائي وأحمد وصححه ابن حبان والحاكم والترمذي من حديث الحسن بن علي.

أما بالنسبة لاختلاف الجمهور في تحديد القليل: ذهب الشافعية والحنابلة إلى تحديد القليل بأقل من قلتين من قلال هجر.

قال صاحب مغني المحتاج^(٣): ولا ينجس قلنا الماء الصرف بملاقة نجس جامد أو مائع لقوله ﷺ: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث»: أي يدفع

(١) متفق عليه. قوله ثلاثاً قال الزركشي أنه لفظ مسلم ولم يذكر البخاري التثنية.

(٢) الشوكاني: «نيل الأوطار» ج ١ ص ٢٩.

(٣) محمد الشربيني الخطيب «مغني المحتاج» ج ١ ص ٢١.

النجس ولا يقبله . . . الخ .

وقال صاحب المغني^(١): وإذا كان الماء قلتين وهو خمس قرب فوَقعت فيه نجاسة فلم يوجد لها طعم ولا لون ولا رائحة فهو طاهر.

ثم قال وهذا هو ظاهر المذهب عند أصحابنا وهو مذهب الشافعي .

وزهب الحنفية إلى أن تحديد الماء القليل متروك لرأي المبتلي بناء على عدم صحة ثبوت تقديره شرعاً، هذا بالنسبة إليهم .

قال صاحب فتح القدير^(٢): قال أبو حنيفة في ظاهر الرواية يعتبر فيه أكبر رأي المبتلي، إن غلب على ظنه أنه بحيث تصل النجاسة إلى الجانب الآخر لا يجوز الوضوء وإلا جاز، وعنه اعتباره بالتحريك على ما هو مذكور في الكتاب^(٣) بالاعتسال أو بالوضوء أو باليد روايات، والأول أصح عند جماعة، منهم الكرخي وصاحب العناية والينابيع وغيرهم، وهو الأليق بأصل أبي حنيفة، أعني عدم التحكم بتقدير مما لم يرد فيه تقدير شرعي، والتفويض فيه إلى رأي المبتلي بناء على عدم صحة ثبوت تقديره شرعاً والتقدير بعشر في عشر، وثمان في ثمان، واثنى عشر في اثني عشر، وترجيح الأول أخذاً من حريم البئر، غير منقول عن الأئمة الثلاثة .

قال شمس الأئمة: المذهب الظاهر التحري والتفويض إلى رأي المبتلي من غير حكم بالتقدير، فإن غلب على الظن وصولها تنجس وإن غلب عدم

(١) ابن قدامة: «المغني» ج ١ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) «فتح القدير». ج ١ ص ٥٣ .

(٣) المراد بالكتاب كتاب القدوري كما هو المصطلح عند الحنفية عند الإطلاق بالنسبة لكتب الفقه .

وصولها لم ينجس، وهذا هو الأصح . انتهى كلام صاحب فتح القدير .

ثم قال : إذا عرفت هذا فقولہ ﷺ لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه إنما يعني تنجس الماء في الجملة لا كل ماء فليست اللام فيه للاستغراق للإجماع على أن الكثير لا ينجس إلا بتغيره بالنجاسة .

وقد ضعف الحنفية حديث القلتين ولم يعملوا به ، كما ضعفه غيرهم ، فوصفوه بالاضطراب في الإسناد والاضطراب في المتن . وقال الشوكاني ، ونقل ابن الجوزي أن الدارقطني قال أنه ليس بثابت ، وأعله ابن القطان بجهالة راويه عن أبي سعيد ، واختلاف الرواة باسمه واسم أبيه . وقال الحنفية بالنسبة للمتن : أنه في رواية إذا بلغ ثلاث قتل ، وفي رواية قلة ، وفي رواية إذا بلغ الماء أربعين قلة ، وقالوا أيضاً أنه لم يثبت بطريق يجب الرجوع إليه شرعاً تعين لمقدار القلتين^(١) .

وأجاب الجمهور على أدلة أهل الظاهر فقالوا بالنسبة لبئر بضاعة ضعيف وقال الحافظ المنذري في مختصر السنن أنه تكلم فيه بعضهم وهو لا يقوى على معارضة هذه الأدلة التي ذكرناها ، ولم يعمل أحد به على إطلاقه ، فهو مرفوض . وبالنسبة لحديث بول الأعرابي أجابوا بإجابات كثيرة أقواها : أنه حين يرد الماء

(١) فقد نقل النووي في المجموع أن الشافعية اختلفوا أولاً في مقدار القلتين على ثلاثة أقوال: فذهب البعض أنها خمسمائة رطل ، والبعض الآخر بستمائة رطل ، والبعض الثالث بألف رطل ، كما نقل عن صاحب الحاوي أن الإمام الشافعي لم ير قلال هجر التي قدرت به ولا رآها أهل عصره ، كما نقل أنهم اختلفوا في رطل بغداد الذي قدر به القلتان فقبل مائة وثلاثون درهماً بدراهم الإسلام ، وقبل مائة وثمانية وعشرون ، وقبل مائة وثمانية وعشرون درهماً وأربعة أسباع وهي تسعون مثقال . النووي : «المجموع» ص ٧٠ - ٧٣ .

على النجاسة يرد عليها شيئاً فشيئاً حتى يفنى عينها، وتذهب قبل فوائه، فلا يأتي آخر جزء من الماء الوارد على النجاسة إلا وقد طهر المحل الذي اتصل به، فتفنى النجاسة، أو تتلاشى عند ملاقاته آخر جزء يرد عليها من الماء، وخاصة إذا كانت الأرض رطبة أو رملية كأرض المدينة المنورة، والحديث ليس فيه إلا بيان لكيفية تطهير الأرض النجسة .

وأجاب الظاهرية عن حديث «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه»: إن النهي ليس لأجل النجاسة وإنما هو تعبدية وهو مخصوص بالبول في الماء، حتى لو بال في كوز وصبه في الماء لم يضر عندهم، أو لو بال خارج الماء فجرى البول إلى الماء لم يضر عندهم أيضاً .

بعد هذا العرض للمذاهب في مسألة حكم الماء الدائم، إذا حلت به نجاسة أقول: تعرض ابن دقيق العيد لما قاله الظاهرية، وما قاله ابن حزم في الرد على من شنع عليهم فقال^(١):

ارتكب الظاهرية ها هنا مذنباً وجه به الملامة إليهم وأفاضة سيل الإزداء عليهم، حتى أخرجهم بعض الناس من أهلية الاجتهاد واعتبار الخلاف في الإجماع . قال ابن حزم منهم: إن كل ماء راكد قل أو كثر من البرك العظام وغيرها بال فيه إنسان فإنه لا يحل لذلك البائل خاصة الوضوء منه ولا الغسل، وإن لم يجد عنده غيره ففرضه التيمم .

وجائز لغيره الوضوء منه والغسل، فهو طاهر مطهر لغير الذي بال فيه، ولو أنه تغوط فيه، أو بال خارج منه، فسال البول إلى الماء، أو بال في إناء وصبه في

(١) محمد بن إسماعيل الصنعاني، حاشية العدة على «إحكام الأحكام» ج ١ ص ١٣١ -

ذلك الماء - ولم يتغير له صفة - فالوضوء فيه أو الغسل جائز لذلك المتغوط فيه والذي سال بوله فيه ولغيره، وممن شنع على ابن حزم في ذلك الحافظ أبو بكر بن معوذ فقال بعد حكاية كلامه : فتأمل أكرمك الله ما أجمع هذا القول من السخف . وحوى من الشناعة ، ثم يزعم - أي قائله - أنه الذي شرعه الله وبعث به رسوله ﷺ قال : - أي الحافظ أبي بكر - واعلم أكرمك الله أن هذا الأصل الذميم مربوط على ما أقول ومخصوص على ما أمثل أن البائل على الماء الكثير ولو نقطة أو جزء من نقطة فحرام عليه الوضوء فيه ، وإن تغوط حملاً أو جمع بوله في إناء شهراً ثم صبه فيه ولم تتغير له صفة من بوله الذي صبه فيه ، وحرمه عليه لنقطة من بول بالها فيه ، جل الله عن قوله ، وكرم دينه عن إفكه . والشناعة كلها راجعة إلى ما قررناه من قوة القياس في معنى الأصل ، فإنه قد ظهر ظهوراً قوياً لا يرتاب فيه ، بحيث قد يدعى فيه القطع ، أن النهي عن استعمال ، ما وقع فيه البول إنما هو لأجل ما تقضيه صفته من الاستقذار ، ومتى وجد هذا المعنى - بأي طريق كان .وجب أن يكون الحكم ثابتاً . انتهى كلام أبي بكر .

وقد رد ابن حزم على من شنع عليه وأجاب بجوابات ، وتعقبها ابن دقيق العيد فقال : وتجلد ابن حزم وشدد . ثم نقل كلامه متعقباً له فقال : إنه أورد ابن حزم على مخالفه أشياء قصد بها أن يساوي بينه وبينهم فقال في أثناء كلامه : وهل فرقنا بين البائل وغير البائل إلا كَفَرَقَهُمْ معنا بين الماء الراكد المذكور في الحديث وغير الراكد الذي لم يذكر .

قال ابن دقيق العيد : التشنيع إنما كان لعلمنا بأن المنع من الغسل والوضوء لسبب وقوع النجاسة ، ولتجنبها فيما يتقرب به إلى الله تعالى ، والقطع بمساواة حال البائل خارج الماء وإجراء البول إليه، والبائل فيه ، بالنسبة إلى حال التنزه عن

النجاسة في الصلاة ليس إلا لاستقذارها، وطلب إبعادها، عن حالة القربة لهذا المعنى .

وأما فرقنا بين الماء الراكد في الحديث، وغير الراكد الذي لم يذكر فيه، فأنا لا ننكر الفرق عند اتحاد المعنى الذي بوقت الفرق، ولا عند انحسام المعنى ووجوب المصير إلى التعبد، وإنما أنكرناه عند ظهور المعنى ظهوراً قوياً جداً، واقتضى ذلك المعنى التسوية، فإنكار الفرق من ههنا جاء .

ثم قال ابن حزم: وكتفريقهم في الغاصب للماء فيحرم عليه شربه واستعماله، وحلال لغير الغاصب له . قال ابن دقيق العيد في الرد عليه: قلنا هذا ركيك جداً لأن ما ثبت لعله يتعين إضافة الحكم إليها وجب أن يثبت عند وجودها . ويتنفي عند انتفائها، وهذه العلة مقتضية للترقية بين الغاصب وغيره، لأنها ليست إلا العدوان وتحريم مال الغير .

ثم قال ابن حزم: وهل البائل وغير البائل إلا كالزاني وغير الزاني والسارق وغير السارق، والشارب وغير الشارب، والمصلي وغير المصلي، لكل اسم منها حكمة . وهل الشنعة والخطأ إلا أن برز نص في البائل فيحمل ذلك الحكم عليه وعلى غير البائل، وهل هذا إلا كمن جعل حكم السارق على غير السارق، وحكم الزاني على غير الزاني، وحكم المصلي على غير المصلي، وهكذا في جميع الشريعة؟ نعوذ بالله من هذا .

قال ابن دقيق العيد: قلنا جميع ما ذكرتم من التفرقة في هذه الصور ليس للأسامي كما تزعم، ولا الاقتصار في هذه الصور لأن الحكم متعلق بالاسم، بل لأن العلل التي أوجبت تلك الأحكام وعلم أنها أسبابها وهي العقوبات على ارتكاب الجنايات المحرمة شرعاً يقتضي الفرق بين من جنى بارتكاب المعصية،

ويبين من لم يجز، إن أراد أنها تجب التسوية في خصوص الأحكام، وهو أن نسوي بين السارق وغيره في العقوبة وهي القطع في السرقة ونحوه في غيرها، والجلد في الزنا وأنه يجلد من لم يزن وسائر ما ذكره.

قال ابن حزم: لو أنصف المالكيون والشافعيون لأنكروا على أنفسهم تفرقتهم بين مس الذكر بباطن الكف فينتقض الوضوء، وبين مسه بظاهر الكف فلا ينتقض الوضوء.

قال ابن دقيق العيد: قلنا سبب التفرقة أن الإفشاء لا يكون إلا بباطن الكف وأن هذا نص اللغة^(١). وإخبار عنها بأن هذا هو الوضع، فإن صح فالانتقاض على هذا التقدير بالنص، وإن لم يصح ما ذكر من أن الإفشاء لا يكون إلا بباطن الكف فالخطأها هنا مبني على فساد الأصل، لا على وجوب المساواة بين باطن الكف وظاهرها الذي تحاول تقريره.

قال ابن حزم: وهؤلاء الشافعيون فرقوا بين البول في مخرجه من الإحليل فجعلوه يطهر بالحجارة، وبين ذلك البول نفسه وبين ذلك الإنسان في نفسه إذا بلغ بوله أعلى الحشفة فجعلوه لا يطهر إلا بالماء.

قال ابن دقيق العيد: قلنا فرقوا للدليل الدال على اجتناب النجاسات، مع الدليل الدال على الاكتفاء بالأحجار في محل الإحليل، مع قاعدة: وهو أن مورد النص إذا اشتمل على وصف يمكن أن يكون معتداً به في الحكم لم يجر إلغاؤه، لأنه لو ألغي لكان قياساً مع إمكان الفارق، وهو غلط، ولا شك أن البول في الإحليل - أي في ثقبه - يتكرر ابتلي المكلف بتكرره، ولا يساويه في هذا المعنى

(١) في الكتاب (إنك نصاً على اللغة) بدلاً من (وإن هذا نص اللغة) والمعنى في السابق غير مستقيم ولعل الصواب ما ذكر، وقد اختار العبارة المعلق محب الدين.

البول في غير الإحليل - أي في الحشفة - ويمكن أن يكون الشارع سامح من ذلك مع كون الأصل تحريم استصحاب النجاسة في العبادة، لأجل هذه النجاسة المكررة، فلا يخلو من محل النص به لاحتمال اعتبار الفارق الذي في محل النص^(١).

قال ابن حزم: وفرقوا بين بول الرضيع وبين غائطه في الصب والغسل وهذا هو الذي أنكر علينا ها هنا بعينه.

قال ابن دقيق العيد: قلنا للتفريق مأخذان؛ أحدهما أن الأصل اجتناب النجاسة، والنص ورد في البول، فيبقى في الغائط على مقتضى الأصل. وفرقوا بين البول والغائط لاقتضاء الدليل وجوب الإحتراز عن الغائط، وتفريقهم ها هنا بين البول والغائط لا يساوي هذا.

وثانيهما: أن التخفيف في البول يمكن أن يكون لما فيه من القصور في الاستقذار عن الغائط، ويمكن أن يكون الشارع اعتبر هذا المعنى بإلحاق غيره به قياساً مع إمكان الفارق، وأما إلحاق الغائط بالبول فيما نحن فيه فعكس هذا، فإنه إذا نص على الأخف بالمنع فالأغلظ أولى قطعاً، كما في تحريم التأيف مع الضرب.

(١) مراد ابن دقيق العيد أن وجه فرقهم الذي أوجب جعل الأحجار مطهرة في ثقب الإحليل وغير مطهرة له في الحشفة، وهو أن الدليل قد دل على الاكتفاء بالأحجار في محل خروج البول فلا يلحق به في الاكتفاء بها ما يقع منه في الحشفة لأنه إلحاق بالقياس، والفارق الذي لا يقم معه القياس ممكن، إذ مورد النص ثقب الإحليل، والحكم الاكتفاء بالأحجار منه، والبول في ثقب الإحليل متكرر يبتلى به المكلف ولا يساويه في غير ثقب الإحليل، أي في الحشفة في ذلك، هذا هو الفارق الذي أشار إليه، وأنه لا يتم معه القياس إلا اكتفاء بالأحجار في طهار الحشفة.

قال ابن حزم: وهؤلاء الحنفية فرقوا بين بول الشاة في البثر فيفسدها وبين ذلك البول في المقدار من بولها بعينها في الثوب فلا يفسده، وفرقوا بين بول البعير في البثر فيفسده ولو أنه نقطة، وبين سقوط^(١) ذلك الجمل في البثر فإنه لا يفسده، وهذا نفس ما أنكروه علينا، وفرقوا بين روث الفرس يكون في الثوب منه أكثر من قدر الدرهم البغلي فيفسد الصلاة وبين بول ذلك الفرس نفسه يكون في الثوب فلا يفسد الصلاة، إلا أن يكون ربع الثوب عند أبي حنيفة أو شبراً في شبر عند أبي يوسف فيفسدها حينئذ، ومنهم من يقول: بول ما يؤكل لحمه طاهر كله ورجيعه نجس، وهذا هو الذي أنكروه علينا، وفرقوا بين ما يملأ الفم من القلس وبين ما لا يملؤه منه، وفرقوا بين البول في الجسد فلا يزيله إلا الماء، وبين البول في الثوب فيزيله غير الماء. ولو تتبعنا سقطاتهم لقام فيها ديوان.

قال ابن دقيق العيد: قلنا لسنا ننكر عليك ولا على أحد من المجتهدين ما كان عن اجتهاد فأخطأ فيه، وإنما ننكر بين من فرق بين ما هو في معنى المنصوص عليه قطعاً، وينكر جحداً ما تبين أنه مقصود المتكلم وعليه الحكم قطعاً، أو قريباً من القطع، فإن كان شيئاً مما ذكرت من هذا القبيل فينبه وإلا فلا مساواة.

قال ابن حزم: فإن قالوا من قال بقولكم هذا في الفرق بين البائل والمتغوط في الماء الراكد قبلكم؟ قلنا: قاله رسول الله ﷺ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسكت عن المتغوط والمتنخم والمتمخط.

قال ابن دقيق العيد: قلنا لم يفرق رسول الله ﷺ بين البائل والمتغوط في الحكم قط، وإنما فرق بينهما في الذكر والسكوت، وأخذ التفريق بينهما في الحكم من التفريق بينهما في الذكر والسكوت يتوقف على دليل خارج من اللفظ،

(١) عبارة (بين سقوط) بياض في الأصل والتقدير من المعلق وهو مقبول.

فلا يجوز أن ينسب إلى قول الرسول ﷺ، أعني التفريق بين التفريق في الحكم، وأقل درجات ما ادعينا فيه القطع أو قريب منه أن يكون محتملاً، فكيف يحل مع الاحتمال أن يجزم القول بأن رسول الله ﷺ قاله؟

قال ابن حزم: (أما تفريقهم)^(١) بين بول الشاة في البئر وبولها في الثوب، وبين بول الشاة تشرب ماء طاهراً وبولها تشرب ماء نجساً، وبين البول في رأس الحشفة وفوق ذلك، فهذا هو الذي لم يقله أحد قبلهم قط، إذ قالوه بوجهه منهم أو بعقل.

وكذلك سائر فروقهم المذكورة، ونحن لا ننكر القول بما جاء به الكتاب والسنة وإن لم نعرف قائلًا مسمى به، وهم ينكرون ذلك ويفعلونه وهي لازمة لهم لا لنا.

قال ابن دقيق العيد: قلت الواجب أن لا يقول الناظر ما قال أهل الإجماع خلافة، ودون هذا في الرتبة ما اشتهر العمل به بين الأمة من غير نكير، وإن لم يتحقق قول واحد منهم به بمن خالف وابتدع قولاً يُشنع به عليه. وأما أن الواجب أن لا يقول إلا كما قال بعضهم، وإن ظهر عليه دليل من كتاب أو سنة ولم يكن من قبيل^(٢) والمنكر فهذا موضع نظر، ومن لم يوجب ذلك لا يشنع عليه فيما يذهب إليه لا من جهتك ولا من جهتهم. وأما إنكارهم ذلك مع فعله فمنكر على من فعله منهم قبيح، والله أعلم.

٣ - رسالة في شأن أهل الذمة :

لقد اطلعت أثناء بحثي في المخطوطات في الهيئة المصرية العامة للكتاب

(١) بياض بالأصل كما قال المحقق. والعبارة التي بين قوسين من تقديري.

(٢) بياض بالأصل كما قال المحقق.

على رسالة مخطوطة تشتمل على نبذة مختصرة في حكم التودد إلى أهل الذمة لشيخنا ابن دقيق العيد ذكر فيها آيات تمنع الموالاة والتودد إليهم، وذكر فيها الآيات التي تأمر ببرهم والإحسان إليهم، وذكر حديثين يحضنان على الإحسان إليهم. وخرج بعد البحث بقاعدتين إحداهما محرمة لودهم وتوليهم، والثانية أمره ببرهم والإحسان إليهم، وقد أوضح أثناء البحث الفرق بين القاعدتين وأنه لا تعارض بينهما، وهذا هو نصها:

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: اعلم أن الله تعالى منع من التودد لأهل الذمة بدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ إلى قوله تعالى^(١): ﴿... وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾. فمنع الموالاة والتودد. وقال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ﴾^(٢).

وقال في حق الفريق الآخر: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣)، وقال عليه السلام:

-
- (١) الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُخْرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].
- (٢) الآية: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسَطُوا إِلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُقْسَطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].
- (٣) الآية: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

«استوصوا بالذمة خيراً»، وفي حديث آخر «استوصوا بالقبض خيراً»^(١).

فلا بد من الجمع بين مقتضى هذه النصوص، وان الإحسان لأهل الذمة مطلوب، وأن التودد والموالة لهم منهي عنهما.

والبابان ملتبسان فلا بد من الفرق، وسيما أن عقد الذمة يوجب لهم علينا حقوقاً لأنهم في جوارنا، وخفارتنا، وذمة الله وذمة رسوله، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية، أو أعيان على ذلك فقد منع ذمة الله تعالى وذمة نبيه ﷺ، وذمة دين الإسلام، وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له؛ أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا ينصرونهم^(٢)، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمهم دون ذلك إهمال لعقد الذمة، فحكى في ذلك إجماع الأمة.

فعقده يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه أنه لعظيم، وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة، تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر. فمتى أدى إلى تعظيم شعائر الكفر وإلى مودات القلوب امتنع وصار من قبيل ما نهى عنه في الآية وغيرها، ويتضح ذلك بالمثل، وإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا، أو القيام لهم حينئذ، ونداؤهم بالأسماء المعظمة عندهم، الموجبة لرفع شأن من ينادى بها، هذا كله حرام. وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق فأخيلنا لهم واسعها ورحبها، والسهل

(١) الحديث: عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم مصر

فاستوصوا بالقبض خيراً فإن لهم ذمة ورحماً» خرجه الحاكم وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. «المستدرک» ج ٢ ص ٥٥٢. الكتاب العربي - بيروت.

(٢) هكذا في الأصل وأغلب الظن أنها (يقاتلونهم) كما يدل على ذلك الكلام الذي بعده.

منها، وتركنا أنفسنا في خسيسها وضيقها كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرؤوس مع الرئيس، والولد مع والده فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر، وتحقير شعائر الله تعالى، وشعائر دينه، واحتقار أهله، ومن ذلك تمكينهم من الولايات، والتصرف في الأموال الموجبة لقهر من هي عليه، أو ظهور العلو وسلطان المطالبة، وذلك ممنوع كله، وإن كان في غاية الرفق، لأن الرفق في هذا الباب نوع من الرياسة والسياسة والسيادة وعلو المنزلة في المكارم، فهي درجة رفيعة أوصلناهم إليها، وعظمتناهم بسببها، ورفعنا قدرهم، وذلك كله منهي عنه.

وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادماً، ولا أجيبراً يؤمر عليه وينهى، ولا يكون أحدهم وكيلاً في المحاكمات على المسلمين عند ولاة الأمور، فإن ذلك أيضاً إثبات لسלטتهم على ذلك المسلم.

وأما ما أمر به من برهم من غير مودة باطنة، بالرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عريانهم، ولين القول لهم على سبيل التلطف والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذاهم مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم، ولا خوفاً ولا تعظيماً. والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ من غاب منهم إذا تعرض أحد لأذيته، وصون أموالهم، وأعراضهم وعيالهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم، وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله معه، يجوز فعله معهم على وجه العزة منا لا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا. وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا عليه السلام، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلونا واستولوا على دماننا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا. ثم نقابلهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امثالاً لأمر ربنا وأمر نبينا ﷺ، لا محبة ولا تعظيماً لهم ولا تظهيراً، فإن تلك

الأمر التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة كان الواجب أن يعاملوا بمقتضاها، لكن عقد الذمة يمنعنا من ذلك، فستحضره حتى يمنعنا من الود الباطن لهم المحرم علينا .

ولما أتى الشيخ أبو الوليد الطرطوشي رضي الله عنه الخليفة بمصر رأى وزيراً راهباً سلم إليه الخليفة قياده، وأخذ يسمع رأيه وكلامه، وينفذ كلماته السمومة في جميع المسلمين، وكان هو ممن يسمع قوله فيه، فلما دخل عليه في صورة الغضب والوزير الراهب بإزائه أنشده :

يا أيها الملك الذي جوده يَطْلُبُهُ القاصدُ والراغبُ
إن الذي شرفت من أجله يزعمُ هذا أنه كاذب
فاشتد غضبُ الخليفة عند سماعها، وأمر الراهب فسُحِبَ وضربَ وقُتِلَ ،
وأقبل على الشيخ أبي الوليد فأكرمه وعظّمه، بعد عزمه على أذيته . فلما استحضر الخليفة تكذيب الراهب لرسول ﷺ وهو سبُّ شرفه وشرفُ آبائه وأهل السماء والأرض، بعثه ذلك على البعد من السكون إليه والمودة له، وإبعاده عن منازل العز إلى ما يليق به لعنة الله .

ويروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في أهل الذمة أهينوهم ولا تظلموهم، وكتب إليه أبو موسى الأشعري أن نصرانياً بالبصرة يحسن ضبط عمله، وقصر ولايته على جباية الخراج لضرورة تعذر غيره . فكتب إليه عمر رضي الله عنه ينهاه عن ذلك، وقال له في الكتاب مات النصراني والسلام . مات ماذا كنت تصنع بما صنعه .

وبالجملة فبرهم والإحسان إليهم مأمور به، وودهم وتوليهم حرام، فهما قاعدتان إحداهما محرمة، والأخرى مأمور بها، وقد أوضحنا الفرق بينهما بحسب

الوقت . وقد كان شهاب الدين القرافي رحمه الله أجرى معنا البحث في الفرق بين هاتين القاعدتين من عشرين سنة ووضعهما بعد ذلك في كتابه المسمى بالذخيرة في مذهب علم المدينة، وهو من الكتب العظيمة في مذهبه، وسنذكر هذا الفرق وما أشبهه، مستوفياً إن شاء الله تعالى في موضعه من شرحنا لكتاب الشيخ أبي عمرو ابن الحاجب رحمه الله تعالى .

فجزى الفقير مشطوب .

رحم الله مقيده وكتابه ومكمله وقارئه والحمد لله رب العالمين على ذمة كاتب الحروف البادي كان الله له في الدارين يمنه وكرمه آمين .

مجاميع تيمو/ ١٣١ من ٢٧١ إلى ٢٧٣ .

المبحث الرابع

درجته في الاجتهاد

لقد وضحت فيما سبق أن ابن دقيق العيد وصل إلى مجتهد مذهب في كل من المذهبين المالكي والشافعي ، كما وضحت ما قام به من جهد مشكور، في شرح كتابين خاصين في أحاديث الأحكام، وضح فيهما آراء الأئمة الأربعة وأتباعهم وآراء غيرهم من العلماء كالظاهرية، وعرض أدلتهم وناقشها بأسلوب علمي متجرد عن التعصب لأي أحد منهم .

والمعنى لشرحه لهذين الكتابين : كتاب «عمدة الأحكام» وكتاب «الإمام» يرى شخصية مستقلة فذة في الأصول والفروع .

وقد ذكرت نموذجاً لشرحه في كل منهما في المبحث الخاص بأثره في الفقه عامة . كما يدل شرحه لهما على أنه إمام مجتهد له شخصيته المستقلة في استنباط الأحكام واستخراج القواعد الشرعية، فكتابه «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» يزخر بالمباحث الأصولية والفقهية، التي هي صورة واضحة لاجتهاده، وتتجلى بها شخصيته الفقهية المستقلة .

وهو عند تعرضه لآراء المذهب الشافعي واستدلالاته ينقل الأدلة التي قالها أئمة المذهب، كما يذكر بعض الأدلة المستنبطة من قبله، فيقول مثلاً قال أصحاب الشافعي . ولأصحاب الشافعي أن يقولوا، ولا يقول قلنا أولنا أن نقول، وذلك مثل عبارته في نقله لآراء المذاهب الأخرى، وهذا مما يدل على أنه كان يشعر في نفسه أنه قد بلغ درجة الاجتهاد المطلق .

ومما يدل على ذلك أيضاً ما يلي :

أولاً: ما نقل عنه مما يشعر بذلك وبما وصفه به علماء عصره من ذلك :

قال الأدفوي^(١) : وكتب له (بقية المجتهدين) وقرىء بين يديه فأقر عليه ، ولا شك أنه من أهل الاجتهاد ، وما ينازع في ذلك إلا من هو من أهل العناد ، ومن تأمل كلامه علم أنه أكثر تحقيقاً وأمتن ، وأعلم من بعض المجتهدين فيما تقدم وأتقن ، حكى لنا صاحبنا الفاضل علم الدين الإسني قال ذكره شيخنا العلامة علاء الدين على بن إسماعيل القنوي فقلت له لكنه ادعى الاجتهاد ، فسكت ساعة مفكراً وقال والله ما هو ببعيد . انتهى كلام الأدفوي .

وقال الصفدي^(٢) : وأخبرني فتح الدين - أي اليعمري - أنه ما كان يعجبه قول من يقول (قاضي القضاة الشافعي) فإذا قلنا (قاضي قضاة الشافعية) قال إيه هذا .

ونقل السيوطي^(٣) : عن تلميذه أبي حيان قوله : هو أشبه ما رأينا يميل إلى الاجتهاد .

وقال الإسني^(٤) : (لم يشتهر أحد في زمانه اشتهاؤه ، ولا حاز قوته على الاستنباط واقتداره ، شيخ الدهر بلا نزاع ، ووجه العصر بلا دفاع . . . إلى أن قال وقام من الاجتهاد بعبء لا يطيق أحد حمله ولا يقوى ، الجامع للعلوم الشرعية والعقلية واللغوية حافظ الوقت خاتمة المجتهدين .

(١) الأدفوي : «الطالع السعيد» ص ٥٦٩ .

(٢) صلاح الدين الصفدي : «الوافي بالوفيات» ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) جلال الدين السيوطي : «حسن المحاضرة» ج ١ ص ١٢٨ .

(٤) الإسني : «طبقات الشافعية» ج ٢ ص ٢٢٧ .

وقال السبكي^(١): الشيخ الإمام شيخ الإسلام الحافظ الزاهد الورع الناسك
المجتهد المطلق).

فقد أجمع هؤلاء العلماء الأجلاء تلاميذه وغير تلاميذه ممن كانوا في عصره
بأنه وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق، ووصفوه بذلك، حتى أن بعضهم ذكر أنه
كتب له بقية المجتهدين، وقرىء بين يديه، فأقر عليه. والبعض ذكر أنه كان
يتضايق من وصفه بقاضي قضاة الشافعية. كما أن كلاً من الإسنوي والسبكي وهما
من كبار علماء الشافعية في عصره، ومن المتخصصين في الكتابة عن علماء
المذهب الشافعي وصفه بالاجتهاد المطلق، ولا شك أن الإسنوي العالم
بالأصول والفروع؛ حينما وصفه بأنه خاتم المجتهدين، يقصد وصفه بذلك أنه كان
مجتهداً مطلقاً. والسبكي وصفه صراحة بالاجتهاد المطلق.

ثانياً: ما نقل عنه من الاجتهادات التي خالف فيها الإمام الشافعي رضي
الله عنه من ذلك:

أ - ذكر صلاح الدين الصفدي^(٢) مسألة خالف فيها الشيخ ابن دقيق العيد
الإمام الشافعي رضي الله عنه وهي مسألة تزويج الولد أمه، فإن الشافعي رضي
الله عنه يرى أن الولد يزوج أمه، ومعنى هذا أن الشافعي يجعل للولد الولاية على
الأم في الزواج.

أما ابن دقيق العيد فقد رأى أن الولد لا يزوج أمه، ومخالفاً بذلك الإمام
الشافعي رضي الله عنه.

والدليل العقلي يؤيد صحة ما ذهب إليه ابن دقيق العيد، لأن الولد إذا

(١) السبكي: «طبقات الشافعية» ج ٦ ص ٢.

(٢) صلاح الدين الصفدي: «الوافي بالوفيات» ج ٤ ص ١٩٤.

استحق الولاية على أمه إنما يستحقها من الأب أو الأم، لأنه متفرع منهما، فهو متفرع من أصليين :

أحدهما: أبوه، ولا ولاية للأب في تزويج أم ابنه لأنها زوجته، والزوج ليس من حقه أن يزوج امرأته، لأنها إما أن تكون على ذمته، أو تكون مطلقة، فإن كانت على ذمته فلا يتصور بحال من الأحوال أن يزوجها، وإن كانت مطلقة، فإن ولاية أمرها في هذه الحالة إما أن تكون إلى أبيها، أو من له حق الولاية عليها، أو أن تكون بيدها هي في رأي من يجيز ذلك كالحنفية، فهي في رأيهم حرة، أمرها بيدها إن شاءت تزوجت بنفسها.

وإذاً، فالمنطق في هذا الوجه يؤيد ابن دقيق العيد وهو أن الولد لا يملك بوصفه ابن أبيه أن يزوج أمه.

الأصل الثاني: الأم، وأن يزوجها بوصفه ابنها، فهو أيضاً لا يصح أن يكون ذريعة أو سبباً في إعطاء الولد حق تزويج الأم، لأنها في هذه الحالة إما أن يزوجها وليها، أو تزوج نفسها بنفسها على رأي من يجيز ذلك.

ب - ما نقله السبكي في طبقاته^(١) أن ابن دقيق العيد لم يأخذ بحديث القلتين مع اعتقاده صحته، واختار ترك العمل به لا لمعارض أرجح، بل لأنه لم يثبت عنده بطريق يجب الرجوع إليه شرعاً تعيين لمقدار القلتين.

وحديث القلتين هو ما نقل عن الرسول ﷺ قوله: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً».

فالشافعية قد أخذوا جميعاً بهذا الحديث وقالوا في كتبهم الفقهية تفرعاً على هذا الحديث: (إذا تجمع الماء في موضع بما يبلغ مقدار القلتين فأكثر

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي، ج ٦ ص ٢٤٥.

وَحَلَّتْ بِهِ نَجَاسَةٌ فَإِنَّهُ لَا يَنْجَسُ ، إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَوْ طَعْمُهُ أَوْ رَائِحَتُهُ .

أَمَّا ابْنُ دَقِيقِ الْعَيْدِ فَقَدْ وَافَقَهُمْ عَلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ فِي جِهَةِ النُّقْلِ وَالرِّوَايَةِ ، وَلَكِنَّهُ خَالَفَهُمْ فِيهِ مِنْ حَيْثُ صِحَّةُ الْعَمَلِ بِهِ ، لَا لِمُعَارَضِ أَرْجَحِ مِنْهُ ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ لَدَيْهِ مِنْ طَرِيقٍ شَرْعِيٍّ صَحِيحٍ تَعْيِينِ مِقْدَارِ الْقَلْتَيْنِ .

ثَالِثًا : تَأَلَّفَهُ لِكِتَابِهِ (التَّشْدِيدُ فِي الرَّدِّ عَلَى غَلَاةِ التَّقْلِيدِ) ذَكَرَهُ النُّجَيْبِيُّ وَأَبِي حَيَّانِ الْغُرْنَاطِيُّ وَغَيْرُهُمَا .

قَالَ تَلْمِيذُهُ ابْنُ رَشِيدٍ^(١) : نَقَلًا عَنْ أَبِي حَيَّانٍ ، وَلَهُ كِتَابٌ «التَّشْدِيدُ فِي الرَّدِّ عَلَى غَلَاةِ التَّقْلِيدِ» ثُمَّ قَالَ ابْنُ رَشِيدٍ عِنْدَ ذِكْرِ أَسْمَاءِ كِتَابِهِ ، وَلَهُ كِتَابٌ أَبِي مِنْ إِخْرَاجِهِ لِلنَّاسِ ، وَقَالَ إِذَا مِتُّ يَوْجِدُ مُكْمَلًا مُخْلِصًا ، تَكَلَّمَ فِيهِ عَنْ كُلِّ مَا يَجِبُ تَرْكُهُ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَثَمَةِ الْمُقْلِدِينَ لِبَطْلَانِهِ ، أَوْ لَضَعْفِ مَأْخِذِهِ ، وَرَأَى أَنَّ الْمُقْلِدِينَ فِي سَعَةِ اتِّبَاعِ مَا شَاءُوا مِنَ الْمَذَاهِبِ بَعْدَ طَرَحِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ ، وَضَعِ ذَلِكَ نَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

وَقَالَ ابْنُ رَشِيدٍ وَلَا أُدْرِي كَيْفَ سَمِيَ هَذَا الْكِتَابُ وَلَعَلَّهُ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي سَمَاهُ صَاحِبُنَا أَبُو حَيَّانٍ (التَّشْدِيدُ فِي الرَّدِّ عَلَى غَلَاةِ التَّقْلِيدِ) .

وَقَالَ الْأَدْفُوِي^(٢) : أَخْبَرَنِي قَاضِي الْقَضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ أَحْمَدُ الْقَمُولِيُّ ، أَنَّهُ أَعْطَاهُ دِرَاهِمًا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا وَرَقًا ، وَيَجْلِدُهُ أَبْيَضًا ، قَالَ فَاشْتَرَيْتُ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ كِرَاسًا وَجَلَدْتُهَا ، وَاحْضَرْتُهَا إِلَيْهِ ، وَصَنَّفْتُ تَصْنِيفًا وَقَالَ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ فِي حَيَاتِهِ .

وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ فِي حَيَاتِهِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيدٍ

(١) ابن رشيد: «رحلة ابن رشيد» ج ٣ ص ١/٦٢ .

(٢) الأدفوي: «الطالع السعيد» ص ٥٧٦ .

والقمولي هو نفس كتاب «التشديد في الرد على غلاة التقليد» الذي ذكره كل من النجيبى وأبو حيان .

وقد يكون كتاباً خاصاً في الفقه دون فيه آرائه الفقهية .

وعلى كل حال فالكتاب لم يظهره في حياته لقوة التعصب المذهبي في ذلك العصر، واعتقاد الناس ومعظم علماء ذلك العصر أن باب الاجتهاد قد سُدَّ منذ القرن الرابع الهجري، فخاف ابن دقيق العيد من نشره في حياته أن يتعرض لسخط الناس، وأن يكيد له علماء عصره ويرموه بالخروج والابتداع، فهو قد تكلم فيه على كل ما يجب تركه من مذاهب الأئمة المقلدين لضعف مأخذه أو لعدم صحته في رأيه، ولا يمكنه معادة أصحاب المذاهب كما ذكر ذلك ابن رشيد^(١) فأوصى ألا يظهر إلا بعد موته فيكون بذلك قد أدى النصيحة لدين الله ولعامة المسلمين، ولو بعد موته .

وعلى كل حال فقد سلك ابن دقيق العيد في تبين آراءه الفقهية في حياته مسلكاً يبعده عن سخط العوام، وغلاة المقلّدين، فقام بشرح أحاديث الأحكام فكان في شرحه لكتاب «عمدة الأحكام»، وكتاب «الإمام»، يذكر ما يدل عليه الحديث من الأحكام الفقهية، ومن قال بها من كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب رضوان الله عليهم أجمعين، ومن خالفها مبيناً نوع المخالفة ودليلها، ثم يقضي بينهم بما يراه حقاً يؤيده الكتاب أو السنة غير متحيز إلى أحد من الأئمة، أو مذهب من المذاهب. وقد سلك هذا الطريق الذي سلكه بعض المجتهدين المتأخرين كمحمد بن إسماعيل الصنعاني المتوفى سنة (١١٨٢هـ)، فشرح «بلوغ المرام» لابن حجر العسقلاني، الذي جمع فيه معظم الأحاديث التي استنبط الفقهاء منها الأحكام الفقهية، وسمى الصنعاني شرحه

(١) ابن رشيد: «رحلة ابن رشيد» ج ٣ ص ١/٦٣ .

بـ «سبل السلام»، كما وضع حاشيته على كتاب «إحكام الأحكام» لابن دقيق العيد، وسماها بالعدّة.

وكمحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٥هـ)، فشرح منتقى الأخبار لأبي البركات عبد السلام بن تيمية وسماه «نيل الأوطار».

الخاتمة

وبعد هذه الجولة الدراسية، في حياة الشيخ الإمام محمد بن علي بن دقيق العيد وبيان آثاره في الفقه فقد برز لنا حقائق من أهمها:

١ - إن ابن دقيق العيد نشأ في بيئة علمية منذ صغره في مدينة قوص، وكانت قوص من أهم المراكز العلمية في ذلك الوقت، فحفظ القرآن الكريم، ثم درس فقه مالك، وفقه الشافعي، ودرس الأصول، والنحو، وسمع الحديث ورواه. ثم رحل في طلب العلم إلى القاهرة والاسكندرية، ودمشق والحجاز. وأخذ العلم من كبار علماء عصره. وأكثر من تأثر به من أساتذته وكان الأب الروحي له هو العز بن عبد السلام، حيث ورث عنه علمه، واجتهاده، وتقواه، وجرأته في الحق.

٢ - كانت أمور الحياة، ووسائل المعيشة قاسية وصعبة وعصيبة في الفترة التي عاشها ابن دقيق العيد في أكثر الأحيان، بسبب شح النيل، وجذب الأرض في كثير من الأوقات، فقد حصل في زمنه أن شح النيل أربع مرات، وكان يؤدي ذلك إلى الفقر وارتفاع الحاجيات، كما كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى ظهور الأوبئة والأمراض الفتاكة، وموت الناس في الطرقات. وبسبب حرمان الشعب المصري من ملكية الأرض، وبسبب كثرة الحروب التي كانت تقع بين المسلمين والصليبيين من جهة، وبين المسلمين والتتار من جهة أخرى، وبين سلاطين المسلمين من جهة ثالثة. وكان ابن دقيق العيد غالباً ما يعيش في فاقة، حتى في زمن توليته منصب قاضي القضاة.

وقد عبر عن ذلك في شعره، من ذلك قوله:

لعمري لقد قاسيتُ بالفقرِ شدةً وقعتُ بها في حيرةٍ وشتاتِ
فإن بحثُ بالشكوى هتكتُ مروءتي وإن لم أبح بالصبر خفتُ مماتي
وأعظم به من نازلٍ بملمةٍ يزيلُ حياتي أو يزيلُ حياتي

٣ - إن المجتمع الذي كان يعيش فيه كان قد كثر فيه الفساد والمجون والفجور، ولم تكن تلك الأخلاق قاصرة على الرعاع والدهماء، أو أراذل الأمة. بل كان أيضاً عند عليّة القوم، فعاقبهم الله بتسليط الصليبيين عليهم ثم التتار. ثم ظهر من العلماء العاملين، المتقين المخلصين، من نصبوا أنفسهم لإحقاق الحق ودحض الباطل، وتذكير المسلمين بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه كأمثال العزبن عبد السلام، وابن تيمية، وابن دقيق العيد. فكان موقفهم هذا سبباً في رجوع الناس إلى دينهم، ثم خروج الصليبيين من البلاد الإسلامية، وصد التتار، ثم إسلامهم.

٤ - إن عصر ابن دقيق العيد يعتبر عصر ازدهار للحركة العلمية، فظهر في عصره كثير من العلماء مثل العزبن عبد السلام وعبد الكريم الرافعي، والنووي، وابن قدامة المقدسي، وابن الحاجب، وابن الصلاح، وابن تيمية، والذهبي، وغيرهم كثير. ومؤلفات هؤلاء كثيرة أشهر من أن تعرف، وقد زوّدت المكتبة الإسلامية في كثير من الكتب العلمية في الفقه والحديث وغيرها.

٥ - إن ابن دقيق العيد كان رحمه الله عالماً، تقياً، ورعاً، عزيز النفس، كريماً، جواداً، سخياً، حليماً، متسامحاً، عديم البطش، قليل المقابلة على الإساءة، كثير المكارم النفسانية والمحاسن الإنسانية، وكان فيه انصاف ويحاسب نفسه على الكلام، ويأخذ عليها بالملام، مشتغلاً بنفسه، مع دين متين وعقل رصين.

٦ - إنه ما قبل منصب قاضي القضاة إلا بعد إباء شديد، وعلم بأنه سيؤول إلى من لا يستحقه، ولا تتوفر فيه شروط منصب القاضي العادل، فوجد أن الأمر

لزاماً عليه أن يقبله لتعيينه عليه . بحيث لو رفض لوقع في الإثم . فأصبح قبوله واجباً دينياً لا مناص منه .

وكان ذلك في أخريات حياته . وبعد أن تجاوز السبعين من عمره . وأنه كان متبرماً بهذا المنصب . وكان إذا سمع ما يكره ، أو أريد على أمر يخالف الشرع ، عزل نفسه ، فعل ذلك مراراً ، فكان بذلك مثال الزاهد ، فلم ينخدع برياسة كما انخدع بها كثير من العلماء ، فساروا وراء المظاهر والأبهة والخيلاء ، فباعوا دينهم بدنياهم ، فما أصبرهم على النار!!!

وكان له آثار حسنة في القضاء، منها أن القضاة كان يخلع عليهم الحرير فأبى ذلك ، فخلع عليه الصوف ، فاستمر الحال على ذلك من بعده ، وأوجد المودع الحكمي (وهو الذي يوضع فيه أموال الأيتام) وكان يكتب إلى نوابه في الأقاليم يذكرهم ويحذّرهم ، كما وقف أمام تصرفات بعض أصحاب السلطة الذين كانوا يريدون أن يخرجوا عن حكم الشرع ، وغير ذلك من الأمور . فكان بذلك مثال النزاهة والشجاعة في الحق ، والإخلاص لدين الله ، فرفع منصب القضاء قدره كما رفع هو منصب القضاء .

٧ - إن ابن دقيق العيد لم يكن فقيهاً فحسب ، بل كان أديباً وشاعراً ومحدثاً مبرزاً في جميع العلوم الدينية ، بل كان مطلعاً على العلوم الدنيوية التي كانت في عصره كالكيمياء ، فكان مُلمّاً بها وأنفق فيها مالاً وعمراً .

٨ - كان لابن دقيق العيد فضل كبير على الفقه المالكي ، والفقه الشافعي ، وذلك في التدريس والإفتاء ، وشرح الكتب الفقهية والأصولية ، وارتفع عن مستوى التقليد المطلق في المذهبين إلى درجة المجتهد المذهب فيهما ، حيث يستنبط الأحكام طبق قواعد المذهبين ، وتخرج به أئمة في كل منهما .

٩ - كان رحمه الله ذا اطلاع واسع ، وكثير التحري والتدقيق فيما يقرأ ، ولا يقبل الشيء من غير أن يعمل فيه فكره فيقبله أو يرفضه .

وفوائده أكثر من أن تحصى ، ولكنها غالباً متعلقة بالعلم من حيث هو ، حديثاً ، وأصولاً ، وقواعد كلية ، وأكثر ما امتاز به فقه الحديث . فكان ذا قوة في استنباط الأحكام .

وقد ارتفع في آخر حياته عن مستوى المجتهد المذهب إلى درجة المجتهد المطلق . حيث يستخلص الأحكام من أدلتها في الكتاب والسنة . وقد ساعده على بلوغ هذه المنزلة من العلم ، ذكاء ممتاز ، ودأب على التحصيل ، وسهر بالليل للدرس ، وشره في القراءة ، وغرام بالإطلاع ، وحافظة قوية ، وقد كان رحمه الله ذا شخصية مستقلة فذة في الأصول والفروع ، وخير ما يصور لنا شخصيته الفقهية المستقلة ، أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق كتاباه «شرح الإمام» ، وكتاب «إحكام الأحكام» .

١٠ - إن العلماء الثقات ممن أرخوا له أجمعوا على وصفه بالنزاهة ، والتقى ، والتقدم على جميع معاصريه في العلوم الدينية ، وأنه كان من العلماء العاملين الأمناء على دين الله الداعين لتطبيقه بلسان صدق وجنان ثابت ، لا تزعزعهم شهوة نفس ، ولا نشوة سلطان ، ولا يخافون في سبيل الحق ملكاً ولا جباراً ، وأنه كان من أساطين الفكر وأئمة الدين ، وممن يتغنون بعلمهم وجه الله والدار الآخرة ، بل يكادون أن يكونوا مجمعين على أنه هو العالم المبعوث على رأس السبعمئة المشار إليه في الحديث المصطفوي وهو قوله عليه السلام : «أن الله يعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها .

١١ - إن بيت المقدس وقع في أيدي الصليبيين في زمن الحروب الصليبية ثلاث مرات ، ففي المرة الأولى بعد قتال مرير ، وفي المرتين الأخرتين سلم تسليمًا

وبدون قتال بسبب المنازعات والخلافات التي كانت قائمة بين سلاطين المسلمين. هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها في دراستي لشخصية ابن دقيق العيد وأثره في الفقه.

أما التوصيات وأهم ما ينبغي التنبيه إليه هو ما يلي :

١ - التنقيب والبحث عن كتب ابن دقيق العيد غير المطبوعة والتي ذكرتها في رسالتي ثم تحقيقها وطبعها، وخاصة كتاب «الإمام في أحاديث الأحكام» و«شرح الإمام في أحاديث الأحكام» وكتاب «الاقتراح في الاصطلاح» لينتفع بها العلماء في العالم الإسلامي. فإن كل من اطلع عليها وترجم لها اثنى عليها ثناء عاطراً. كابن تيمية وابن حجره والإسنوي والأدفوي، فقد اعتبر الأدفوي شرح الإمام أفضل من كتاب «أحكام الأحكام» وأشمل منه. وقال ابن حجر بأنه أتى في شرحه لهذا الكتاب بالعجائب الدالة على سعة دائرته بالعلوم خصوصاً بالاستنباط.

ومما يدل على سعة «شرح الإمام» ما نقلته عنه في تعقبه لكلام ابن حزم وأغلب الظن أن هذه الكتب موجودة في بلاد اليمن، وفي المغرب العربي، وفي المكتبات العالمية في أوروبا وأمريكا. كما ينبغي البحث عن كتاب التشديد في الرد على غلاة التقليد.

٢ - أن يضع علماء المسلمين تشريعاً مقنناً مستمداً من الكتاب والسنة مستعينين بذلك بكتب الفقه على المذاهب الأربعة وغيرها من كتب الفقه الإسلامي، وما كتب في شرح آيات وأحاديث الأحكام.

٣ - تدريس مقدمة ابن دقيق العيد على شرح مختصر ابن الحاجب في الفقه في كليات الشريعة والكليات الإسلامية، فهي توضح ما ينبغي أن يتعرض إليه الشارح والمحقق من تعرض لبسط ألفاظ الكتاب، وإيضاح معانيه المشكلة، وتفسير ألفاظه الغربية واللغوية مع التوجيه والتعليل للآراء الفقهية، وتخريج

الأحاديث التي ترد فيه، والتحري في نقل الآراء بالرجوع إلى مصادرها، وذكر أصل الاجتهاد عند الاختلاف، وعدم التوسع في الشرح بالخروج على المسائل الواردة في الكتاب، وليتمكن طالب العلم من التفريق بين قول المصنف قال فلان، وبين قوله حكى عن فلان، أو عن فلان كذا، أو نقل عن فلان كذا، أو اشتهر عنه كذا، وقوله: قال أبو حنيفة أو قال الشافعي، وغير ذلك من المصطلحات الفقهية التي ينبغي لطالب العلم أن يفهمها.

٤ - على علماء المسلمين في العالم الإسلامي أن يؤدوا واجبهم في تذكير الناس والحكام بتقوى الله، وأن يقولوا كلمة الحق أمام حكامهم حتى تعود الأمة إلى دينها حكماً ومحكومين، فيعيدوا للإسلام مجده وعزته وكرامته، كما عاد للإسلام مجده وعزته وقوته في زمن ابن دقيق العيد، فظهرت بلاد المسلمين من رجز الغزاة الصليبيين. وصدق الله العظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

٥ - على حكام المسلمين أن يتحدوا ويتفقا فيما بينهم، ولا يجعلوا للمصالح الشخصية والأحقاد مجالاً للتفرقة بينهم، وأن يكونوا يداً واحداً على أعدائهم وأعداء الله وأعداء رسوله، وأن يعتصموا بحبل الله ولا يوالوا أعداء الله كما حدث إبان الحروب الصليبية، ويتذكروا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

٦ - أن تدرس سيرة العلماء العاملين المخلصين (كأمثال العز بن عبد السلام وابن تيمية وابن دقيق العيد) في المدارس والمعاهد والكلية لتكون سيرتهم نموذجاً يهتدى ويقتدى بها الجيل الإسلامي من الشباب المسلم في هذا العصر، وخاصة أننا نعيش في فترة ركود تشبه إلى حد كبير عصرهم.

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين.

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - صحيح البخاري : للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - المتوفى سنة (٢٥٦هـ) .
- ٣ - صحيح مسلم : للإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري - المتوفى سنة (٢٦١هـ) .
- ٤ - جامع الترمذي : للحافظ محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة (٢٧٩هـ) .
- ٥ - سنن أبي داود : لسليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة (٢٧٥هـ) .
- ٦ - سنن النسائي : لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة (٢٤٣هـ) .
- ٧ - المستدرک : لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٥هـ) .
- ٨ - إحكام الأحكام : لابن دقيق العيد .
- ٩ - كتاب الإمام : لابن دقيق العيد، تحقيق سعيد مولوي .
- ١٠ - كتاب الإمام : لابن دقيق العيد، الجزء الأول منه في المكتبة الأزهرية رقم (٢٨٧) .

- ١١ - شرح الأربعين حديثاً النووي: لابن دقيق العيد .
- ١٢ - الاقتراح في بيان الاصطلاح: مخطوط، لابن دقيق العيد، صورة مصورة عن نسخة في مكتبة برلين - ألمانيا، وهي موجودة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .
- ١٣ - الأربعون حديثاً تساعية الإسناد: مخطوط لابن دقيق العيد، جزء واحد، مجلد واحد، خط مغربي قديم، الخزانة التيمورية (٤٣٢) دار الكتب المصرية .
- ١٤ - ديوان ابن دقيق العيد: لعلي صافي حسين، طبعة دار المعارف بالقاهرة .
- ١٥ - رسالة في حكم التودد إلى أهل الذمة: لابن دقيق العيد، مخطوطة ضمن مجموعة رقم (١٣٧) مجاميع تيمور، دار الكتب المصرية .
- ١٦ - مغني المحتاج: لمحمد الشربيني الخطيب .
- ١٧ - المغني: لابن قدامة المقدسي .
- ١٨ - فتح القدير: للكمال بن الهمام في شرح الهداية .
- ١٩ - حاشية الدسوقي: محمد بن محمد بن عرفة الدسوقي .
- ٢٠ - المجموع: لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي .
- ٢١ - نيل الأوطار: لمحمد بن علي الشوكاني .
- ٢٢ - سبل السلام: لمحمد بن إسماعيل الصنعاني .
- ٢٣ - العدة على أحكام الأحكام .

- ٢٤ - ألفية العراقي : مخطوط المكتبة الأزهرية مصطلح (٣) (٢٩٣).
- ٢٥ - إجازات الجوهري : مخطوط (٥٩١) (٤١٧٩٧).
- ٢٦ - الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي الطبعة الثانية، دمشق، الطبعة الهاشمية، ١٩٧٩.
- ٢٧ - فوات الوفيات والذيل عليها : تأليف محمد بن شاكر الكبتي، والمذيل عليها الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت.
- ٢٨ - الطالع السعيد : الجامع أسماء نجباء الصعيد لكمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي، تحقيق سعيد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.
- ٢٩ - مستفاد الرحلة والاعتراب : للقاسم بن يوسف النجيب السبتي، تحقق عبد الحفيظ منصور، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.
- ٣٠ - ملء الغيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهية إلى مكة وطيبة : المشهور برحلة ابن رشيد، لمحمد بن عمر الفهري السبتي المعروف بابن رشيد، وهو مخطوط موجود الجزء الثالث منه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.
- ٣١ - عصر سلاطين الممالك ونتاجه العلمي والأدبي : للدكتور محمود رزق سليم، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ومطبعتها.
- ٣٢ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : تأليف أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٢م.
- ٣٣ - مجلة الرسالة : للزيات سنة (١٧) ص (٩٩٨ - ٩١١)، من أعلام

رجال الفكر في عصر الحروب الصليبية، ابن دقيق العيد، بقلم الأستاذ أحمد أحمد بدوي .

٣٤ - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: لأحمد شلبي، الطبعة الثانية ١٩٧٢ .

٣٥ - المجددون في الإسلام . لعبد المتعال الصعيدي، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ومطبعتها (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م) .

٣٦ - مقدمة ابن خلدون: للعلامة المؤرخ عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، المشهور بابن خلدون، طبعة بولاق .

٣٧ - معيد النعم ومبيد النقم: لتاج الدين عبد الوهاب السبكي، تعليق محمد علي النجار وزملائه .

٣٨ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: لعبد الله بن أسعد بن علي المشهور بالرافعي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان .

٣٩ - العز بن عبد السلام: رسالة دكتوراة للدكتور علي الفقير .

٤٠ - العز بن عبد السلام: لرضوان علي الندوي، مطابع دار الفكر بدمشق (١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م) .

٤١ - بدائع الزهور في وقائع الدهور: تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري .

٤٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتايكي .

٤٣ - طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ،
الطبعة الحسينية (١٣٢٤هـ).

٤٤ - طبقات الشافعية: لجمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي
تحقيق عبد الله الجبوري ، بغداد (١٣٩١هـ).

٤٥ - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: تأليف محمد محمد
مخولف ، المطبعة السلفية، الطبعة الرابعة عشرة.

٤٦ - كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون: للحاج خليفة مصطفى بن
عبد الله كاتب حلبي ، مكتبة المثنى ، بغداد.

٤٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ ،
الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة.

٤٨ - كتاب الخطط للمقرئ أو «المواعظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار»
لأحمد بن علي المقرئ .

٤٩ - الخطط الجديدة لمصر والقاهرة: لعلي مبارك طبعة بولاق.

٥٠ - الدرر الكافية في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن حجر العسقلاني ،
مطبعة المدني ، القاهرة.

٥١ - رفع الإصر عن قضاة مصر: لابن حجر العسقلاني .

٥٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن العماد الحنبلي ،
منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

٥٣ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: لجلال الدين السيوطي ،
المطبعة الشرقية (١٣٢٧هـ).

- ٥٤ - تذكرة الحفاظ لشمس الدين محمد الذهبي : دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة .
- ٥٥ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : محمد بن علي الشوكاني .
- ٥٦ - البداية والنهاية : لعماذ الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، المشهور بابن كثير ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
- ٥٧ - الانتصار بواسطة عقد الأمصار : لإبراهيم بن محمد بن دقماق ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .
- ٥٨ - الأعلام : لخير الدين الزركلي ، الطبعة الثالثة .
- ٥٩ - معجم المؤلفين : عمر كحالة ، مكتبة المثنى ، بيروت .
- ٦٠ - سفيان الثوري : للدكتور عبد الحلیم محمود ، شيخ الأزهر سابقاً .
- ٦١ - وحي القلم : لمصطفى صادق الرافعي .
- ٦٢ - لامية البوصيري : للشيخ البوصيري ، مكتبة الكونغرس ، مجموعة منصور ، صورة عنها في مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، شريط رقم (٢٦٤) .
- ٦٣ - اللباب في تهذيب الأنساب : لعز الدين علي بن محمد بن الأثير الجزري .
- ٦٤ - لسان العرب : لابن منذور ، جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم الأنصاري .
- ٦٥ - القاموس المحيط للفيروزبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، الطبعة الحسنية .

الفهرست

المقدمة	٩ - ٥
تمهيد: استعراض العصر الذي عاش ابن دقيق العيد فيه	٤٧ - ١١
المبحث الأول: الناحية السياسية	٣٢ - ١٢
المبحث الثاني: الناحية الاقتصادية	٣٦ - ٣٣
المبحث الثالث: الناحية الاجتماعية	٤٣ - ٣٧
المبحث الرابع: الناحية الثقافية	٤٧ - ٤٤
الباب الأول: التعريف بابن دقيق العيد	١١٨ - ٤٩
الفصل الأول: نسبه ومولده	٥٦ - ٤٩
المبحث الأول: اسمه وكنيته ولقبه	٥٢ - ٤٩
المبحث الثاني: مولده	٥٦ - ٥٣
الفصل الثاني: طلبه للعلم	٧٢ - ٥٧
المبحث الأول: أساتذته ومن روى عنهم	٥٩ - ٥٧
المبحث الثاني: ترجمة لأشهر أساتذته	٦٩ - ٦٠
المبحث الثالث: جلده في طلب العلم	٧٢ - ٧٠
الفصل الثالث: تصديه للتدريس والقضاء	٩٨ - ٧٣
المبحث الأول: تصديه للتدريس	٨٦ - ٧٣
المطلب الأول: المدارس التي درس فيها	٨٢ - ٧٣
المطلب الثاني: ترجمة لأشهر تلاميذه	٨٦ - ٨٣
المبحث الثاني: تصديه للقضاء	٩٨ - ٨٧

١١٨-٩٩	الفصل الرابع : أخلاقه وتصوفه وثناء العلماء عليه
١٠٧-٩٩	المبحث الأول: أخلاقه
١١٠-١٠٨	المبحث الثاني : تصوفه
١١٨-١١١	المبحث الثالث : ثناء العلماء عليه ووفاته
٢١٨-١١٩	الباب الثاني : علومه وأثره في الفقه
١٥٨-١٢١	الفصل الأول: علومه
١٣٤-١٢١	المبحث الأول: الأدب والشعر
١٥٨-١٣٥	المبحث الثاني : الحديث
١٤١-١٣٥	المطلب الأول: روايته له
١٥٦-١٤٢	المطلب الثاني : مؤلفاته في علم الحديث
١٥٨-١٥٦	ومؤلفاته في مختلف العلوم
١٦١-١٥٩	الفصل الثاني : أثره في الفقه
١٧١-١٦٢	المبحث الأول: أثره في الفقه المالكي
١٧٤-١٧٢	المبحث الثاني : أثره في الفقه الشافعي
٢١١-١٧٦	المبحث الثالث: أثره في الفقه عامة
٢١٨-٢١٢	المبحث الرابع : درجته في الاجتهاد
٢٢٤-٢١٩	الخاتمة
٢٣٠-٢٢٥	المراجع
٢٣٢-٢٣١	الفهرست

في هذا الكتاب

١ . سيرة العالم الفاضل قاضي القضاة ابن دقيق العيد الذي لم يكن من علماء السلاطين المتكالبين على المراتب والوظائف الذين يفتون بغير ما أنزل الله وكان مثلاً للورع والتقوى والجرأة والحق وإخلاص النصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فرفع منصب القضاء قدره كما رفع هو منصب القضاء، قال السبكي: أنه هو المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي . وأنه أستاذ زمانه علماً وديناً .

٢ . مقارنة بين سيرته وسيرة شيخه العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبتاع الملوك .

٣ . في حياته حصل تسليم القدس للصليبيين مرتين وذلك بعد استرجاع صلاح الدين لها وقد استرجعها في المرة الأولى ملك الكرك الذي كان تتبع له نابلس وجنين ومنطقة المثلث والذي قال فيه الشاعر:

المسجد الأقصى له عادة سادت فأصبحت مثلاً سائراً
وإذا غدا بالكفر مستوطناً أن يبعث الله به ناصراً
فناصر حرره أولاً وناصر حرره آخراً

٤ . بيان أثر هذا العالم في الفقه والحديث والأدب وقد نقل المؤلف قسماً كبيراً من شعره وخاصة في مدح الرسول ﷺ والحنين إلى الأرض المقدسة والزهد والحكمة .

النَّاشِر